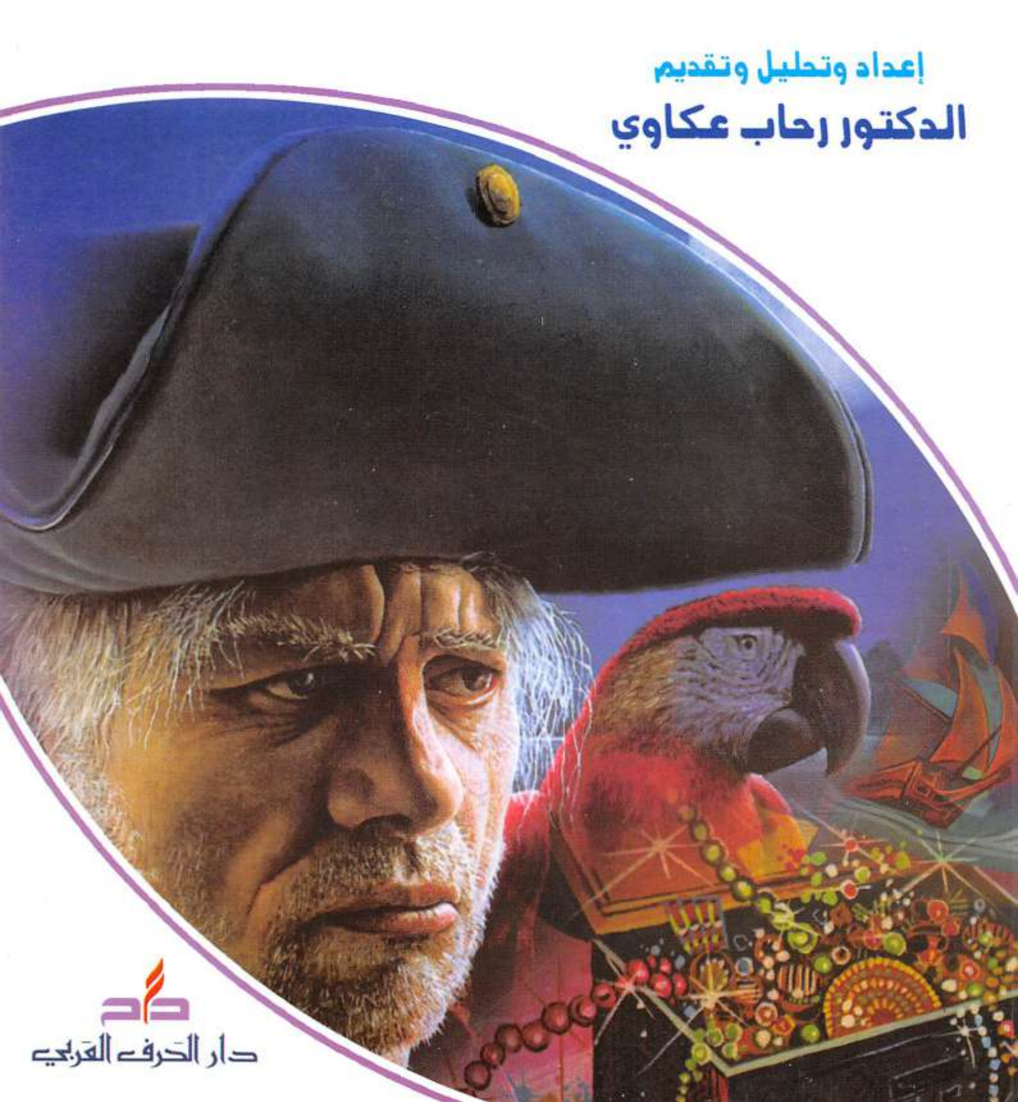
سلسلة أجمل الرّوايات العالمية

روبرت ستيفنسون

جزيرة الكنز

إعداد وتحليل وتقديم

الدكتور رحاب عكاوي



دار الحرف العربي



جزيرة الكنز

أحداث رواية «جزيرة الكنز» تُروى على لسان الصبي «جيم هوكنز» الذي كان يعيش مع أمه في نزل صغير عُرف باسم «أمير البحر بنبو» بالقرب من البحر. وفي يوم يدخل النزل قبطان سفينة قديم يدعى « بيلي بونز» ليقيم فيه عدة أيام. وقد كان « بيلي» هذا يمتلك خريطة سرية لجزيرة نائية أودع فيها الكابتن «فلنت» الرهيب كنزه.

تتوالى الأحداث ويموت القبطان «بونز» وتقع الخريطة بيد «جيم» الذي يسلّمها بدوره إلى الطبيب « ليڤزي»، فيجمع هذا الأخير كوكبة من الرجال ويركبون متن سفينة في رحلة طويلة بحثاً عن الكنز، وكانوا قد إختاروا طاقم بحارة للسفينة قبل إقلاعهم، ولكن لسوء حظهم فقد كان معظم البحارة قراصنة غدّارين، كان هدفهم من الرحلة الاحتفاظ بالكنز، لذلك يجد «جيم» والطبيب والسيد «ترلاوني» المالك أنفسهم محاطين بشرذمة من القتلة وهم في عرض البحر.

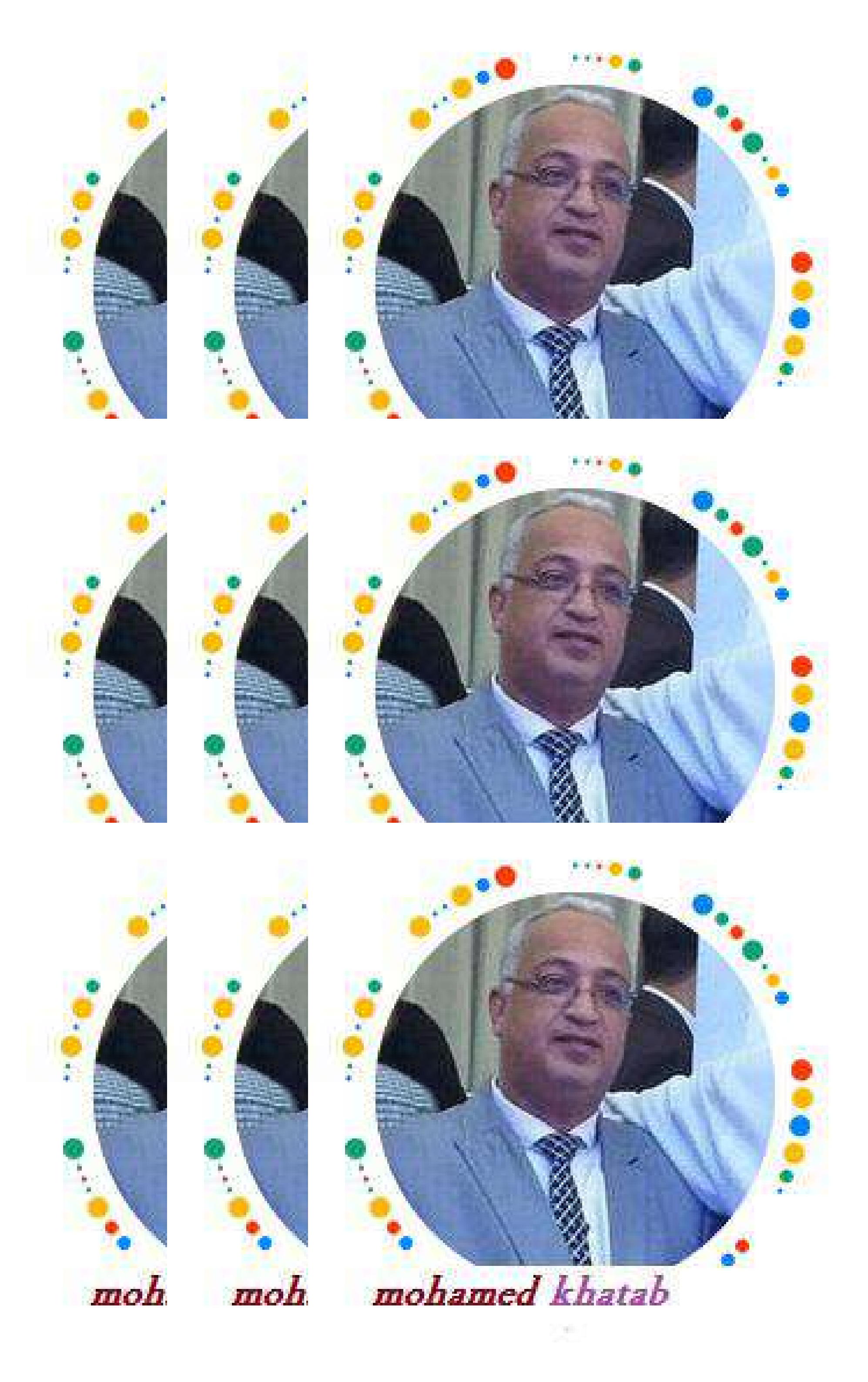
جزيرة نائية.. كنز دفين.. سفينة في عرض البحر.. ورجال يتربّصون ببعضهم الدوائر. أحداث شيّقة نترك للقارئ متعة متابعتها.


ISBN 9953-449-77-5


دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

روبرت ستيفنسون

جزيرة الكنز



mohamed khatab

سلسلة أجمل الروايات العالمية

روبرت ستيفنسون

جزيرة الكنز

إعداد وتحليل وتقديم

الدكتور رحاب عكاوي



دار الحرف العربي

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



دار الحرف العربي

للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب: ١١٣/٦٤٨٠

فاكس: ٠٠٩٦١١/٣٦١٠٤٥

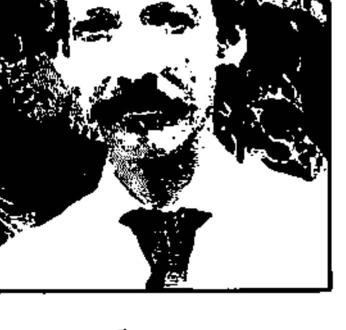
بيروت - لبنان

Printed In Lebanon طبع في لبنان

روبرت لويس ستيفنسون
١٨٥٠ - ١٨٩٤

روبرت لويس ستيفنسون كاتب مقالات اسكتلندي ، شاعر ومؤلف روايات وكتب رحلات ، اشتهر على وجه الخصوص من طريق رواياته الطويلة في المغامرات العجيبة .

ولد روبرت في الثالث عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٨٥٠ في مدينة إدنبرغ في اسكتلندا لأب ، هو توماس ، كان مهندس اتصالات في مكتب «هداية الملاحين» الشمالي . ومنذ طفولته عانى الصغير آلام مرض السلّ . وفي سنة ١٨٦٧ دخل جامعة إدنبرغ ليدرس الهندسة اقتداء بوالده ، ولكنه انتقل إلى دراسة الحقوق حيث انضمّ سنة ١٨٧٥ إلى نقابة المحامين الاسكتلندية . وفي خلال هذه السنوات نشر أول أعماله في مجلة «جامعة إدنبرغ» سنة ١٨٧١ و«بورتفوليو» ١٨٧٣ .


في ساموا سنة ١٨٩٤ وهي آخر صورة له

وبدل أن يمارس روبرت المحاماة اكتشف في نفسه ميلاً إلى الكتابة في قصص رحلات هزلية ، مقالات ، وقصص قصيرة للمجلات . وقد قام بجولة في زورقه الصغير فزار فرنسا وبلجيكا ، ونشر بعد ذلك في سنة ١٨٧٨ «رحلة إلى الجزيرة» و«رحلات مع حمار في السيفين» التي صدرت في السنة التالية .

في سنة ١٨٧٩ سافر ستيفنسون إلى كاليفورنيا مع فاني أوزبورن ، التي كان التقى بها في فرنسا . وفي السنة ١٨٨٠ تزوج بها ، بعد طلاقها من زوجها ، وبعد إقامة قصيرة في كاليستوغا ، عادا إلى اسكتلندا ومن ثم انطلقا في البحث عن مناخ أفضل يرتاح إليه روبرت ، ثم ذهبا إلى سويسرا في سنة ١٨٨٨ ، وأبحرا إلى جزر المحيط الهادي ، وخططا بعد ذلك للقيام برحلة قصيرة ، لكن روبرت لم يعد أبداً إلى أوروبة ، حيث اشترى منزلاً في ساموا ، من جزر بولينيزيا ، وعاش هناك مع زوجته حتى وفاته . وفي خلال إقامته الطويلة هناك أصبح مهتماً بشعب المحيط الهادي الجنوبي ، وقد غضب للأذى الذي يلحقه الأوروبيون الوافدون بالجزر وسكانها ، وكتب في ذلك رسائل وقصصاً ، منها قصّتان «شاطئ فاليسا» سنة ١٨٩٣ و«حركة المد والجزر» سنة ١٨٩٤ ، وكان يكتب كتاباً آخر حين وافاه الأجل .

عرف ستيفنسون الشهرة بروايته «المغامراتية» الرومانسية «جزيرة الكنز» التي نشرت سنة ١٨٨٣ ، بالإضافة إلى قصص شعبية أخرى منها «المختطف» ١٨٨٦ ، «حالة الدكتور جيكل والمستر هايد الغريبة» ١٨٨٦ ، و«سيّد بالأنترا» ١٨٨٩ ، و«السهم الأسود» ، و«كتربونا» ، وأعمال أخرى كثيرة ، ولولا موته المبكّر لأتحف العالم بنتاج كبير .

والجدير بالذكر أنّ ستيفنسون في روايته «الدكتور جيكل والمستر هايد» تكلّم عن انفصام الشخصية قبل «فرويد» بسنين طوال .

وفي الثالث من كانون الثاني/ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، توفي روبرت لويس ستيفنسون في «فيليما» (ساموا) ، وكانت آخر أعماله قصة «سدّ هرميستون» التي لم يكن قد أنجزها بعد .

جزيرة الكنز

تعتبر «جزيرة الكنز» قمة روايات ستيفنسون ، وقد استوحى أحداثها من حكاية كنز مدفون رسم أول خيالاتها في ذهنه وهو يخطط لجزيرة خيالية ليسلّي بها ابن زوجته في يوم عطلة . وحين صدرت روايته ، وكان ينشرها على حلقات ، أسماها في البدء «طاهي البحر» فلم تُقابل بما كان يؤمل أن تنال من نجاح ، فأعاد طبعها بعد أن استبدل اسمها بـ«جزيرة الكنز» ، وفي حين كانت تنشر في مجلة أطفال من قبل صارت بعد ذلك مجلّداً تاماً .



روبرت ستيفنسون ١٨٧٩
للرسّام ب .س . كروير

وقد كانت قصص القرصان في تلك الحقبة ذات شعبية كبيرة في إنكلترا ، ولكن حين كتب ستيفنسون «جزيرة الكنز» كان هناك القليل من القرصان في عرض البحار ، لذا لم يكن الموضوع خطيراً جداً ، ولا مخيفاً ، ولكن القصة بحد ذاتها أصبحت أشهر قصص القرصان قاطبة ، وقد يكون «جون سلفر الطويل» أشهر قرصان في الأدب الإنكليزي .

وقد ترجمت هذه الرواية إلى أربعين لغة ، ومثّلت سينمائياً في أكثر من فيلم ، وبلغ عدد طبعاتها باللغة الإنكليزية ـ بين سنة ١٩٦٥ و١٩٧٥ فقط ـ عشر طبعات .

والجدير بالذكر أن ستيفنسون استخدم الكثير من المصطلحات

الخاصة بالبحر والبحارة في روايته ما احتاج إلى توضيح الكلمات الغامضة ، ومنها القديمة غير المتداولة حالياً .


ستيفنسون في بورن ماوث
١٨٨٦ (متحف المؤلفين - إدنبرغ)

وأحداث رواية «جزيرة الكنز» تُروى على لسان الصبي «جيم هوكنز» الذي كان يعيش مع أمه في نزل صغير عُرف باسم «أمير البحر بنبو» بالقرب من البحر . وفي يوم يدخل النزل قبطان سفينة قديم يدعى «بيلي بونز» ليقيم فيه عدة أيام . وقد كان «بيلي» هذا يمتلك خريطة سرية لجزيرة نائية أودع فيها الكابتن «فلنت» الرهيب كنزه .


في سيدني ١٨٩٣
(متحف المؤلفين - إدنبرغ)

تتوالى الأحداث ويموت القبطان «بونز» وتقع الخريطة بيد «جيم» الذي يسلّمها بدوره إلى الطبيب «ليفزي» ، فيجمع هذا الأخير كوكبة من الرجال ويركبون متن سفينة في رحلة طويلة بحثاً عن الكنز ، وكانوا اختاروا طاقم بحارة للسفينة قبل إقلاعهم ، ولكن لسوء

حظهم فقد كان معظم البحارة قراصنة غدّارين ، كان هدفهم من الرحلة الاحتفاظ بالكنز ، ولذلك يجد «جيم» والطبيب والسيد «ترلاوني» المالك أنفسهم محاطين بشرذمة من القتلة وهم في عرض البحر .

جزيرة نائية . . كنز دفين . . سفينة في عرض البحر . . ورجال يتربّصون ببعضهم الدوائر . . أحداث شيّقة نترك للقارئ متعة متابعتها .



على شرفة فيليما في ساموا سنة ١٨٩٢
(متحف المؤلفين - إدنبرغ)



في سيدني مع زوجته فاني ستيفنسون وابنتها إيزوبيل سترونغ ووالدته مرغريت سنة ١٨٩٣
(متحف المؤلفين ـ إدنبرغ)



مع الملك كلكروا في هونولولو سنة ١٨٨٩
(متحف المؤلفين ـ إدنبرغ)

القسم الأول

أمير البحر بنبو(*)

- ١ -

أغنية البحر

عهد إليّ السيد ترلاوني والدكتور ليفزي ، وبقية هؤلاء السادة ، أن أدوّن ما كان من غرائب جزيرة الكنز ، من البداية إلى النهاية ، باستثناء موقعها ، وذلك لأن للكنز بقية لم تستخرج بعد ، ولذا فإني أمسك يراعتي في سنة ١٧ للميلاد ، راجعاً بذهني إلى الوقت الذي كان يشغل فيه أبي نُزل «أمير البحر بنبو» ؛ يوم شيّعنا ذلك الملاح الهرم الأسمر الذي كان بإحدى وجنتيه أثر لضربة حسام .

وكأنما كان ذلك بالأمس ساعة يمم ذلك الملاح باب فندقنا متثاقلاً في مشيته ، وفي إثره عربة يد تحمل صندوقه البحري ، والرجل طويل القامة ، قوي البنية ، ثقيل الخطى ، جوزي اللون ، تتساقط على كتفي معطفه الأزرق الملوث جدائل من شعر قطراني ، ويداه خشنتان ممتلئتان بآثار الجروح ، تنتهيان بأظفار سوداء مكسرة ، وفي عرض أحد صدغيه أثر حزّ سيف ملتحم بلون أبيض قذر داكن . ولا زلت أتمثل الرجل يقلّب بصره حول الملجأ الموضع الظليل وهو يصفر ، ثم يرفع عقيرته فجأة فيغني أغنيته البحرية القديمة :

«خمسة عشر رجلاً على صدر الميت

«يوهو هو وزجاجة روم!» .

والتي طالما شنّف بها آذاننا فيما بعد صوته العالي المتهدج الذي

(*) Admiral Benbow المتوفى سنة ١٧٠٢ والذي كان في أول أمره ربان سفينة ثم خاض عدة حروب بحرية وتوفي في جامايكا .

كان يرخمه ثم يكسره كعادته في الغناء وهو على ملفّ المرساة .

دخل وقرع الباب بعصا كالعتلة كان يحملها ، وما إن رأى أبي حتى طلب بخشونة كأساً من الروم ، فلمّا قُدِّم إليه شربه متمهّلاً كالخبير الذي يتأنى ليتلذذ بمذاق الشيء . ولم تفتر عيناه وهو يشربه عن النظر إلى الحروف والتحديق في اللوحة التي عليها اسم النزل .

ثم تكلّم أخيراً وقال : «مكان مناسب ، وخان حسن الموقع» . وسأل أبي ما إذا كان في النزل كثيرون . فأجابه آسفاً «إن قليل ما هم» . فقال «حسن ، وصاح بالرجل الذي يدفع العربة أن هذا مثواي يا صاح فاقترب وارفع الصندوق» . ثم «إني مقيم هنا قليلاً ، واني رجل ساذج اجتزئ بالروم ولحم الخنزير والبيض ، وبذلك الرأس أرقب السفن المارة ، وإذا دعوتموني عليكم أن تلقبوني «الكابتن» ، إلى أن قال «عرفت فيما تتآمرون هنالك» . ثم إنه ألقى على عتبة الباب ثلاث أو أربع قطع ذهبية وقال بصوت الآمر : «خبّروني عند نفادها» .

والحق يقال إنه بالرغم من رثاثة ثياب الرجل ، وخشونة حديثه ، لم يكن عليه شيء من سيماء البحارة مطلقاً ؛ ولكنه على العكس من ذلك كان أقرب إلى أن يكون صاحب سفينة ، أو رباناً اعتاد أن يطاع أو يبطش بمن لا ينصاع .

وأفادنا حامل صندوقه أن العربة التي تنقل البريد قذفت به صباح أمس عند محطة رويال جورج ، فسأل عن النزل القريب من الشاطئ ، والظاهر أنه سمع ثناء «على فندقنا» ، وعرف كذلك بما كان من انفراده ، فاختاره دون غيره مكاناً لإقامته ، وكان ذلك كل ما عرفناه من أخبار نزيلنا .

كان الرجل طويل الصمت بطبعه ، وكان يقضي طول يومه حائماً حول الملجإ ، أو متسلقاً فوق الجروف ، ومعه مرقب نحاسي . أمّا

لياليه فكان يسلخها في أحد أركان حجرة الاستقبال على مقربة من النار يحسو الروم المشوب بالماء بشراهة زائدة ، ويغلب عليه ألاّ يجيب إذا وُجِّه إليه السؤال ، إلاّ أنه كان يرفع بصره بشراسة مأخوذاً ، ويزأر من أنفه بشدة كمن ينفخ في بوق ، على أننا وجماعة القوم الذين كانوا يمرون بدارنا لم نلبث أن اعتدنا على تركه وشأنه .

وكان يسأل في كل يوم عقب عودته من تجواله ما إذا كان قد مرّ على مقربة منا أحد من رجال البحر . ولقد ذهب بنا الظن بادئ ذي بدء إلى أن قلة الصحب من خلانه هي التي تدفع به إلى مثل هذا السؤال ، على أننا لم نعتّم أن أدركنا أخيراً بأنه كان نزوعاً إلى اجتنابهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وكان إذا نزل بفندقنا بحار (كما كان يحدث من آن إلى آخر حين ينزل بعضهم إلى الشاطئ في طريقهم إلى برستول) كان لا يجسر على دخول الحجرة قبل أن ينظر إليه من خلال سجف الباب ؛ وكان يلزم نفسه الصمت والسكون كالجرذ في مثل هذه الأحوال . أما أنا فلم تكن لتخفى عليّ من الأمر خافية حيث كنت شريكه في خوفه على حد ما ، فقد جذبني يوماً على انفراد ووعدني بقطعة من الفضة ذات الأربعة بنسات ينفحنيها في أول كل شهر إذا راقبت بعين لا تغفل بحاراً ذا ساق واحدة ، وأن أعلمه بشأنه لحظة ظهوره . ومع أن الرجل كان يزبد ويحملق في وجهي إذا التمست منه في أول الشهر أن ينقدني أجرتي ؛ على أن الأسبوع الأول من الشهر ما كان ينصرم قبل أن يتدبّر الأمر ، وينفحني القطعة معيداً على مسمعي أوامره الأولى أن «أرقب البحار ذا الساق الواحدة» .

ولا حاجة بي إلى أن أذكر ما كان من أمر ملازمة ذلك البحار لأحلامي ، فلطالما كنت أتمثله في الليالي العاصفة عندما تهز الريح

جوانب الدار الأربعة ، وتصفق الأمواج المتلاطمة على امتداد الملجإ ضارية في أكناف الجروف . كنت أتمثله في هاتيك الليالي في ألف شكل ، وأراه على ألف صورة شيطانية مرعبة . فتارة أتخيل ساقه وقد بترت عند الركبة ، وطوراً عند أعلى الفخذ ، وآونة أتمثله ضرباً من الوحش خلق بساق واحدة قد ثبتت في منتصف جسمه . وكان شرُّ كابوس يدهمني ليلة أراه يجري ويثب ليطاردني ، وقد جرى في أثري فوق الأسوار وفي الأخاديد والحفر ؛ ومجمل القول أني كنت أدفع ثمناً غالياً لتلك القطعة التي كنت أظفر بها في نهاية كل شهر جرّاء ما كان يرهقني من تلك الخيالات المرعبة ؛ على أن فرقي من البحار ذي الساق الواحدة كان بالغاً حد الغاية ، إلاّ أنني كنت أقل خشية منه من كل عارفيه .

كان إذا اختل ميزان رأسه ، في بعض الليالي التي يفرط فيها من شرب الروم ، يرفع عقيرته مغنّياً أغنيته الوحشية القديمة غير مكترث لأحد ، ثم يطلب الأقداح لمن حوله ، ويرغم جماعة الحاضرين الذين ينتفضون خوفاً منه على الإنصات لقصصه ، أو ترديد كلمات أغانيه ، ولطالما شعرت جوانب الدار تهتز وهو يجأر "يوهو هو وزجاجة روم . . ." وقد ضم سائر الموجودين أصواتهم إليه بعد أن علتهم صفرة الموت ، وكل يرفع صوته على صوت صاحبه مخافة أن يلحظه القبطان ، حيث كان في مثل هذه النوبات يتفرد بالفظاظة والغلظة والاستبداد ، حتى إنه لا يطاق ، فقد كان يضرب النضد بكفيه آونة ليخيّم السكون ، ويعمّ الصمت ، وآناً يثور مغتاظاً متنمّراً إذا وُجه سؤال إليه ، فإذا لم يُسأل استنتج أن السامعين غير متتبعين لحكايته . وما كان ليسمح لأحد بمغادرة النزل قبل أن يحسو كفايته ، حتى يحس بدبيب الكرى فينقلب مترنّحاً ليأخذ مكانه في مرقده .

على أنه ما كان القوم يهلعون من شيء هلعهم من قصصه المرعبة التي كانت تدور حول الشنق وبيان ما كان يمثّله لصوص البحر بأسراهم من ربط عيونهم وأيديهم ، وحملهم على السير على مرقاة كالصراط معلقة في عرض المحيط ، فلا يكادون يتحركون عليها حتى تزل بهم القدم فيغدون طعمة للأسماك ، ووصف زوابع البحر وأنوائه ، فقد كان يكرر الوصف المروّع للحوادث ، وبيان الأماكن التي في البحر الإسباني الطامي . وكانت الألفاظ التي يتخذها للتعبير عن معانيه أشد وقعاً على القرويين البسطاء من تلك الجرائم وهاتيك المنكرات التي كان يصفها . وكان أبي دائم التوقع لخراب الفندق ، حيث كان يتوجّس أن يُمسك الناس عن غشيانه مخافة أن يُستبد بهم ثم هم ينقلبون إلى فراشهم هلعين . على أنني كنت أعتقد عكس ذلك ، فقد أفادنا وجوده ، حيث كان خوف القوم وقتياً ، بيد أنهم كانوا إذا ذكروا أحاديثه بعد ذلك لذّت لهم ، إذ كانت قصصه ممتعة تلذ للقروي في حياته الهادئة ، وقد تظاهر عدا ذلك نفر من الشباب بأنهم مُعجبون به أيّما إعجاب ، فكانوا تارة يدعونه «قرصاناً حقيقياً» وطوراً «ابن نكتة عتيق» إلى غير ذلك من أشباه هذه النعوت ، ثم هم يقولون على مثل هذا الرجل شيدت عظمة إنكلترا في البحار .

ويبدو أنه عزم في قرارة نفسه على أن يُحل بنا الدمار حيث ظل يقيم في النزل أسبوعاً بعد أسبوع ، ثم شهراً بعد شهر ، حتى فرغ منذ أمد بعيد كل ما أعطانا من ذهبه . ومع ذلك فما كان أبي ليجسر على الإلحاف في طلب المزيد ، وإذا اتفق أن بدرت منه إشارة إلى ذلك زمجر القبطان من أنفه بصوت عال تكاد تخاله زئيراً ، وأطال التحديق بالمسكين حتى يرغمه على مغادرة الحجرة . ولطالما رأيت أبي يضرب يداً بيد عقب هاتيك الردود ، ولست أشك في أن الضيق والخوف

الشديدين اللذين لازماه قد عجّلا أيّما تعجيل بميتته الباكرة التعسة .
وما كان القبطان طول مدة إقامته عندنا ليبدل من ملابسه شيئاً ، اللهم إلاّ ما كان يشتريه من الباعة المتجولين من جوارب . وقد تدلى أحد أركان قبعته يوماً فتركه على حاله ، غير أن الريح كانت تضايقه إذا هبت حيث تعبث بذلك الطرف المتدلي . وما زلت أذكر منظر معطفه الذي كان يرتوه بنفسه في غرفته في الطابق العلوي ، حتى استحال قبيل المنتهى إلى مجرد رقع . وما كان رجلنا ليكاتب أحداً ، ولا كان أحد ليكاتبه ، ولا كان ليحدث مع أحد ذكراً ، اللهم إلا مع الجيران ؛ ومع ذلك فقد كان يغلب عليه ألاّ يحدث أولئك إلاّ إذا ثمل من شرب الروم ، وأمّا صندوق البحر الكبير الذي حمله معه فلم تره عين يُفتح .

ولم يجرؤ أحد على التعرض لإغضابه إلاّ مرة واحدة ، وكان ذلك في آخر الأمر عندما اشتدت بأبي المسكين وطأة المرض الذي أودى بحياته . وذلك أن الطبيب «ليفزي» جاء متأخراً في أصيل يوم لعيادة أبي ، ثم ناولته أمي مضغة من الطعام ، وبعد ذلك قصد إلى حجرة الاستقبال ليدخن غليونه ريثما يُحضر جواده من الدسكرة ـ القرية الصغيرة ـ حيث لم يكن لدينا حظيرة للخيل في هذا النزل القديم .

وقد تبعته إلى الحجرة ، وهنالك لاحظت الفرق بين هذا الطبيب الأنيق الوسيم الرشيق ذي الشعر المستعار المزين الناصع البياض ، والعينين السوداوين اللامعتين ، وبين القرويين الساذجين ، وهالني على الخصوص البون الشاسع بينه وبين ذلك القرصان الدميم الثقيل المظلم ، وقد أخذ الروم بلبه ، وهو معتمد بذراعه على النضد . وإني لكذلك وإذا بالقبطان قد قذف من حلقه أغنيته التي لا تتغيّر :

«خمسة عشر رجلاً على صدر الميت

يوهو هو وزجاجة روم!
أشرب وإبليس قتل الباقي
يوهو هو وزجاجة روم»

وكان قد ذهب بي الظن في أول الأمر إلى أن حقيبة ذلك الميت إنّما هي الصندوق البحري الكبير الموضوع في الطابق العلوي في الحجرة، وقد اختلط ذلك الفكر بأحلامي المزعجة، متّحداً مع خيالاتي عن البحّار ذي الساق الواحدة. على أننا كنا إذ ذاك قد أمسكنا عن إعارة هذه الأغنية أي اهتمام، فلم تكُن في تلك الليلة جديدة على أحد غير الطبيب الذي لاحظت بأنها تركت عنده أثراً غير مقبول؛ حيث رفع بصره مستاء قبل أن يمضي في حديثه مع «تايلر» البستاني الهرم، وقد كان يخبره بعلاج جديد لداء مفاصله. أما القبطان فارتفعت نغمة غنائه، وعلا صوته، ثم ضرب بيده نضداً أمامه بشكل نعرف جميعاً أنه يعني به إسكات الحاضرين، فانقطعت الأصوات لساعتها، ولم يبق إلاّ صوت الطبيب، الذي مضى في حديثه بصوته الرائق اللطيف، ساحباً الدخان من غليونه بكل خفة بين كلمة وأخرى، فحملق القبطان به لحظة ثم ضرب بيده ثانية، وزاد به تحديقاً، ثم أفلت قسماً دنيئاً وصاح «أمسكوا ألسنتكم يا هؤلاء».

فسأله الطبيب بهدوء: «هل كان سيدي يحدثني؟». ولـمّا أكد له بقسم آخر أن إياه يعني، أجابه الطبيب: «ليس عندي لك يا سيدي غير أن الوجود سوف يرتاح من وغد لئيم قذر إذا استطردت في شرب الروم».

فهب القبطان العتيق على قدميه وهو يكاد ينشق غيظاً ويقطر غضباً، وأخرج مدية ثم هزها ممسكاً إياها براحة يده، وهدد بأن

يلصقه إلى الحائط بها .

ولم يحرّك الطبيب ساكناً ، على أنه حدثه بمثل ما كان يحدثه به من قبل من عدم الاكتراث ، وبالنغمة السابقة نفسها ، بحيث يتسنى لسائر الحاضرين سماعه ولكن بغاية السكون والتؤدة قال : «إذا لم تأخذ مديتك مكانها من جيبك فإني مقسم بشرفي أنك غير ناج من الشنق في أول محكمة جنايات تعقد» .

ثم إنَّ كلاًّ منهما حدج صاحبه بنظرات من الحقد والكراهية ، على أن طرف القبطان لم يلبث أن ارتد إليه كليلاً ، فطوى مديته وأخذ مكانه من مقعده ، وجعل يدمدم كالكلب إذا ضرب .

واستأنف الطبيب حديثه قائلاً : «أما وقد علمت أن في دائرتي رجلاً مثلك ، فلتوقن بأني غير غافل عن مراقبتك صباح مساء . فما أنا بالطبيب فقط بل إنني من رجال القضاء أيضاً . فإذا تنسمت رائحة من الشكوى ضدك ، ولو بسبب قليل سفاهة من مثل ما حدث الليلة ، فلأتخذن من التدابير أشدها لمطاردتك واجتثاث جذورك من هذا المكان وحسبك هذا وكفى» .

وللوقت أحضر الخادم جواد الطبيب إلى باب النزل ، فامتطاه وسار به . أمّا القبطان فقد ظل ساكناً في تلك الليلة وما تلاها .

- ٢ -

الكلب الأسود

لم يمتد بنا الزمن بعد تلك الليلة حتى حدثت أولى الحوادث الخفية الغريبة التي خلصتنا من القبطان، ولو أنها لم تُرحنا من شؤونه كما سنرى. كان الشتاء شديد القر، دائم الصقيع، قوي العواصف، فعرفنا من البداية أن حياة أبي لن تطول حتى الربيع؛ فكلما مرَّ به يوم كلما زاده ضعفاً وخوراً. وكنت وأمي نقوم منفردين بكل شؤون النزل، التي ملكت علينا مشاعرنا، وحالت بيننا وبين التفكير في ضيفنا الثقيل الظل.

فلمّا كان فجر يوم شديد القر من كانون الثاني/ يناير، وقد علا الملجأ طبقة من الجليد الصاقع، والأمواج تهدر هادئة على الصخور، والشمس ما برحت تحت الأفق، وقد مست خيوط أشعتها قمم التلال، ودبَّ دبيب ضوئها حول مكان بزوغها من البحر، بكر القبطان تبكير الغراب، واستفاق قبيل المعتاد؛ ثم انطلق نحو الشاطئ، يتذبذب سيفه القصير تحت أردان معطفه الأزرق الخَلق، وقد تأبط مرقبه النحاسي، واستقرت قبعته مائلة على مؤخرَ رأسه، وانتشرت أنفاسه كالدخان في إثره فوق الطريق الذي اجتازه بخطى واسعة، ثم إنه زمجر زمجرة عالية من السخط والاحتقار، وقد تجاوز الصخرة الضخمة، وكأنما كانت رحى ذهنه ما فتئت دائرة على حديث الطبيب ليفزي، فكانت هذه آخر ما سمعته منه.

هذا وقد كانت أمي في الطابق العلوي مع أبي؛ وبينما أنا أُحضّر مائدة الإفطار استعداداً لرجوع القبطان، إذ فُتح باب حجرة الاستقبال

ودخل منه رجل كاسف الوجه سمين ، لا عهد لي بطلعته من قبل ، وكانت يسراه ينقصها أصبعان ، ولو أنه يحمل حساماً ، بيد أن مظهره ما كان لينم على أنه من أهل القتال . ولـمّا كنت لا أغفل لحظة عن مراقبة البحارة سواء على أحاديي الساق منهم وثنائييها ، فإنّ ذلك الرجل تملكني الشك في أمره ؛ فرغم أنه كان بعيد الشبه عن البحارة إلاّ أن مسحة البحر كانت بادية عليه .

سألت الرجل عمّا يريد شربه ، فأجاب «جرعة من الروم» ، وحين مضيت لإنفاذ أمره ، إذ به قد جلس إلى نضد وطلب إليّ أن أدنو منه ، فجمدت في موضعي وكانت بيدي الفوطة ، فقال «اقترب إليّ يا بنيّ» . ولـمّا طلب أن أدنو منه أيضاً ، خطوت نحوه خُطوة ، فسألني وقد حدجني بنظرة خبث ودهاء ما إذا كان ذلك النضد الذي جلس عليه هو هو نضد صاحبه «بل» نفسه .

فأجبته أن لا علم لي بصاحبه «بل» وأن هذا النضد إنّما هو لامرئ يقيم في النزل اعتدنا أن نسميه القبطان .

فقال «حسناً يمكنك أن تسمي صاحبي «بل» بالقبطان ، ويمكنك أن لا تسميه كذلك ، والمهم أن بإحدى وجنتيه قطعاً ، وهو رجل موفور القوة خفيف الروح خصوصاً إذا شرب ، فإذا سلمنا جدلاً بأن في وجنة صاحبك القبطان قطعاً ، ولنفرض ذلك القطع في صدغه الأيمن ، فهل صاحبي «بل» يقطن هذا النزل؟ فها أنا أفضيت إليك بجملة معلومات» .

فأجبته بأن صاحبه يتريّض خارجاً ، فسألني بلهفة «وأي سبيل سلك يا بني؟» ولـمّا أشرت له إلى الصخرة ، وأفهمته كيف ومتى يغلب أن يعود صاحبه ، وأجبته على بضعة أسئلة وجهها إليّ قال «إن مقابلتي مع صاحبي «بل» سوف تكون أحب إليه من الروم» .

ولم تكن أسارير وجهه لتنم عن شيء طيب وهو يقول ذلك ، فذهب بي الظن إلى أن الرجل قد أخطأ ولو كان يعني ما يقول . على أن ذلك لم يكن من شأني في شيء على ما اعتقدت ، أضف إلى ذلك أنه كان من الصعب عليّ معرفة ماذا يجب أن أفعل . ظل النزيل رابضاً في الحجرة أقرب ما يكون من الباب وهو يتلفت حوله كالقط إذا كمن للجرذ ، ولقد حاولت الخروج مرة فصاح بي أن أرجع ، ولما وَهِمَ بأني لم أنزل عند طاعته بالسرعة المطلوبة ، تمعّر وجهه الرهو ، وبدت عليه مظاهر الخشونة ، وأمرني بالدخول مهدّداً ، فوثبت من موضعي من غير تردد ، ولـمّا دخلت عاد إلى سابق عهده من المداهنة والملق المشوبين بشيء من التهكم ، وضربني بلطف على كتفي قائلاً بأني صبي طيب ، وبأنه أحبني كثيراً ، ثم أردف قائلاً «ها قد جاء صاحبي "بل" وهو يتأبط مرقبه ، ألا فلندخل إلى داخل الحجرة ونختبئ خلف الباب حتى نباغته إذا هو دخل الحجرة» . قال ذلك ورجع بي القهقرى إلى الحجرة ، وجعلني خلفه في الركن بحيث يحجبنا الباب المفتوح . ولقد برّح بي الخوف وملكني الرعب كما لا يخفى ، وانخلعت شعبة من مهجتي لما تبينته من خوف الرجل نفسه ، فقد رفع مقبض حسامه مجرّداً نصله من غمده ، وظل يزدرد لعابه طول المدة التي احتجبناها .

وأخيراً ولج القبطان إلى داخل الحجرة مقفلاً الباب خلفه بكل عنف ، من غير أن يلتفت يمنة ولا يسرة ، وقد يمّم وجهه شطر المائدة التي عليها طعام إفطاره .

فصاح به الرجل : يا "بل" ، وقد تصنّع في صوته الشجاعة والشدة ، فدار القبطان على عقبيه حتى واجهنا ، وغادرته الحمرة وعلت وجهه زرقة سرت حتى إلى أنفه ، ولبث في مكانه برهة أعوزه

فيها النطق ، وافترس طائر حلمه الدهش والذهول كمن يرى روحاً ، أو كمن يقف في حضرة إبليس ، أو من هو شر من إبليس إن كان هنالك شر منه .

وإني مقسم بشرفي أنني أسفت جد الأسف حين رأيته وقد نزل به السقم ، وتولاه في لحظة الهرم .

ثم عاد وصاح به صاحبه «تقدم يا «بل» فإنك تعرفني ، ولا ريب في أنك لا تجهل صديقك القديم» .

فقال القبطان متنهّداً : «الكلب الأسود !» .

وابتسم صاحبنا وقال : «ومن أكون سواه ، أجل أنا الكلب الأسود بلا ريب ، جئت لأتفقد صاحبي القديم «بل» في نزل أمير البحر بنبو ، آه «بل» لقد نزلت بكلينا نائبات الدهر مذ فقدت أصبعيّ» ، قال ذلك ماداً يده المبتورة الأصبعين .

فصاح به القبطان : «التفت إليّ ، ها أنت قد اكتشفت ملجئي ، وها أنا أمامك ، فتشجّع وارفع صوتك وحدثني بما تريد» .

فأجاب الكلب الأسود بقوله : «ها قد عثرت بك يا «بل» وإنك لمحق في طلبك يا صديقي ، فإذا حسُن لديك فإني شارب كأس روم من يد هذا الصبي الذي أميل إليه ، ثم فلنجلس ونتحدث بصفاء ، شأن الأصدقاء القدماء» .

وما إن رجعت بالروم حتى كان قد استقر بكليهما المقام على جانبي مائدة إفطار القبطان ، وقد جلس «الكلب الأسود» مراقباً للباب ، وكان جلوسه بانحراف بحيث تستقر إحدى عينيه على صاحبه وعينه الأخرى على الباب ليحفظ لنفسه خط الرجعة .

وقد أمرني الرجل بالخروج وترك الباب مفتوحاً على مصراعيه ، وأردف يقول «لست يا بني ممن يُسترق عليهم من ثقوب الأبواب» .

فتركتهما سوياً ورجعت إلى المكان الذي تحضر فيه المشروبات .
ومع أني أرهفت السمع طويلاً لألمّ بشيء من جانب الحديث إلاّ أنني لم أستطع سماع شيء غير دمدمة خافتة . على أن الأصوات علت في النهاية ، فأمكنني سماع لفظ أو لفظي تهديد من القبطان .
وقد صاح القبطان مرة : «لا . لا . لا . لا مطلقاً !» . وقال في مرة ثانية «إذا مست الحاجة إلى شنقهم فإني أرى أن نشنقهم جميعاً» .
ثم أعقب ذلك فجأة انفجار بركان هائل من الأقسام والتهديد ومختلف الأصوات ، ثم انقلب الكرسي والنضد مرة واحدة ، وسمعت صلصلة أعقبتها صيحة ألم ، وللحال لمحت «الكلب الأسود» مولياً الأدبار وقد أطلق لساقيه الريح ، والقبطان جاد في أثره ، وقد جرد كلاهما نصل حسامه وتدفق الدم من يسرى كتفي أولهما ، ولو لم يكن من اعتراض اللوحة الكبيرة ، التي عليها اسم النزل ، لوصلت الطعنة الأخيرة القاتلة التي حاول القبطان أن يودع بها خصمه المدبر إلى عموده الفقري ، حتى إنك لترى أثر تلك الضربة بادياً في أسفل إطار اللوحة إلى يومنا .
وكانت هذه الضربة خاتمة الموقعة ، فما إن ظفر «الكلب الأسود» بالوصول إلى الطريق ، حتى مرق مروق السهم الراشق ، بالرغم من جروحه الدامية ، ثم اختفى في بضع ثوان فوق حرف التل .
أمّا القبطان فقد وقف يقلب الطرف في اللوحة كمن به مس من الجنون ، ثم مر بيده فوق عينيه عدة مرات ، وانقلب أخيراً إلى داخل النزل ، ثم صاح بي «عليّ بالروم يا جيم» وبينا يقول ذلك ترنح قليلاً ثم أسند نفسه بيده إلى الحائط .
فصحت به : هل مسّك سوء؟
فأجاب : «عليّ بالروم ، فهذا المكان مزعج ، عليّ بالروم ! الروم !» .

فهرعت لتلبية طلبه ، على أنني كنت قلق الخاطر مزعزع الجانب من هول ما حدث ، فكسرت قدحاً ، وإني ماضٍ في سبيلي إذ نزل بسمعي سقوط شيء بصوت عال على الأرض ، ولـمّا انقلبت راجعاً شهدت القبطان ممدداً على أرض الحجرة ، وفي الوقت ذاته ذعرت أمي من الصيحات وصوت القتال فانحدرت مسرعة بالنزول لنجدتي ، ثم تعاونّا فيما بيننا على رفع رأس الرجل ، وكان يتنفس بصعوبة زائدة ، وصوت عال ، كما كانت عيناه مقفلتين ، ولون وجهه مخيفاً .

فقالت أمي : «ويلاه ! يا لهول هذا العار على النزل ، وأبوك المسكين طريح الفراش» .

وتملكنا الاعتقاد ساعتئذ بأن القبطان لقي حتفه في قتاله مع الرجل المجهول ، فلم نفكر مطلقاً في إسعافه ، وكنت أحضرت الروم فعلاً وحاولت أن أدفع به إلى حلقه ، على أن أسنانه كانت محكمة الإغلاق ، كما أن فكيه كانا كالحديد ، بيد أنه رُفِه علينا عندما فتح الباب ودخل الطبيب «ليفزي» ليعود أبي . فصَحنا به «ما العمل ، وأين جرح الرجل؟» .

فأجاب الطبيب مستغرباً : «تقولان جرح؟ حديث خرافة ، لم يصب الرجل بسوء إلاّ بقدر ما أصيب أحدنا ! إن هذه هي السقطة التي حذرته منها» . ثم قال : والآن ارجعي إلى زوجك يا سيدتي ، وتجنبي ما استطعت أن تحدثيه بشيء مما حدث . «أما أنا فسأجتهد في إنقاذ حياة هذا الرجل التافه التي لا تساوي قمامة ، وليحضر «جيم» لي إناء» .

ولـمّا رجعت بالإناء كان الطبيب قد شق طرف كم القبطان وكشف عن ذراعه القوي ، وكان موشوماً في عدة أماكن بعبارات مثل «هنا الحظ» ، «هواء موافق» ، «بيلي بونز حبيبي» وكلها موشومة وشماً

دقيقاً ظاهراً على ساعده ، وإلى جوار الكتف وشم مشنقة تدلى منها رجل . وقد رسم هذا الوشم على ما أعتقد بمهارة فائقة وتناسب عجيب .

قال الطبيب وقد لمس الصورة بيده : «يا لها من تعويذة ، والآن يا عم «بيلي بونز» ، إذا كان هذا اسمك ، سنرى ماذا يكون من لون دمك» ، ثم سألني ما إذا كنت أخاف من رؤية الدم فأجبته سلباً ، فقال «حسن إذاً ، أمسك الحوض» ؛ ثم شق بمشرطه وريداً ، فتدفق منه دم كثير قبل أن يفتح القبطان عينيه ، وينظر حوله مرتاباً ، فوقع بصره على الطبيب أولاً ، فحوّله عنه عابساً ، ثم وقع بصره عليّ فسُرّي عنه ، على أن لونه تغير فجأة ثم حاول النهوض وهو يقول «أين الكلب الأسود»؟

فأجابه الطبيب أن «لا كلاب سوداء عندنا غيرك» ، «لقد أفرطت يا هذا في شرب الروم فأصابتك نوبة كما أفهمتك تماماً ، ولقد انتشلتك على كُره مني من بين براثن الهلاك ، والآن ما قولك يا سيد بونز؟» .

فقاطعه القبطان بقوله : «ليس هذا اسمي !» .

«لا بأس ، إنه اسم قرصان أعرفه ، وإني مسمّيك به على سبيل الاختصار ، وكل ما أقوله لك إن كأساً من الروم لا يقتلك ، إلاّ إذا جرعت كأساً أردفته بثانٍ وثالث ، وإني مراهنك على أنك إن لم تضع للمسألة حدّاً ، فإنك لا مَحالة هالك ، هل فهمت ما أقول؟ إنك تموت وتذهب إلى مثواك الأبدي ، وإني مساعدك هذه المرة فقط على الوصول إلى فراشك» .

ولقد أمكننا بصعوبة أن نصعد به إلى حجرته ، وأن نطرحه على فراشه ، حيث سقطت رأسه على الوسادة كأنه ما زال غائباً عن رشده .

وهنا صاح به الطبيب قائلاً «إني مريح ضميري من جهتك ، فتأكد بأن الروم فيه هلاكك» . قال ذلك وذهب لعيادة أبي وقد جذبني من ذراعي بصحبته .

ولما أقفل الباب قال بأن المسألة ليست بذات خطر ، وأنه قد سحب من دمه ما يكفي لحبسه مدة أسبوع في الفراش حيث هو ، وهذا خير للجميع ، على أن نوبة ثانية لا بد مودية بحياته .

- ٣ -

الرقعة السوداء

في اليوم التالي وقفت بباب حجرة القبطان ساعة الظهر أحمل إليه بعض المرطبات والعقاقير، وقد كان مسجى كما تركناه مع تحسن قليل في حالته الصحية، وقد ظهرت عليه علائم الضعف والغضب.

ثم خاطبني بقوله «أنت خير أهل هذا المكان يا جيم، ولا أحسبك تنسى ما كان من دوام عطفي عليك، فما انسلخ شهر لم أنفحك فيه بقطعتك الفضية، أما وقد أصبحت يا صديقي سيّئ الحال، منقطعاً عن الأخوان، فإني متوسل إليك أن توافيني بجرعة من الروم، ولا أخالك ممسكاً عني ما طلبت».

فأجبته أن ذلك مناقض لأمر الطبيب.

على أنه قاطعني لاعناً الطبيب بصوت خافت، ولكن من صميم فؤاده، قائلاً: «إن الأطباء جميعاً لأغرار، ثم ماذا يدري ذلك الطبيب الذميم من شأن رجال البحر؟».

«ألا ثق يا جيم بأني إذا لم أحظ الآن بنصيبي من الروم، فإني صائر كالمركب المهشم الذي لا صاري له على الشاطئ المستهدف للريح، وسيكون دمي على رأسك وعلى رأس طبيبك اللعين».

وقذف من فيه من اللعنات كما فعل بالسابق، ثم مضى في توسله قائلاً: «ألا ترى يا جيم كيف ترتعش أصابعي، فقد أصبحت من العجز بحيث لم أعد أستطيع منعها من الحركة، حيث لم أذق قطرة واحدة في هذا اليوم المبارك».

«وإني مؤكد لك بأن طبيبك هذا لا يفقه حديثاً، فإذا لم أظفر

بجرعة من الروم يا جيم فستعود إليّ المخاوف التي شهدت بعضها الآن ؛ فقد تخيلت «فلنت» الهرم خلفك في ذلك الركن ، ورأيته واضحاً كالشمس ، وإني رجل تقلّبت في أحضان الخشونة ، فلا آمن إذا نزل بي الروع أن أصبح مؤذياً شديد الخطر» .

«ومع ذلك فقد قال طبيبك بفمه أن لا حرج عليّ إذا شربت كأساً واحدة ، بيد أنني معطيك ليرة ذهبية ثمناً لجرعة واحدة يا جيم» .

وكان يزداد هياجاً كلما زاد حديثاً ، فأشفقت أن تلم به نكسة جراء ذلك ، ولا سيما أنه كان متأثراً جداً في ذلك اليوم ، وكان أشد ما يكون حاجة إلى السكون الشامل ؛ أضف إلى ذلك ما كان من اقتناعي بما استشهد به الرجل من حديث الطبيب «بأن كأساً واحدة لن تقتله» ،واستيائي من تجرُّئه على جرح إحساسي بعرضه الرشوة عليّ .

فأجبته أن «لا حاجة بي إلى شيء من نقودك» . اللهم إلاّ «ما أنت مدين به لأبي ، وإني موافيك بكأس لا أثنّيه» .

وما إن قدمته إليه حتى تلقفه مني بلهفة زائدة ، ثم دفع به إلى حلقه وقال : «بلى بلى لا شك أني الآن خير من قبل . والآن يا صديقي هل حدثك الطبيب بما يكون من مدة رقادي على هذا الفراش الرث؟» .

فأجبته «أسبوع على الأقل» .

فقال «يا للهول ، أسبوع ! لن أقدر على ذلك ، فإنهم لا محالة باعثون إلي برقعة التهديد السوداء ، وإذا أنا مكثت هذا القدر ، فإن الكلاب يقطعون المراحل ويسابقون المسافات لتنسم رائحتي» .

«لقد أعجز اللئام حفظ ما ظفروا به فهم يبغون التهام مال غيرهم . فهل يجدر هذا الخلق برجال البحر؟ أجبني بربك» .

«أما أنا فرجل مقتصد ، ما كنت لأعبث بمالي الحلال ، أو أضيعه في غير وجوهه ، ولسوف أضللهم مرة ثانية فمثلي لا يهاب مثلهم ، ولأقلعنَّ على جناح السرعة ، وأنجونّ من شباكهم مرة أخرى» .

ثم هبّ من فراشه بصعوبة وهو ماض في حديثه وقد قبض على كتفي قبضة كدت أن أصرخ من شدتها ، وكان يحرك قدميه كأنهما حمل ثقيل . وكانت ألفاظه مملوءة شجاعة وحماسة كأنه يعنيها ، وقد أكسبها ضعف صوته شيئاً من رنة الحزن .

ثم جلس عندما استقر به مكانه على حافة الفراش وقال : «قتلني ذلك الطبيب قاتله الله ، فإن أُذنيَّ تطنان ، ساعدني لأرقد» . وقبل أن أهمّ بمساعدته كان قد انقلب إلى مكانه الأول حيث استلقى ساكناً .

ثم فتح فاه أخيراً ، وقال : «هل رأيت ذلك البحار اليوم يا جيم؟» .

فسألته ما إذا كان يعني الكلب الأسود .

فقال : «إياه أعني يا بني ، إنه لرجل شرير ، ولكن اليد التي تحركه هي أكثر منه شراً» .

«والآن إذا صعبت عليّ الحركة بأي حال ، ثم أعطوني الرقعة السوداء ، فاعلم أنهم إنما ينشدون خزنة البحر العتيقة ، فلا أحسبك تعجز عن نقلها على جواد ، احملها على جواد واذهب بها . . أجل لا بأس اذهب بها إلى ذلك الطبيب الذي لا يفتر عن ملازمتنا ، ثم التمس إليه أن يدعو كل القضاة والحكام ويجمعهم في نزل أمير البحر بنبو حيث يظفر بكل الباقين من أتباع القرصان «فلنت» كبيرهم وصغيرهم» .

«لقد كنت الأول بعد «فلنت» ، وإني الرجل الوحيد الذي يعرف مكان الكنز . . أعطاني إياها في النزع الأخير وهو يحتضر كما أنا الآن . ولكن حذار من أن تفضي إلى الطبيب بالأمر قبل أن يسلموني

الرقعة السوداء ، أو قبل أن ترى الكلب الأسود مرة أخرى ، أو البحار الأحادي الساق ، وهذا الأخير يا جيم هو شر الجميع» .

فسألته : «وما هي الرقعة السوداء يا كابتن»؟

فقال : «إنها إقرار رسمي بطلبي ، وسأخبرك إذا أحضروها . ولكن كن دائم الالتفات والحذر يا جيم ، وإني مقسم لك بشرفي أني مشاطرك كنزي مناصفة» . ثم جعل يهرف قليلاً ، وقد أخذ صوته في الخفوت . على أنني ما كدت أناوله الدواء حتى شربه كالطفل وهو يقول : «لئن صح أن يحتاج أحد رجال البحر إلى العقاقير فلأكونَنّ أنا ذلك الرجل» . ثم تركته وقد استغرق في نوم عميق شبيه بالإغماء .

ووقعت بعد ذلك في حيرة من أمري ولم أعد أدري كيف أتابع المشوار .

وقد تملكني الخوف القاتل خشية أن يندم الرجل على ما أفضى به إليّ من سره ، فيعمد إلى التفريق بيني وبين الحياة ، ولذلك فربما كان من الواجب أن أبوح للطبيب بكل ما جرى . على أن ما دهمنا من الصدمة لوفاة أبي ، فجأة في ذلك المساء ، ملك علينا مشاعرنا وحال بيننا وبين كل مشاغلنا ، فقد أصابنا كربنا الحالي ، وزيارات الجيران ، ومهمات الدفن ، والقيام بأعمال النزل في وقت واحد ، بحالة من الارتباك بحيث لم أجد متسعاً من الوقت لأن أفكر في القبطان فضلاً عن خوفي من بطشه .

ولقد نزل وتناول طعام إفطاره في صباح اليوم التالي ، إلاّ أنه أكل قليلاً وشرب فوق حاجته من الروم ، حيث كان يجهزه بنفسه من المستودع وهو مقطب الوجه غضوب ، ينفخ من أنفه من غير أن يجسر أحد على اعتراض سبيله . وقد كان أشد ما يكون سكراً في الليلة السابقة للدفن ، فكان سماعه وهو يغني أغنيته البحرية القبيحة مجلبة

للاستنكار والاستهجان في هذا البيت الحزين . على أن ضعف الرجل الشديد جعلنا نشفق عليه من أن يلقى حتفه ، ولا سيما أن الطبيب كان يعود مريضاً على مسافة بعيدة ، ولم يمر على مقربة من نزلنا مذ توفي أبي .

وأضحى القبطان ضعيفاً ، والواقع أنه كان يزداد في كل يوم وهناً على وهن ، بدلاً من أن يستعيد من صحته شيئاً . وقد كان يصعد السلم وينزله بصعوبة ، ثم يذهب من حجرة الاستقبال إلى البار ثم ينقلب راجعاً ، كما كان يستند إلى الجدران ابتغاء الوقوف بالباب لحظة لاستنشاق هواء البحر ، على أنه كان إذ ذاك يتنفس بسرعة وصعوبة كالواقف على قمة جبل سحيق .

وكان إذا ثمل جرد سيفه من غمده ووضعه على النضد عاري النصل ، ولكنه ما كان رغماً عن ذلك كله ليلتفت لأحد ، والظاهر أنه كان دائم التفكير شارد العقل . وقد تملكتنا الدهشة ساعة سمعناه مرة يغيّر نغمته المعهودة مغنياً أغنية حب قروية يظهر أنه تعلمها قبيل أن يغدو من رجال البحر .

وجرت الأمور في مسارها الطبيعي ، حتى كان أصيل اليوم الذي أعقب الدفن ، حوالى الساعة الثالثة ، وكان يوماً شديد القر ، كثير الضباب ، جم الصقيع . وكنت قد وقفت بالباب لحظة وقد ساورتني هواجس من الهم لفقداني أبي ، وفجأة لمحت كائناً واضح العشى يدرج في الطريق متنداً على مقربة مني وهو يتلمّس السبيل أمامه بهراوة كان يحملها ، وقد اكتنف عينيه وأنفه ظل أزرق كبير ، وتقوس ظهره لهرم أو ضعف ، واتـزر بمعطف بحري بال ذي غطاء للرأس جعله بادي القبح ، ظاهر التشويه ، بحيث لم أجبه في حياتي بمثل هذا الوجه الفظيع .

وقف الرجل على مقربة من النزل رافعاً عقيرته بنغمة غريبة كأنه يخاطب الهواء أمامه قائلاً : «هل من رجل رحيم يرشد بائساً كفيفاً فقد بصره في الذود عن حياض وطنه إنكلترا ، وليحيا الملك جورج ، في أي مكان من هذه القرية هو؟» فأجبته : «إنك يا سيدي عند نزل أمير البحر بنبو على ملجإ من التل الأسود» .

فقال «أسمع صوتاً غضاً ، فهل لك أن تمد يدك إليّ أيها الصديق الصغير الشفوق لتقودني إلى داخل النزل؟» .

وما إن مددت يدي إلى ذلك الكفيف المراوغ الفظيع حتى ضغطها في قبضته كأنها مشدّ لولبي . فتملكني من الهول ما التمست معه الفكاك من قبضته ، ولكن الأعمى جذبني إليه بحركة من ذراعه وقال : «والآن يا حبيبي لا مندوحة لك عن أن تقودني إلى القبطان» .

فأجبته : «أقسم لك يا سيدي بأني لا أجرؤ» .

فقال متهكّماً : «هل هذا كل ما في الأمر؟ ألا تأخذني إليه إلاّ إذا كسرت ذراعك؟» . ثم ثنى ذراعي ثنية جعلتني أصرخ ألماً .

فقلت : «إنما أشفق عليك يا سيدي ، فإن القبطان قد تغيّر كل التغيير ، فهو يجلس مجرد الحسام ، حيث اتفق أن شخصاً قبلك . .

فقاطعني غاضباً ، ولم أسمع صوتاً أقسى ولا أبرد ولا أقبح من صوت ذلك الأعمى ، فكان ما حل بي من الرعب لسماع ذلك الصوت شراً مّا نزل بي من الألم . فبدأت أصدع لأمره ، وقدته لساعتي داخل النزل ، واجتزت به حجرة الاستقبال إلى حيث جلس القرصان المريض الهرم ، فاقد الحواس لكثرة ما شربه من الروم ، ولقد التصق بي ذلك الأعمى الذميم وأمسكني بقبضته الحديدية ، وحمّلني من ثقل جسمه فوق ما أطيق أن أحمل ، ثم أمرني قائلاً : «قدني تواً إلى القبطان ، فإذا أصبحت على مرأى منه فصح به أني أحد

أصـدقـائك يا بل» ؛ فإذا لـم تصح «فإني فاعل هكذا» ، قال ذلك وجذب ذراعي بقوة كادت تصرعني فاقد الرشد ، فأصبحت بمنزلة من الهول والألم بحيث أنساني خوف ذلك الأعمى ما كنت أخشاه من بأس القبطان ، فما إن فتحت باب الحجرة حتى رددت الكلمات التي لقنني إياها الأعمى بصوت متهدج .

رفع القبطان المسكين بصره ، وما هي إلاّ نظرة واحدة حتى زال عن رأسه كل ما عساه أن يكون قد علق به من أثر الروم ، فرجع إليه كامل وعيه وظل يحدق بصاحبه ، ولم تكن علائم وجهه لتنم عن خوفه ، بقدر ما كانت تنطق بتأثير مرضه القاتل . فحاول النهوض على أنني ارتبت في أن يكون له من القوة ما يسمح له بالحركة .

وصاح به الرجل الكفيف : «مكانك يا بل ، فإني وإن كنت لا أبصر فإنني أسمع أصبعاً يتحرك . الواجب هو الواجب ، فامدد يدك اليمنى يا صاح ، وأنت يا صبي أمسك معصم يمناه وقربها إلى يمناي» . فصدع كلانا بأمره ، وعندئذ شهدته يمرِّرُ شيئاً من راحة يده التي تحمل هراوته إلى راحة القبطان ، ثم قال : «الآن قد انتهى» ، وانسلّ من الحجرة إلى الطريق مسرعاً بفراسة يكاد ينكرها العقل ، وقد كنت أسمع طرقات هراوته على بعد وأنا جامد في موضعي . وقد مضت مدة قبل أن يقوى أحدنا على ملك حواسه ، وما إن هممت أخيراً بترك معصم القبطان حتى جذب هو أيضاً ذراعه وجعل يحدق في راحة يده .

ثم صرخ قائلاً : «الساعة العاشرة! لا يزال في الوقت متسع للنجاة» . . وهبّ واقفاً على قدميه .

ولكنه ترنح عندئذ ووضع يده على حلقه ، ثم تمايل دقيقة وسقط من طوله على وجهه بصوت غريب . فعدوت نحوه وصحت بأمي ،

على أن كل إسراعنا لنجدته لم يسعفه بشيء ، فقد أصيب بسكتة شديدة . وما كدت أرى الرجل ميتاً أمامي حتى انهمرت عيناي بالدموع ، ولقد أعجزني إدراك مأتى تلك العاطفة ، حيث كنت لا أحب الرجل مطلقاً ، ولو أنني رثيت لحالته في المدة الأخيرة ؛ ولكن أثر وفاة أبي كان لا يزال يعتمل في صدري فكانت هذه ميتة ثانية عرفتها في مدة قصيرة .

- ٤ -

عصا الأعمى

والحقّ أنني لم أتردد في إخبار أمي بكل ما عرفت ، وقد كان جديراً بي أن أخبرها بذلك من قبل ، بيد أننا عرفنا لساعتنا ما كان من فرط حرج مأزقنا ، فقد كانت بعض نقود الرجل - إن كان يملك شيئاً - هي ملك لنا ، ولكنّا لم نكن لنتوقع أن يمسك أصحاب القبطان عن الظفر بغنيمتهم في سبيل وفاء ديون صاحبهم ، وقد رأينا من نماذجهم الكلب الأسود والسائل الكفيف . فإذا نفذت وصية القبطان بأن اتجهت توآ إلى الطبيب ، وجب عليّ أن أترك أمي وحيدة ، وبالطبع ما كنت لأفكر في ذلك . ولا غرو أنه كان من المتعذر على كلينا أن نطيل البقاء في النزل ، ذلك لأن الخوف كان قد حفز أحشاءنا حفزاً ، فكانت لا تسقط قطعة فحم في موقد المطبخ إلاّ سقطت معها قطعة من مهجنا ، ولا تدق ساعة الحائط إلاّ دقت لها حبات قلوبنا ، وكأنما قد امتلأت الجهات من حولنا بوقع الأقدام . وكنت بين جثة القبطان المسجّاة ، وبين تزاحم أفكاري باقتراب ذلك السائل الكفيف الشنيع ، أقضي دقائق من الهول والرعب كنت فيها أقفز في جلدي .

ولكن كان لا بد لنا من الإسراع بالبت في مصيرنا ، فرأينا أخيراً أن نيمّم وجهينا شطر الدسكرة المجاورة لنلتمس لأنفسنا النجدة من أهلها . وما إن حلت بنا تلك الفكرة حتى حملنا عصا الترحال ، فمضينا لساعتنا نحو القرية عراة الرؤوس وسط الضباب البارد ، وكان الظلام قد بدأ ينشر على الأرض ظلاله .

لم تكن الدسكرة لتبعد بضع مئات من الأقدام ، على أنها كانت محجوبة عن بصرنا على الجانب الآخر من الملجإ المصاقب . وكان

أكبر مشجع لي على استئناف الإسراع في الخطى ظهور الأعمى واختفاؤه في وجهة مضادة للتي ذهبنا فيها ، ولم نمض في سبيلنا بضع دقائق حتى كنا نجمد في مواضعنا لحظة ، صامتين لننصت ، على أنه لم يكن هنالك صوت غير عادي ، ولم يكن ثمة شيء عدا خرير الأمواج ونعيب الغربان في قلب الغابة .

كان الغسق قد خيم ساعة هبطنا القرية ، ولا تسل عن فرط جذلي عندما شهدت الأضواء الخافتة داخل الأبواب والنوافذ ، على أن مرأى تلك الأنوار كان كل ما أفدنا من ذلك المكان ، ذلك أنه لم يكن ثمة رجل بين القوم تدفعه مروءته للعودة معنا إلى النزل ، وكانوا كلما زدناهم بياناً لبؤس حالنا ، كلما زادوا استمساكاً بظلال دورهم ، سواء في ذلك رجالهم والنساء والأطفال ، فكانت فرائصهم ترتعد لمجرد ذكر اسم الكابتن «فلنت» الذي ، وإن كنت لا أدري من شأنه شيئاً ، كان معروفاً لديهم حق المعرفة . ولقد ذهب بعض المزارعين ، الذين رجعوا من فلاحة حقولهم ، إلى أنهم رأوا غرباء في الطريق فظنوهم يهربون بضائع من الجمرك ، وقد رأى واحد أو أكثر مركباً صغيراً ذا ثلاثة صواري عند المكان الذي نسميه كتس هول ، ولذلك فقد كان القوم لا يفرقون من شيء فرقهم من ذكر كل ما يَمُتّ إلى ذلك القبطان بسبب . وقصارى القول إنا ما كدنا نظفر ببعض أفراد ممن رضوا بالانطلاق للاستنجاد بالطبيب ، حتى لم نجد فرداً واحداً يرضى بمرافقتنا للدفاع عن النزل .

والمعروف أن الجبن معد ، فإن الجدال والمناقشة يورثان الإنسان شجاعة وإقداماً من الجهة الأخرى ، وبيان ذلك أنه لما تحدث كل بما عنده من الأراجيف والمثبطات ، خطبت أمي في القوم قائلة : «إني لن أترخص في ترك نقود مال ابني اليتيم ، فإذا لم يجسر أحد منكم على

مواجهة ذلك الخطر فأنا وجيم سنواجهه ، ولسوف نرجع من حيث أتينا ، فشكراً لكم أيها الرجال ذوو القلوب التي تحكي قلوب فراخ الدجاج ، وأصحاب الأجسام الكبيرة والجثث الضخمة الجامدة . أمّا نحن فلسوف نفتح خزنة الرجل ولو كان في ذلك ذهاب أرواحنا .

«وأكون شاكرة إذا تكرمت يا سيدة «كرسلي» بأن تعيرينني هذه الحقيبة لأضع فيها النقود التي هي «إرثنا الشرعي» .

ولا شك أني قلت بأني ذاهب برفقة أمي ، وبالضرورة استنكر القوم طيشنا وحمقنا . على أنه حتى في تلك اللحظة لم ينشط من الرجال أحد للرجوع معنا ، وكان كل ما استطاعوا عمله أن أمدونا بمسدسين محشوين مخافة أن نهاجم في الطريق ، واعدين بأن يعدوا جياداً مسرجة إذا طوردنا ونحن راجعين ، بينما انطلق صبي إلى الطبيب يلتمس قوة إسناد مسلحة .

وقد جعل قلبي يدق بهدوء عندما سار كلانا تحت جنح ذلك الليل البارد في سبيلنا إلى تلك المجازفة الخطرة . وكان البدر قد بدأ يطلع مطلاً من بين أطراف الضباب العالية بلون مشرب بالحمرة ، فضاعفنا من سرعتنا حيث كان من الواضح أنا لا نكاد ننقلب راجعين حتى تكون كتائب الليل قد انهزمت أمام ضوء القمر المتزايد ، فنغدو هدفاً لأبصار مراقبينا . فانسللنا بجانب الأسوار مسرعين ، وقد أخرسنا أصوات أقدامنا ، على أنه لم يطرق سمعنا صوت يزيد مخاوفنا ، حتى إذا بلغنا نزل أمير البحر بنبو سُرّي عنّا عندما دخلنا وأوصدنا الباب خلفنا .

وما إن استقرت بنا الأقدام في فناء النزل حتى زلجت مصراعي الباب ، فوقفنا برهة نلهث في الظلام منفردين مع جثة القبطان ، ثم أحضرت أمي مصباحاً . وبعد ذلك دخلنا حجرة الاستقبال وقد

أمسك كل منا بيد الآخر ، فوجدنا القبطان حيث تركناه ، وهو مسجى على ظهره مفتوح العينين ماداً أحد ذراعيه . وقد همست بي أمي أن «أسدل الستار فقد يرقبوننا من الخارج» ، ولـمّا فاهت بأمرها قالت : «بقي علينا أن نظفر بالمفتاح ، وإني أريد أن أعرف من ذا الذي يجرؤ على منازعتنا فيه» . قالت ذلك واختنق صوتها بالبكاء .

جثمت على ركبتي لساعتي ، فألفيت على أرض الحجرة إلى جوار يد القبطان ، ورقة مستديرة ، سُوّد أحد وجهيها ، فلم يداخلني شك في أنها الرقعة السوداء ، ولـمّا التقطتها وجدت على أحد وجهيها كتابة جميلة واضحة تضمنت العبارة التالية :

«أمامك حتى العاشرة من مساء الليلة» .

فقلت لأمي : لقد أمهل القوم صاحبهم حتى العاشرة من هذه الليلة يا أماه ؛ وبينا أقول ذلك دقت ساعتنا القديمة ، وبالرغم من أن هذه الحركة غير المنتظرة قد أفزعتنا أيّما فزع ، إلاّ أنها أفضت إلينا بنبإ سار وذلك أنها كانت بعد في السادسة .

فقالت أمي : «والآن يا جيم إلي بذلك المفتاح» .

ففتشت جيوب الرجل تباعاً ، فوجدت بعض نقود ضئيلة القيمة ، وكشتباناً للخياطة وبعض خيوط ، وإبر كبيرة ، وقطعة من دخان المضغ وقد قضم طرفها ، ومدية ذات مقبض مقوس ، وبيت إبرة للجيب وعلبة صوفان ؛ وكان ذلك كل ما فيها ، حتى إنني كدت أشعر بدبيب اليأس يتطرق إلى نفسي ، فارتأت أمي أن المفتاح قد يكون مربوطاً إلى عنقه .

فغالبت ما أصابني من الاشمئزاز ، ثم فتحت صدر قميصه حول عنقه ، وهنالك وجدته معلقاً بحبل مطلي بالقطران ، فقطعته بمديته ، وبذلك ظفرت بالمفتاح . ولقد ملأنا هذا النصر أملاً ، فهرعنا على

عجل إلى الدور الأعلى ويممنا شطر الغرفة التي كان يأوي إليها مدة وجوده في النزل ، والتي ظل صندوقه فيها مذ هبط عندنا .

كان الصندوق كغيره من حقائب البحارة ، قد وُسم على ظاهره بالحديد المحمى الحرف الأول من اسم صاحبه «ب» وكانت زواياه مهشمة من خشونة الاستعمال وكثرته على ما يبدو .

وصاحت بي أمي «أعطني المفتاح» . وما إن أخذته حتى فتحت قفله ورفعت غطاءه في طرفة عين بالرغم من أن القفل كان صدئاً عاصياً ، فانبعثت من داخله رائحة نفاذة من الطيّون والقطران ، علَى أننا لم نشهد غير بذلة من أجود الأقمشة قد اعتنى بطيها وتنظيفها . فقالت أمي «لم تُلبس هذه البدلة قط» ، وما إن رفعناها حتى ظهرت تحتها أخلاط متباينة الأنواع ؛ فمن مذولة إلى طاس صغير من الزنك إلى عدة أعواد من الطيّون ، إلى زوجين من أبدع أنواع المسدسات ، ثم قطعة من الفضة ، وساعة إسبانية قديمة ، وطائفة من الحلي ضئيلة القيمة ، وجلّها من صنع الخارج ، وبيتي إبرة مركبتين على نحاس أصفر ، وخمس أو ستّ صدفات عجيبة من جزائر الهند ؛ ولطالما فكرت دهشاً عن سبب حمله لهذه الصدفات في حياته الدائمة الموحشة المَملوءة بالجرائم .

ولم نجد بين ذلك كله شيئاً ذا قيمة باستثناء قطعة الفضة وقطع الحلي والطاسات ، وما ابتغينا من ذلك شيئاً . وكان تحت هذه غطاء مركب قديم بيَّضه ما تراكم عليه من الملح في حانات المرافئ المختلفة . فجذبت أمي ذلك الغطاء بصبر نافد ، وهنالك رأينا حزمة مصرورة في قطعة من المشمع يظهر أنها بعض أوراق ، وحقيبة من الخيش لم نكد نلمسها حتى سمعنا رنين الذهب في داخلها .

فقالت أمي : «سأبرهن لأولئك النصابين أني سيدة أمينة ، فسآخذ

حقي من غير أن أطمع في شيء أكثر» ثم أمرتني أن أرفع حقيبة السيدة «كرسلي» ، وبدأت تعد من حقيبة القبطان مقدار ما لنا عليه من النقود وتضعها في الحقيبة التي بيدي . ولقد كان العمل طويلاً شاقاً ، حيث كانت النقود متباينة الأحجام مختلفة الأوطان ، فمن قطع فرنسية من ذات العشرين فرنكاً إلى جنيهات إنكليزية إلى قطع من العملة الإسبانية ، إلى غير ما هنالك مما لم أوفق لمعرفته وكلها مختلطة مع بعضها البعض . أضف إلى ذلك أن الجنيهات الإنكليزية كانت أقل تلك الأنواع ، وكانت أمي لا تعرف أن تحسب إلاّ بها .

وبينا نحن في منتصف عملنا ، وضعت يدي على ذراع أمي فجأة ، وذلك لأني سمعت في الهواء ، الساكن البارد ، صوتاً انخلعت له شعبة من مهجتي ، وما ذلك إلاّ لأنّ الصوت كان صوت دقات عصا الأعمى وهو يتلمّس طريقه الذي غمره الجليد . وكان الصوت يزداد اقتراباً ، وقد جلسنا ممسكين أنفاسنا ، ثم سمعنا طرقات عنيفة على باب النزل ، وطرق سمعنا صوت إدارة مقبض الباب ، وجلجلة المزلاج ، بينما اللعين يحاول الدخول ؛ ثم أعقب ذلك فترة طويلة من السكون خارجاً وداخلاً ، وبعدئذ عدنا إلى سماع طرقات عصا الأعمى ، وقد كانت تخفت شيئاً فشيئاً حتى أصبحنا لا نسمعها ، فكان فرحنا وشكراننا لا يوصفان برحيله .

قلت لأمي : «أماه ، دعيني بربك آخذ كل النقود ، ثم فلنمض ونترك هذا المكان» . حيث كنت موقناً بأن الكفيف لا بد أن تكون قد داخلته خلجات من الشك في أمر الباب الموصد ، وأنه لن ينفك أن يحمل علينا سائر رفاقه فيوقعون بنا شر إيقاع . ومع ذلك فقد كان شكري بسبب إزلاجي الباب لا يكاد يدرك كنهه إلاّ من شهد ذلك الكفيف الفظيع .

على أن أمي ما كانت لترضى بأخذ درهم واحد أكثر من حقها ، رغماً من شدة ما نزل بها من الروع والجزع ، كما أصرت كل الإصرار ألاّ تنثني أو تظفر بذلك الحق كاملاً من غير نقص . ثم قالت بأن الساعة لم تشرف بعد على السابعة ، بيد أنها عرفت حقوقها بعد زمن طويل وأخذتها . وبينما كانت لا تزال تناقشني سمعنا صفيراً خافتاً على مقربة منا فوق التل ، كان فيه الكفاية لكلينا .

فقالت : «سآخذ ما عندي» وانتصبت قائمة على قدميها .

وعقّبت بقولي : «سآخذ أنا أيضاً هذه اللفافة من المشمع لضبط الحساب» .

وفي لحظة كنا نتلمّس طريقنا على السلّم تاركين المصباح إلى جوار الصندوق ، وفي اللحظة التالية كنا قد فتحنا الباب لائذين بالفرار ، فكان خروجنا في اللحظة الأخيرة ، وكان الضباب ينقشع بسرعة ، وما إن أشرق القمر على جانبي الأرض العالية ، ولم يكن ثمة ظل في غير دائرة باب النزل حيث كان لا يزال ستار صفيق لم يشق بعد لينم عن أول خطوات فرارنا ، كان لا بد لنا من أن ندخل تحت ضوء القمر قبيل منتصف الطريق إلى الدسكرة ، خلف سفح التل ، ولم يكن هذا كل ما في الأمر ، على أنه طرق سمعنا صوت وقع أقدام مسرعة ، ولـمّا التفتنا خلفنا شهدنا ضوءاً متذبذباً يتقدم نحونا بسرعة ، فعرفنا بأن أحد القادمين يحمل مصباحاً .

فصاحت بي أمي : «خذ النقود يا بني وأسرع بالعدو ، فإني مشرفة على الإغماء» ، وكانت هذه بالضرورة آخرة كلينا . ولكم لعنت جبن الجيران ، وكم أنحيت باللائمة على أمي المسكينة من أجل أمانتها ، وماضي مجازفتها وقهرها ، وحاضر ضعفها وخورها . وكنا لحسن الحظ قد أشرفنا على أول الجسر الصغير ، فساعدتها بالرغم من هلعها

على العبور إلى الشاطئ الثاني ، حيث لم تلبث أن تنهدت وخرت على كتفي فاقدة الرشد . فحاولت أن أسحبها إلى أدنى الساحل على مسافة من القوس ، ولست أدري كيف أوتيت القدرة على ذلك ، وإني مشفق أن أكون ما ترفقت فيما عملت ، بيد أني لم أستطع بعد ذلك أن أحركها قيد أنملة ، حيث كان الجسر واطئاً جداً فلم أتمكن إلاّ أن أزحف تحته . وكان لا بد لنا من البقاء حيث نحن ، فكانت أمي تكاد تكون مكشوفة للنظر تماماً ، كما كنّا على مدى السمع من النزل .

- ٥ -

مقتل بيو

كانت رغبتي في استطلاع خبر القادمين أقوى من خوفي منهم ، فلم أستطع صبراً على البقاء حيث كنت ، بل زحفت إلى الشاطئ ثانية ، والتمست لنفسي كنف شجرة كثيرة الفروع فلذت بظلها بحيث يمكنني أن أرقب الطريق أمام باب النزل .

وما كاد المكان يحتويني حتى ظهر سبعة أو ثمانية من أعدائنا وهم يركضون في الطريق سراعاً ؛ يتقدمهم ببضع خطوات من يحمل المشعل . وكان ثلاثة منهم يركضون وقد أمسك كل بيد صاحبه ، فأمكنني أن أميز أوسطهم ، برغم الضباب ، وقد كان السائل الكفيف ، وما إن سمعت صوته حتى أيقنت بصحة حدسي ، حيث صاح بهم «اكسروا الباب» ، فأجابه اثنان أو ثلاثة «أمرك سيدي» ، ثم هاجموا باب النزل يتبعهم حامل المشعل ، بيد أنني رأيتهم يتريثون هنيهة وقد خفتت أصواتهم قليلاً ، وكأنما دُهشوا حين وجدوا باب النزل مفتوحاً . على أن أمد ذلك لم يطل لأن الكفيف لم يلبث أن عاد إلى إصدار أوامره ، فرن صوته عالياً كأنما قد أكلت الحماسة والغيظ حبات نفسه ، وصاح بهم وهو يشتمهم على توانيهم : «ادخلوا ادخلوا ادخلوا !» .

وصدع بأمره أربعة أو خمسة لفورهم ، وظل اثنان من الرجال في الطريق مع ذلك الكفيف الرهيب ، ثم أعقب ذلك صمت قصير ، تلت صيحة استغراب رن على أثرها صوت من النزل يقول : «مات بل» .

على أن الأعمى عاد إلى تهديدهم بسبب تباطئهم وصرخ فيهم :

«فتشوه أيها المراوغون البلداء ، وليصعد بعضكم لتفتيش خزنته» .

وقد أمكنني سماع وقع أقدامهم وهم يصعدون السلّم ، فكانت أسس النزل تميد تحتهم ميداً . وما هي إلاّ لحظة حتى عادت صيحات الاستغراب ، ثم دفعت نافذة حجرة القبطان بقوة أحدثت صيحة أعقبها صوت انكسار زجاج وأطل منها رجل برأسه وكتفيه في ضوء القمر ، فخاطب الكفيف الواقف خارج باب النزل وهو يقول :

«لقد سبقنا سابق يا «بيو» إلى فتح الصندوق وقلبه رأساً على عقب» .

فصاح به الكفيف : «هل عثرت على الرزمة» .

فأجابه : «لقد عثرت على النقود» .

فشتم الكفيف النقود وقال : «إنما أريد لفافة فلنت» .

فأجابه الرجل : «لم نوفق في العثور عليها في أي مكان» .

ثم خاطب الذين يفتشون القبطان بقوله : «وأنتم ألم تجدوها مع بل؟» .

فخرج إلى الباب رجل ، أحسبه الذي ظل في الطابق الأول ليفحص جثة القبطان ، وقال : «لقد سبقنا من أغار على «بل» فلم يبقِ شيئاً ولم يَذَر» .

فولول الكفيف قائلاً : «لم يفعل ذلك غير أولئك القوم أرباب النزل ، ولا أحسبه إلاّ ذلك الصبي الذي وددت لو أنني أفقأ عينيه . لقد كانوا هنا منذ هنيهة ، وقد ألفيت الباب مغلقاً ثم عالجت فتحه ، ألا تفرّقوا وابحثوا عنهم» .

فقال الرجل المطل من النافذة : «لا ريب في ذلك فقد تركوا مصباحهم مسرجاً هنا» .

فرجع «بيو» إلى ترديد أوامره قائلاً : «تفرقوا وابحثوا عنهم ولا

تتركوا في النزل شيئاً إلاّ قلبتموه رأساً على عقب» . وأخذ يضرب الأرض بهراوته .

ثم ما عتّم أن أعقب ذلك حركة عظيمة وضجة هائلة داخل النزل القديم ، فمن وقع أقدام ثقال تضرب في كل ناحية ، إلى أثاث يقلب ، وأبواب تدفع ، حتى رددت الأحجار صدى تلك الأصوات . ثم خرج الرجال متعاقبين وهم يقولون «لا أثر لهم» . وهنا اخترق حجب الليل صوت صفير يشابه تماماً الصوت الذي خلع قلبينا ونحن منكبين على جثة القبطان ، على أن الصوت رُدّد في هذه المرة دفعتين ، فحسبته أول الأمر بوق الأعمى ، وكأنه كان يحث صحبه على الهجوم ، على أنني ما لبثت أن عرفت بأنها إشارة من جانب التل القريب من القرية لتحذير القرصان من الخطر المحدق .

فقال أحدهم «لقد عاد «ديرك» إلى إنذاره ، فلنسرع بالفرار يا إخوان» .

فصاح به الكفيف مستنكراً : «أتفر يا جبان ! إن «ديرك» كثير الخوف منذ عرفناه ، فلا تحفلوا بإنذاره ، ولا بد أن يكون أهل النزل قريبين من هنا ، حيث لا يمكن أن يكونوا بعيدين ، والمسألة في متناول أيديكم لو تعلمون . . ألا تفرقوا وابحثوا عنهم يا كلاب ! لعنة الله عليكم . . آه لو أنني أبصر ! !» .

وكأني بندائه قد استنهض عزائمهم ، حيث بدأ اثنان منهم في البحث هنا وهنالك بين الأقذار ، على أن ذلك كان بغير اهتمام على ما رأيت ، وكأني بالخطر المحيق بهم قد استرعى جل التفاتهم ، بيد أن الباقين وقفوا في الطريق وقفة المتردد الحائر .

وعاد الكفيف إلى الضرب على نغمته السابقة قائلاً : «أفتحجمون يا أغرار ، وأمامكم الثروة أدنى إليكم من حبل الوريد ، فما إن تجدوها

حتى تصبحوا أغنياء كالملوك ، وأنتم تعلمون علم اليقين أنها هنا ، ثم بعد ذلك تقفون هنالك مترددين ! لم يكن بينكم من يجسر على مواجهة «بل» ومع ذلك فقد واجهته أنا الأعمى ! وها أنتم تريدون أن تفوّتوا عليّ فرصتي السانحة فأظل فقيراً معدماً ! تشابكي يا أكف فقطرات الروم تعوزني ، ولو أن لكم من الشجاعة بقدر ما لسوسة تنخر كعكة لظفرتم بالقوم ، ولأصابني من الثراء والنعمة ما يجعلني أخطر في العربات مُرفّهاً منعّماً» .

فانبرى أحدهم قائلاً : «ألا قاتلك الله يا «بيو» فلقد ظفرنا بالذهب» .

وقال آخر : «لا بد أنهم خبأوا الرزمة المبروكة في مكان حريز ، فحسبك الجنيهات الذهبية يا «بيو» ولا تطل الوقوف هنا مولولاً صائحاً» .

فغلى مرجل غضب الرجل ، وكاد ينشق غيظاً ، ثم أخذ يضرب بهراوته ذات اليمين وذات اليسار على غير هدى ، ورن صوتها عالياً بحيث أصابت أكثر من واحد منهم .

غير أن أولئك شتموا الكفيف الخبيث بدورهم ، وهدّدوه شر تهديد ، محاولين عبثاً أن يفرقوا بين يديه والهراوة ، فكانت نجاتنا بسبب هذه المشاجرة التي ظلت رحاها دائرة ، حتى سمعنا صوتاً آتياً من قمة التل على جانب القرية ، ما لبثنا أن استوثقنا من أنه وقع حوافر خيل مسرعة .

ثم رأينا للتوّ وسمعنا كلاً من بريق وصدى طلق ناري من جانب السياج ، وكان بالضرورة آخر الإشارات المؤذنة بدنو الخطر ، فما كاد يسمعها القراصنة حتى تفرّقوا أيادي سبإ في كل ناحية ، فركض أحدهم جهة البحر على مقربة من الملجإ ، وانحدر آخر على جانب

التل ، وهكذا حتى اختفت معالمهم في لحظة ، ولم يبق ثمة من أثر لهم خلا «بيو» ، فقد خلفوا المسكين وحيداً . ولست أدري سواء أكان ذلك بسبب ما دهمهم من الرعب القاتل ، أم لمجرد الانتقام والاقتصاص منه على سوء لفظه ، وما بدر من تعديه بضربهم ؛ على أنني أعرف بأنه تخلّف عنهم وأخذ يتلمّس الطريق وقد تولاه الخبل وألمّ به الرعب وجعل يعسُّ صائحاً بأصحابه ، وأخيراً ضل سبيله وعميت عليه مذاهبه ، فانثنى على قيد بضع خطوات مني ، وقد يمّم وجهه شطر الدسكرة وجعل يستنجد : «جوني ، الكلب الأسود ، ديرك وغيرهم» وهو يقول : «لا تتركوا يا أخوان «بيو» العجوز ، لا تتركوه بربكم!» .

وفي تلك اللحظة كانت حوافر الجياد تسحق قمة المرتفع ، ثم ظهر أربعة أو خمسة فرسان في ضوء القمر ، وانحدروا وهم يركضون خيولهم بسرعتها القصوى على جانب التل .

وعند ذاك عرف «بيو» ما كان من خطئه ، فانثنى صائحاً ، فساقته قدماه إلى حفرة لم يلبث أن ارتطم فيها ، على أنه استوى على قدميه بأسرع من ارتداد الطرف ، ولكن الرعب كان قد تملكه إذ ذاك ، فطوّح بنفسه تحت حوافر أول الجياد القادمة ، وقد حاول الراكب عبثاً ألاّ يصدمه ، ولكن حوافر الجياد الأربعة كانت أسرع من رجع الصدى في وطئه ورفسه ، فصاح صيحة شقت حجب الليل الهادئ ، ثم انبطح على وجهه فكانت هذه آخر حركاته إلى يوم يبعثون .

وهنا انتصبت واقفاً ، وناديت الفرسان الذين كانوا قد بدأوا بالتوقّف من تلقاء أنفسهم ، وقد هالتهم حادثة قتل الرجل ، ولم ألبث أن عرفتهم ، وقد رأيت في إثرهم صبياً كان قد أرسله أهل الدسكرة إلى قرية الطبيب «ليفزي» ، وكان الباقون من ضباط الجمرك ظفر بهم

الصبي في الطريق ، فدلته فطنته أن يرجع بهم في الحال . وكان خبر المركب الراسي في «كتس هول» قد نُمي إلى أذن المراقب «دانس» فشخص إلى جهتنا .

مات بيو ، ولم تبق فيه جارحة تنبعث . وقد حملنا أمي إلى الدسكرة ، وما إن دلكناها بقليل من الماء البارد الممزوج بالملح حتى استفاقت ، وكان الخوف قد اعتراها ، بيد أنها ظلت تظهر مزيد أسفها على ما لم تظفر به من حقها في النقود . وفي أثناء ذلك ركب المراقب بسرعة إلى «كتس هول» غير أن رجاله اضطروا إلى الترجل لتلمس طريقهم في تلك الوهدة ، ومن خلفهم جيادهم يسحبونها آنة وآونة يسندونها ، وهم في خوف دائم من أن يكون قد كمن لهم أحد في مخبإ على جانب الطريق ، ولذلك لم يدهشوا عندما وصلوا «كتس هول» ووجدوا المركب قد رحل ولو أنه لم يبتعد كثيراً . ثم نادى المراقب ملاحيها ، فصاح به صائح : «توار من ضوء القمر أو استهدفت للرصاص» . وللحال مر طلق ناري إلى جوار ذراعه ، وفي الحال ضاعف المركب سرعته واختفى ، فوقف السيد «دانس» كالسمكة حيل بينها وبين الماء ، وكان كل ما استطاع عمله أن أرسل رجلاً ليجهز قارب الحكومة السريع ذا الصاري الواحد ، حيث كنت إذ ذاك قد أفضت إليه بجملة الخبر ، فقال : «إن تجهيز قارب الحكومة لا يجدي فتيلاً ، فقد لاذوا بالفرار سالمين وانتهى الأمر» . على أنه عبّر عن سروره لأنه داس على قدم «بيو» .

ثم رجعت بصحبته إلى نزل أمير البحر بنبو ، ويتعذر عليك أن تتصور نزلاً في مثل حالته من العبث والدمار ، حيث لم يترك القوم شيئاً في ثورة غضبهم لم يقلبوه في سبيل البحث عنّا ، حتى ساعة الحائط لم تسلم منهم ، ولو أنهم لم يحملوا معهم من النزل شيئاً إلاّ

حقيبة نقود القبطان وبعض قطع الفضة من صندوق النقود ، على أنني ما شككت لأول وهلة في أن الدمار قد نزل بنا . ولم يستطع السيد «دانس» أن يفهم شيئاً مما رأى .

فسألني قائلاً : «تزعم يا جيم هوكنز أنهم ظفروا بالنقود ، فماذا تراهم كانوا ينشدون بعد ذلك؟ ألعلهم كانوا يطلبون مزيداً؟» .

فأجبته : نعم يا سيدي ، لم يكن القوم ينشدون نقوداً ، ولكنهم كانوا يفتشون عن شيء آخر أحسبني قد سبقتهم إلى الظفر به ، وقد خبأته في جيب سترتي ، والحق أقول لك إني أريد أن أحفظه في مكان حريز» .

فقال : «أصبت يا بني كبد الحقيقة ، فإذا أردت فإني حامله عنك» .

فقلت : «لا . . أريد أن أودعه الطبيب ليفزي» .

فقاطعني محبذاً مستحسناً وقال : إن هذا لعين الصواب ، فالطبيب رجل حسيب ، وهو عدا ذلك من رجال القضاء . والآن تذكرت ، فلا بد لي من الركوب بنفسي إلى هناك عند انتهائي من عملي هنا لأخبر الطبيب أو السيد «ترلاوني» بما كان من موت «بيو» ، فالرجل قضى حتفه كما ترى ، وقد يعلل القوم ذلك ضد أحد ضباط جلالة الملك ، إذا أمكنهم فهم الموضوع ؛ فإذا أردت اصطحبتك إلى هناك» .

فشكرته كثيراً ، ثم سرنا إلى القرية حيث كانت الجياد ، ولمّا أخبرت أمي ما عزمت عليه كانت الخيول قد أُعدت .

فصاح السيد «دانس» بأحد أتباعه المدعو «دوغر» : «هذا هو الصبي يا دوغر فإن جوادك قوي» .

وما كدت أستقر على صهوة الجواد وأمسك بمنطقة «دوغر» حتى أذن المراقب بالرحيل ، فاندفعنا مسرعين نقفز قفزاً إلى منزل الطبيب «ليفزي» .

- ٦ -

كنز فلنت

حثثنا الخيل طوال الطريق إلى أن وصلنا بيت الطبيب «ليفزي» ، فترجّلنا عن الجياد ، وكان الظلام مخيّماً فلم نشهد في فنائه بصيصاً من النور .

وطلب إليّ السيد «دانس» أن أتقدّم وأقرع الباب ، ففتحت الخادم لساعتها ، فسألتها ما إذا كان الطبيب هنالك فأجابت سلباً ، وأردفت بأنه جاء إلى المنزل في الأصيل ، ثم عاد وذهب إلى سراي القاعة ليتناول طعام العشاء إلى مائدة السيد «ترلاوني» ويقضي معه شطراً من الليل .

فقال السيد «دانس» : «فلنذهب إلى هناك يا صبي إذاً» .

ولم أركب في هذه المرة لأن المسافة كانت قصيرة ، ولكنني ركضت متعلّقاً بركاب «دوغر» حتى باب البناء ، وسلكنا ممراً طويلاً حتى ظهر لنا الخط الأبيض المحيط بسراي القاعة وقد انبسطت من حوله حدائق قديمة متسعة .

وهنا ترجّل السيد «دانس» واصطحبني معه ، فدخلنا المنزل وتقدمتنا الخادم في دهليز مفروش ، وأدخلتنا مكتبة كبيرة استترت جدرانها خلف خزانات الكتب المزدانة أعاليها بتماثيل نصفية لكبار العلماء ، حيث جلس السيد «ترلاوني» والطبيب «ليفزي» على جانبي نار موقدة وقد أمسك كل بغليونه في يده . بيد أنني لم أشهد السيد «ترلاوني» على مسافة قريبة مثل ما شهدته في تلك الليلة ، فكان رجلاً يزيد

طول قامته عن ستة أقدام ، ويتناسب عرضه مع طوله ، وقد انتفخت أوداجه ، واحمر وجهه ، وخشنت بشرته ، وتجعدت أساريره لكثرة ما شهد من الأهوال في أسفاره ورحلاته الطويلة . وكان سواد حاجبيه فاحماً وحركتهما دائمة ، بحيث يُخيل إليك أنه ذو مزاج حاد ، ليس بالخبيث ولكنه سريع الغضب مقدام جريء .

قال بعظمة مشوبة بشيء من اللين : «ادخل يا سيد دانس» .

ثم قال الطبيب وقد هز رأسه : «أسعدت مساء يا «دانس» ، وأسعدت مساء يا جيم ، ما الذي جاء بك إلى هنا؟» .

فوقف المراقب معتدلاً ، وسرد الحكاية كأنه يتلو درساً . وقد ملكت روايته على الرجلين مشاعرهما ، فنسيا التدخين ، وانحنيا مرهفي السمع ، وحملق كل منهما بصاحبه ، وقد تملكته الدهشة والاستغراب ، ولمّا وصل الراوي من حديثه إلى رجوع أمي إلى النزل ، ضرب الطبيب فخذه جذلاً طروباً ، وصاح السيد «ترلاوني» قائلاً : «مرحى ! مرحى !» ثم كسر غليونه الطويل على النضد . وقبل أن ينتهي الرجل من سرد حكايته ، ترك السيد مكانه وجعل يضرب في طول الحجرة وعرضها بخطى واسعة ، بينما خلع الطبيب عنه شعره المستعار المزين كأنما يريد أن يتفرغ للإنصات ، فبدت غرابة سحنته عندما ظهر قفاه الأسمر النحيل الكثير الشعر .

وأخيراً فرغ السيد «دانس» من سرد قصته .

فقال السيد «ترلاوني» : «أنت رجل نبيل شهم يا «دانس» ، وأمّا عن قتل ذلك الرجل النجس الشرير الملعون وموته تحت سنابك جوادك ، فأمر أعده لك حسنة ، وليس هو في نظري بأكثر خطراً من

وطنك لخنفساء قذرة . وأمّا هذا الصبي «هوكنز» فهو فتى نادر الذكاء» . وهنا طلب إليّ أن أدق الجرس ، ليأمر الخادم بأن يحضر كوباً من الجعة للسيد «دانس» .

ثم قال الطبيب بعدئذ : «هل عثرت على ما كانوا ينشدونه يا جيم؟» .

فأجبته من فوري نعم هذه هي يا سيدي ، ومددت يدي إليه بالرزمة الملفوفة في المشمع .

ففحصها الطبيب لتوّه ، وكأنما كانت أصابعه تتلهف لفتحها ، ولكنه بدلاً من أن يطيع هواه ، أسرع ودسّها بهدوء في جيب معطفه .

ثم قال مخاطباً السيد «ترلاوني» : «إذا انتهى السيد «دانس» من شرب الجعة المقدمة إليه فعجّله ليؤدي مهام مركزه ، ولكنني أريد أن يبقى «جيم هوكنز» هنا لينام في منزلي . وإني أستميحك عذراً في أن تأمر برفع هذه الفطيرة الباردة وأن تأمر له بعشاء» .

فأجابه السيد «ترلاوني» : «كما تريد يا «ليفزي» ، فلقد أصاب «هوكنز» ما يجعله يستحق ما هو أفضل من الفطير البارد» .

وعلى ذلك فقد أحضر طبق كبير ووضع على نضد صغير ، فأكلت بشهية زائدة لأني كنت أتضوّر جوعاً . وإني كذلك شكر السيدان «دانس» وأثنيا عليه ثم صرفاه .

فقال الطبيب : «ما رأيك يا ترلاوني؟» .

فأجاب : ما قولك أنت يا ليفزي؟

وبدا كأن السؤالين خرجا في لحظة واحدة .

فضحك الطبيب وقال : «مهلاً مهلاً . . فلا أحسبك إلاّ سمعت بـ«فلنت»؟

فصاح «ترلاوني» متعجّباً مستنكراً وقال : «سمعت عنه ! وكيف لا أسمع بأفتك قرصان شهده «البلاك بيرد» ، قرصان لا يكاد يقاس به شيء . لقد كان الإسبان يرهبونه رهبة الموت ، حتى إنني كنت كثيراً ما أفخر بأنه إنكليزي . ولقد شهدت أطراف قلوعه بعيني رأسي ، على مسافة من «ترينيداد» فلم يسع الجبان الذي أبحرت معه إلاّ أن عاد كالجرذ إلى جحره في مرفإ إسبانيا» .

فقال الطبيب : «حسن ، لقد سمعت بخبره في إنكلترا ، ولكن المهم هل عنده نقود؟» .

فصاح السيد ترلاوني : «تقول نقود ! ألم تسمع بالقصة ، وماذا كان ينشد أولئك الأوغاد غير النقود؟ وبأي شيء يهتمون بسواها؟ وما الذي يدفع بهم إلى التضحية بنفوسهم النجسة إلاّ النقود؟» .

فأجاب الطبيب : «سنعرف ذلك حالاً . ولكن شدة انفعالك وسرعة استطرادك في حديثك لمما يجعلني بمنزلة من العجز عن إفهامك أمراً ، إنما أريد ردّاً على هذا السؤال : إذا كان عندي هنا في جيبي مرشد إلى المكان الذي أودعه فلنت ذخيرته فبكم تقدر قيمة ذلك الكنز؟» .

فأجاب السيد «ترلاوني» متعجّباً : «تقول بكم أقدره يا سيدي؟ إني أقدره بـ . . . ! انظر إذا كان لدينا حقّاً بيان مكان الكنز ، فإني مُجهز سفينة في حوض «برستول» ، ومستصحبك و«هوكنز» ، فلا يمضي عام قبل أن أكون قد ظفرت بالكنز» .

فقال الطبيب : «حسن ، فإذا أحب «جيم» فإني سأفتح الرزمة» . ثم وضعها أمامه على النضد .

كانت اللفافة مخيطة ، فاضطر الطبيب إلى أن يخرج صندوق آلاته ليقص بمقصه الطبي خيوط الغلاف . وكانت اللفافة مؤلفة من جزءي كتاب وورق مختوم .

فارتأى الطبيب أن يبدأ بفحص الكتاب .

وكنت والسيد «ترلاوني» مطلين من فوق كتفي الطبيب وهو يفتحه ، لأن الطبيب «ليفزي» كان قد أومأ إليّ متلطفاً بأن أقترب منه لأشاطرهما لذة الاستكشاف ، فتركت مكاني الذي كنت آكل فيه ولبيت النداء . فرأينا في الصفحة الأولى بعض قطع من الكتابة غير ظاهرة المعنى ، كالتي يخططها الإنسان بقصد التسلية أو على سبيل التجربة . وكانت إحدى هذه القطع مشابهة تماماً لما وجدناه موشوماً على ذراع القبطان «بيلي بونز حبيبي» ثم «السيد بيلي بونز ربان» ثم «لأشرب اليوم» ووجدت على مسافة «بالم كي» إلى غير ذلك من الجمل الصغيرة ومعظمها ألفاظ غير ظاهرة المعنى . ولم يسعني إلاّ أن أتساءل عمن حصل عليها؟ وما هي تلك التي ظفر بها؟ ولعلها كانت طعنة خنجر في ظهره .

فقال الطبيب وهو ماض في بحثه : «لا معلومات تذكر هنا» .

وقد غصت سطور الصفحات العشر ، أو الاثنتي عشرة التي تليها ، بمجموعة غريبة من المذكرات والملحوظات . فكنت ترى في أول السطر تاريخاً وفي آخره قدراً من الأعداد كالتي نشهدها في كراسات الحسابات . ولكن بدلاً من بيان تلك الأعداد بجمل توضيح ماهيتها ، كنت ترى عدداً متغيّراً من الخطوط المتقاطعة بين المبلغ والتاريخ . فمثلاً في الثاني عشر من حزيران/ يونيو سنة ١٧٤٥ كان من الواضح استحقاق دفع مبلغ سبعين جنيهاً لشخص ما ، ولكن لم

يكن هناك غير ستة خطوط متقاطعة لبيان السبب وفي بعض حالات نادرة لزيادة التأكد ، كان يضاف اسم مكان مثل «قرب كركاس ـ عاصمة فنزويلا الآن» أو مجرد ملحوظة تبين خط الطول والعرض مثل الدرجة ٦٢ الدقيقة ١٧ الثانية ٢٠ ، الدرجة ١٩ الدقيقة ٢ الثانية ٤٠ .

ولقد طال تتابع تواريخ هذه الأعداد حوالى عشرين حولاً ، وجعلت مقادير الأعداد المفردة تأخذ في الزيادة على مر الزمن ، حتى إذا كانت النهاية رأيت مجموعاً عمومياً لسائر هذه الأعداد بعد خمس أو ست عمليات غير صحيحة ، ثم عُلق عليها بهذه العبارة «نصيب بونز» .

فقال الطبيب : «لست أعرف لهذا الطلسم أولاً من آخر !» .

فأجابه «ترلاوني» : «المسألة أوضح من شمس الظهيرة ، فهذه كراسة حساب ذلك الكلب الشرس الخبيث النفس ، وهذه الخطوط المتقاطعة رموز بأسماء السفن التي أغرقوها أو البلدان التي نهبوها . وأمّا المبالغ المرصودة فهي نصيب اللعين من الغنيمة ، ولـمّا كان يخاف اللبس رأيته يضيف شيئاً لزيادة الإيضاح ، فمثلاً عبارة «قرب كركاس» تفيد أن سفينة سيئة الحظ أقلعت من ذلك الشاطئ ـ رحم الله رجالاً كانوا فيها ـ فلا ريب في أن جثثهم قد تحجرت في قاع البحر وتحولت إلى مرجان من أمد بعيد !» .

فقال الطبيب : «صدقت ، فانظر ما أصعب الإيضاحات ، لا شك عندي في أن المبالغ كانت تزيد كلما علت درجته» .

ولم يحو الكتاب عدا ذلك إلاّ قليلاً من مواقع بعض الأماكن مدونة في الصفحات الأخيرة الخالية من الكتابة مع بيان بتحويل

العملة الإنكليزية والفرنسية والإسبانية إلى القيم المعروفة .

وقال الطبيب : «يا له من رجل حريص لا يخدع» .

فأجابه السيد «ترلاوني» : «دعنا الآن نعرف ماذا يكون من شأن الورقة الباقية» .

كانت الورقة مخيطة من عدة نواحٍ بهدف ختمها ، وأحسب أنها خيطت بالإبرة نفسها التي استكشفتها في جيب القبطان عندما فتشنا ملابسه عقب وفاته ، فجعل الطبيب يبالغ في الترفق بفتح الورقة ، فظهر لنا رسم جزيرة موضحة بها خطوط الطول والعرض ، وأغوار المياه وأسماء التلال والخلجان والمداخل ، إلى غير ذلك من التفاصيل التي يحتاج إليها في قيادة السفينة إلى مرفإ آمن على الشاطئ . وكان طول الجزيرة حوالى تسعة أميال وعرضها نحو خمسة ، ويمكنك أن تقول بأن شكلها يماثل جرم الوحش الضخم الواقف على قدميه . وفيها مرفآن داخلان في أرضها محجوبان عن تأثير الرياح بعيدان عن مناوأة الأمواج ، وفي وسطها تل اسمه «المنظار» . وكان هنالك بعض زيادات كتبت فيما بعد ، وأهم ما فيها ثلاثة خطوط متقاطعة بالمداد الأحمر ، اثنان منها في شمالي الجزيرة ، وواحد في جنوبيها الغربي ، وقد كُتب إلى جوار الأخير بالمداد الأحمر نفسه وبخط صغير دقيق يخالف كل المخالفة حروف القبطان المرتجفة هذه العبارة «هنا معظم الكنز» .

وقد كتبت اليد نفسها على ظهر الورقة هذه الإرشادات :

«الشجرة طويلة بجانب المنظار على درجة من شمالي شمالي الشمال الشرقي» .

«جزيرة الهيكل شرقي الجنوب الشرقي إلى جوار الشرق» .

«عشرة أقدام» .

«قضيب الفضة في المخبإ الشمالي تجده إلى جوار سفح التل الشرقي . على بعد ستين قدماً من الصخرة السوداء التي عليها الوجه» .

«الأسلحة يسهل العثور عليها في التل الرملي . شمالي المرفإ الشمالي جهة الشرق بميل الربع نحو الشمال» .

جيمس فلنت

وكان هذا كل ما كتب على الورقة ، على أنه بالرغم من إيجازه واعتقادي بتعذر فهمه ، فقد طرب له السيد «ترلاوني» والطبيب أيما طرب . فقال السيد «ترلاوني» للطبيب : «أمسك حالاً عن ممارسة مهنتك الثقيلة فإني شاخص غداً إلى «برستول» ، وفي ثلاثة أسابيع - ثلاثة أسابيع ! - لا بل أسبوعين - وهذا كثير - في عشرة أيام - أكون قد ظفرت بأحسن سفينة ، وأعددت لها نخبة بحارة إنكلترا . وسنأخذ معنا «جيم هوكنز» بصفة صبي السفينة ، وأغلب ظني أنك ستكون صبي سفينة ذا أثر خالد يا «هوكنز» . أما أنت يا «ليفزي» فستكون طبيب السفينة وأنا أمير البحر . وسآخذ «ردرث» و«جويس» و«هنتر» ، وسنصادف بإذن الله ريحاً موافقة ، وسوف لا نجد أي صعوبة في استكشاف مكان الكنز ، ثم بعد ذلك نأكل النقود بدل الخبز» .

فقال الطبيب : «سأذهب معك ، وأنا واثق من الخطة ، وسيذهب أيضاً «جيم» ويكون ضماناً للخطة ، وليس هنالك إلاّ رجل واحد أخشاه» .

فصاح السيد «ترلاوني» : «ومن يكون هذا؟ ما اسم هذا الكلب يا سيدي؟» .

فأجاب الطبيب : «إياك أعني . . فأنت لا تستطيع أن تمسك لسانك ، نحن لسنا المتفردين بمعرفة خبر هذه الورقة . . كلاً ، فإن أولئك الرجال الأشداء الذين هاجموا النزل الليلة بكل جرأة وإقدام ، ليعرفون من شأنها هم وأصحابهم الذين تخلفوا في المركب أكثر مما نعرف نحن . ولا أغالي إذا قلت بأن غيرهم أيضاً على مقربة منا قد تعاقدوا فيما بينهم أفراداً وجماعة أن يظفروا بالذهب رغم المثبطات والعقبات . وعلى ذلك فخليق بنا أن نظل متلاصقين لا نفترق حتى نركب البحر . وإني ملازم «جيم» في أثناء ذلك ، أمّا أنت فاستصحب «جويس» و«هنتر» في مسيرك إلى «برستول» ، ويجب ألا ينبس أحد منّا ببنت شفة عمّا وجدناه حتى النهاية» .

فأجاب السيد «ترلاوني» : «عوّدتني على الصمت يا «ليفزي» . . وسوف أكون أكثر صمتاً من قبر» .

القسم الثاني
طاهي السفينة

- ٧ -

في برستول

كان الوقت الذي قضيناه قبيل استعدادنا التام لركوب البحر أطول مما تصوره السيد «ترلاوني» ، ولم يتم تنفيذ خطة واحدة من خططنا الأولى طبقاً لرغبتنا ، حتى ما كان من اعتزام الطبيب على دوام ملازمتي ، حيث كان لا بد له من الشخوص إلى لندن ليتفق مع طبيب آخر كي يخلفه في عمله ويتعهد حالاته . وكان السيد «ترلاوني» أشد ما يكون اشتغالاً في «برستول» ، وعلى ذلك فقد بقيت في القاعة تحت رعاية «ردرث» حارس الصيد الهرم ، وكنت أشبه ما يكون بالمعتقل ، على أنني كنت دائم الحلم بالبحر ، وكانت تتسابق في ذهني الأفكار الجميلة لسوانح الخيالات الممتعة عن الجزر العجيبة والحوادث الغريبة . وكم من ساعة قضيتها متأملاً في رسم الجزيرة التي كنت أذكر معظم تفاصيلها ، فكنت إذا جلست إلى النار أصطليها في حجرة حارس الصيد ، حلّقت بي الأفكار في سموات الخيال ، فكنت أصل الجزيرة من كل ناحية وسبيل ممكنين ، فأستكشف كل فدان من أرضها ، وأتسلق ألف مرة على ذلك التل المرتفع الذي يسمونه المنظار ، وأحظى وأنا على قمته بأعجب المناظر وأكثرها تنوّعاً . وكنت أتمثلها حيناً غاصة بجماعات المتوحشين الذين نقاتلهم ، وآونة أتخيلها مملوءة بالحيوانات الضارية التي كانت تطاردنا . على أنه لم يذهب بي الفكر مطلقاً لأن أشاهد في خيالي مثل الذي أصابنا حقيقة من المغامرات العجيبة الهائلة في تلك الرحلة .

وقد مرت الأسابيع على هذه الحال ، حتى كان يوم هبت شمائل صفوه ، وجاء كتاب معنون للطبيب «ليفزي» (مع الإذن لـ«توم ردرث» أو الشاب «جيم هوكنز» بفتح الخطاب في حالة ما إذا كان الطبيب غائباً) . فلمّا فتحنا الخطاب وجدنا ـ وإن شئت قل وجدتُ لأن حارس الصيد لم يكن ليحسن مطالعة شيء غير مطبوع ـ هذه الأخبار الهامة :

المرساة القديمة ، «برستول» في الأول من آذار/ مارس عام ١٧ .

عزيزي «ليفزي»

لما كنت لا أدري ما إذا كنت في القاعة أم أنك لا تزال باقياً في لندن ، فقد حررت من رسالتي هذه نسختين بعثت بواحدة منها إلى كل من المكانين .

أمّا السفينة فقد تم شراؤها وإعدادها ، ولا أحسبك شهدت في حياتك سفينة في مثل رشاقتها ، حتى إن الطفل ليستطيع أن يسيِّرها ، وحمولتها مئتا طن واسمها «الهسپنيولا» .

لقد ساعدني في العثور عليها صديقي القديم «بلاندلي» الذي برهن بعمله هذا على أنه الصديق الوفي النادر الوجود . والحق أقول لك بأن الرجل الشهم قد تفانى في سبيل مرضاتي ومسرتي كما فعل كل واحد في «برستول» . وما إن تهب الريح على المرفإ حتى نسافر إلى جزيرة الكنز .

وما وصلت من مطالعة الخطاب إلى هذا الحد حتى أقبلت بوجهي على «ردرث» قائلاً : «لست أحسب بأن هذا يرضي الطبيب ، وأغلب ظني بأن السيد «ترلاوني» لم يتحفّظ بعد طول هذا التشديد» .

فهمهم حارس الصيد قائلاً : «عجباً ! وأيهما الحق؟ إنها لتكون بادرة غريبة إذا لزم السيد «ترلاوني» جانب الصمت إطاعة لأمر ذلك الطبيب» .

وهنا أمسكت عن محاولة أي انتقاد ومضيت في المطالعة من غير توقّف :

وجد «بلاندلي» «الهسپنيولا» بنفسه وأمكنه بحسن حيلته ورفقه أن يحصل عليها بأبخس ثمن .

وهناك طائفة من الناس في «برستول» ، بلغ من فظاعة تحزّبهم ضد «بلاندلي» وحقدهم عليه أن ذهب بهم سوء الظن إلى حد زعموا معه بأن ذلك الرجل الأمين عبد المال ، لا يكاد يضن بشيء في سبيله ، وبأنه هو صاحب الهسپنيولا وقد غبنني في ثمنها غبناً فاحشاً ـ افتراء مبين وكذب بيّن ـ على أنه ما من أحد منهم يجسر على إنكار مزايا السفينة .

وإلى هنا لم أصادف أي صعوبة . غير أن العمال الذين يربطون أمراس السفينة ويثبتون صواريها ، وغيرهم ، كانوا متكاسلين كل التكاسل إلى درجة جعلتني أتحفظ . ولكن الزمن كان كفيلاً بتعويض هذا النقص ، فلم يكن ثمة شيء يقلقني خلا اختيار البحارة ، فإني أريد نحو عشرين رجلاً ، خوفاً من فتك أهالي الجزيرة أو القرصان أو الفرنسيين الأشرار . ولكني ما كدت أوفق إلى الظفر بستة منهم حتى أرهقت من أمري عسراً ، ثم أقبلت دنياي وناهيك بما أقبلت ، فوافاني طالع سعدي وتوفيق جدي بالرجل الذي كنت أنشده .

وذلك أنني كنت واقفاً على أرض الحوض يوماً ، فحدثته مصادفة ، وعرفت منه بأنه كان بحاراً قديماً ، وأنه صاحب حانة ، ويعرف كل ملاحي «برستول» ، وقد ألمّ به انحراف من عيش المدن ، وهو يبغي الرجوع إلى البحر ، على أن يعمل عملاً قليل المؤونة كأن يكون طاهياً . وقد ذهب إلى أنه تعمد أن يتنزّه اليوم على الشاطئ ابتغاء تنسم رائحة البحر .

وقد أدركتني شفقة كبيرة عليه ـ ولا أحسبك إلاّ شاعراً بمثل ما

شعرت لو أنك كنت في موقفي ـ ولفرط رثائي لحالته لم أتردد في أن أعيّنه طاهي السفينة .

أمّا اسم الرجل فـ«جون سلفر» الطويل ، وقد بُتر أحد ساقيه ، فزادني ذلك توصية بالرجل وعطفاً عليه ، حيث إنه لم يفقدها إلاّ في خدمة بلاده ، وكان يحارب تحت إمرة «هوك» الخالد الذكر . وليس للرجل معاش يا ليفزي . . فتأمل فظاعة عصر نعيش فيه . بيد أنني وَهِمت بأني لم أجد إلاّ طاهياً ، والحقيقة أني عثرت على بحار حقيقي ، فقد تعاونا فيما بيننا على البحث ، فما هي إلاّ بضعة أيام حتى اجتمع لدينا نفرٌ من أقوى البحارة الذين يمكنك تصورهم ، ولو أن منظرهم لا يسر الرائي ، إلاّ أن وجوههم تؤذن بأنهم قوم ذوو طبائع لا تقهر ، وإني مؤكد لك بأن في وسعنا أن نقابل بارجة حربية .

وقد أعفى جون سلفر الطويل اثنين من الستة أو السبعة الذين سبقت وعيّنتهم ، بعد أن برهن لي في لحظة أنهم جماعة قليلو الخبرة بسفر البحار ما يوجب أن نتخلص منهم في مثل هذه الرحلة الهامة .

وإني الآن بكامل صحتي ، آكل كالثور ، وأنام كالدوحة . ومع ذلك فلن يطمئن لي خاطر حتى أسمع (بحارتي يتقاطرون على الملواة) ويقول قائلهم «إلى البحر» ، «احملوا الكنز» . وإن جلال البحر ليملأني عُجباً وزهواً . والآن احضر يا «ليفزي» على جناح السرعة . وحذار من أن تضيع ساعة إذا كنت تحترمني .

اسمح لـ«هوكنز» الصغير بالذهاب توّاً لرؤية أمه على أن يصحبه ردرث لحراسته . ثم فليرجع كلاهما بسرعة إلى برستول .

«جون ترلاوني»

ملاحظة : فاتني أن أخبرك بأن «بلاندلي» سيرسل بعثة للبحث عنّا إذا لم نرجع قبل نهاية آب/ أغسطس ، وقد عثر على رجل عظيم

ليكون قبطان السفينة ، على أنني أكره فيه صلابته ، لكننا إذا استثنينا ذلك فهو جوهرة نفيسة . ولقد كشف لنا جون سلفر الطويل عن رجل قادر ذي كفاءة ليكون رباناً واسمه «آرّو» .

وعندي رئيس بحارة لملاحظة القوارب والأمراس عنده بوق لاستعماله في دعوة الملاحين . وعلى ذلك فستكون الهسبنيولا ذات صبغة شبيهة بالنظام الحربي .

وفاتني أيضاً أن أخبرك بأن «جون سلفر» رجل ذو مال ، فقد عرفت بنفسي بأن له حساباً في المصرف لم يأخذ عليه سلفة مطلقاً ، وقد ترك زوجه للقيام بمهام الخان ، ولما كانت زوجه زنجية ، فإن عازبين عتيقين مثلنا ليُعذران إذا ذهب بهما الظن إلى أن سبب رجوعه إلى البحر إنما هو الاستراحة من وجه تلك الزوجة ، عدا العمل على تحسين صحته .

جـ .ت

ملاحظة ثانية : يؤذن لـ«هوكنز» بالبقاء ليلة مع أمه .

جـ .ت

وكي يسهل عليك أن تتصور مبلغ ما أصابني من التأثر لتلاوة ذلك الخطاب ، فقد أخرجني فرط السرور إلى حد الذهول ، ولم أكن لأحتقر أحداً احتقاري لـ«توم ردرث» الذي كان لا يعمل شيئاً خلا التذمر وندب سوء حظه . ولا ريب في أن بين حراس الصيد الذين هم دونه منزلة من يسر عظيم السرور بمبادلته ، على أن تلك إرادة السيد «ترلاوني» ، وإرادته كالشريعة في نظرهم جميعاً .

فما كان منهم أحد ليجسر حتى على التذمر إلاّ «ردرث» الهرم .

ولقد ركبنا في صبيحة اليوم التالي وشخصنا إلى نزل أمير البحر بنبو ، حيث ألفيت أمي في صحة جيدة وحالة مرضية ، فقد ضمّ القبر

القبطان الذي نالنا بسببه كل ذلك العناء . ولقد أمر السيد «ترلاوني» بكل شيء ، فأصلح وأعاد نقش اللوحة التي عليها اسم النزل ، والغرف التي يجلس فيها الزائرون ، وزاد بعض الأثاث وأحسن ما فيه كرسي جميل ذو مسندين لليدين ، تجلس عليه أمي في البار . وقد وافاها بصبي لمساعدتها حتى لا ينقصها شيء مدة غيابي .

ولى المساء ، وفي زوال اليوم التالي عقب الغداء ودعت أمي ، كما ودعت النزل الذي أحبه ، ولو أن حداثة نقشه قد قللت من حبه عندي . ثم سرت و«ردرث» في الطريق راجعين . وكان آخر ما حل برأسي من الأفكار ذكرى القبطان ، الذي طالما كان يسير على الشاطئ بقبعته المدببة ، ووجنته التي بها أثر قطع الحسام ومرقبه النحاسي القديم ، وللوقت انحرفنا في زاوية فاختفى نزلنا عن بصري .

وقد ركبنا عربة البريد في الغسق عند نزل «الرويال جورج» على المرج ، وكنت محصوراً بين «ردرث» ورجل آخر بدين . وبالرغم من سرعة حركة العربة وبرودة هواء الليل ، فلا بد أنني أغفيت طويلاً منذ ركبت العربة ، ثم بعد ذلك نمت كالميت ، والعربة تصعد التلال وتنحدر في الوديان من محطة إلى محطة ، ولولا لكزة في ضلوعي لما أفقت من غيبوبة ذلك النوم الطويل ، ففتحت عيني ، فإذا العربة واقفة أمام بناء فخم في أحد شوارع مدينة كبيرة ، وكان اليوم قد مر على طلوع الفجر .

فسألت الرجلين أين نكون؟

فأجاب «توم» : «نحن الآن في برستول ، انزل» .

ولقد اتخذ السيد «ترلاوني» لنفسه مكاناً في نزل على مسافة منا على المرفإ ليشرف على العمل في السفينة ، فكان لا بد لنا من الشخوص إلى هناك سعياً على الأقدام ، ولفرط جذلي كان طريقنا

على الرصيف إلى جوار ذلك العدد المكتظ من السفن المختلفة الأحجام، المتباينة الأجهزة، المتعددة الجنسيات. فكنت ترى في إحدى تلك السفن البحارة يغنون وهم مقبلون على عملهم، وفي سفينة ثانية كنت تشهد ملاحيها وقد ذهبوا في السماء متعلقين بخيوط تحسبها أوهى من نسيج العناكب. على أنني سلخت حياتي إلى جوار الشاطئ، إلاّ أنه خيل إليّ بأني لم أقرب البحر إلا تلك الساعة، فكنت حديث العهد برائحة القطران والملح. ولقد شهدت أعجب التماثيل النصفية التي يعلقها أصحاب السفن عادة تحت الصاري، والتي طافت أكناف المحيط. كما رأيت عدا ذلك بحارة كبار السن في آذانهم أقراط، شواربهم مفتولة تنتهي بدوائر صغيرة، وعلى رؤوسهم شعور مستعارة قطرانية اللون، وهم يختالون في مشيتهم البحرية المستهجنة. ولو أنني شهدت مثل هذا العدد من الملوك ورؤساء الأساقفة لما سررت أكثر من ذلك.

وقد كنت أنا نفسي على أهبة السفر إلى جزيرة مجهولة في سبيل البحث عن كنوز مدفونة على متن سفينة فيها رئيس بحارة من ذوي الأبواق، وعليها ملاحون ذوو شعور مستعارة لا ينفكون يغنون أغانيهم البحرية.

وبينا أنا غارق في لذة ذلك الحلم الجميل، إذ واجهنا فجأة نُزُلاً كبيراً، وقابلنا السيد «ترلاوني» خارجاً من باب النزل، وقد علت محياه ابتسامة، وهو يقلد مشية أهل البحر تقليداً متقناً، وقد ارتدى ملابس زرقاء اللون تماثل ملابس الضباط البحريين تماماً.

فقال: «أهلاً! أهلاً! لقد اكتمل عدد رجال السفينة، فقد وصل الطبيب بالأمس من لندن، وها أنتم قد جئتم أيضاً».

فسألته: ومتى نبحر يا سيدي؟

فأجاب «نبحر! آه.. سنبحر غداً!».

- ٨ -

المنظار

بعد تناولي طعام الإفطار، أعطاني السيد «ترلاوني» بطاقة بعنوان «جون سلفر» عند نزل «المنظار»، وأعلمني بأنه يسهل عليّ تعرّف المكان إذا تتبعت خط الحاجز على رصيف المرفإ وأنعمت النظر بمشاهدة حانة صغيرة عليها مرقب نحاسي ضخم رمزاً باسمها. فانطلقت لساعتي جذلاً بهذه الفرصة حيث سأتمكن من الأخذ بنصيب وافر من مشاهدة السفن والملاحين، ولقد اخترت سبيلاً سلكته محترساً من جموع البحارة المكتظين وعجلات النقل، وحزم البضائع، حيث كان المرفأ أشد ما يكون نشاطاً، حتى وصلت الحانة التي كنت أقصدها.

كان جل الزائرين من البحارة، وقد جعلوا يتحدثون بصوت عال، فأدركتني رهبة أشفقت معها من الدخول وجمدت في موضعي على الباب. وإني لكذلك إذ انحدر رجل من حجرة لم أتردد إذ رأيته من الحكم عليه بأنه «جون» الطويل، وكانت يسرى رجليه مقطوعة عند مفصل الفخذ، وهو يضع تحت كتفه اليسرى عكازاً كان يحركه بلباقة زائدة، حتى لتخاله كالطير، وهو يدرج عليه. والرجل عظيم الطول قوي البنية ذو رأس ضخم، ومحياه متوسط الجمال وبشرة وجهه مائلة إلى البياض، وهو باسم الثغر، ظاهر النجابة. والواقع أنه كان أشد ما يكون جذلاً، فكان يصفر وهو يدرج بين المناضد ويحيي أحب زائريه إليه بكلمة ظريفة أو بلكمة على الكتف.

والحق أنه ما كاد يقع بصري على ذكر «جون سلفر» الطويل في

خطاب السيد «ترلاوني» حتى أشفقت أن يكون ذلك البحار ذو الساق الواحدة هو نفسه الذي طالما رقبته في نزل أمير البحبر بنبو . على أن نظرة واحدة في وجه الرجل الذي أمامي كانت كافية لتبديد شكوكي ، فقد بَصُرت بالقبطان والكلب الأسود والأعمى «بيو» ، وأظنني بعد كل ذلك قادراً على تميز القرصان . ولكنني أحسب البون شاسعاً بين صاحب هذه الحانة الدمث الخلق النظيف وبين لصوص البحر .

فتجلّدت لساعتي واجتزت عتبة الباب ويمّمت وجهي بغير تردد شطر المكان الذي وقف فيه الرجل معتمداً على عكازه ، وهو يحدث أحد زائريه . ثم مددت يدي نحوه بالرسالة وسألته ما إذا كان هو السيد «سلفر» .

فأجاب : «أجل يا بني هذا اسمي بلا شك . ومن تكون أنت؟» . على أنه ما كاد يرى كتاب السيد «ترلاوني» حتى خُيل إليّ أنه وجم . ثم صاح بصوت عال وهو يقدم يده إليّ : «أوه ! عرفت ، فأنت صبي السفينة الجديد . . وإنه ليسرني أن أراك» . قال ذلك وأمسك يدي في قبضته الكبيرة القوية .

وهنا نهض أحد الحاضرين من مكانه منزعجاً شاخصاً نحو الباب ، وقد كان قريباً منه ، وما هي إلاّ لحظة حتى كان في الطريق . على أن سرعة خروج الرجل استرعت مني الالتفات ، وما هي إلاّ نظرة واحدة حتى تحققت بأنه ذلك الرجل ذو الوجه الأصفر السمين الرهو ، وهو صاحب الأصبعين الناقصين الذي كان أول من أتى إلى نزل أمير البحر بنبو .

فصحت لتوّي : «أمسكوه إنه الكلب الأسود» .

فأجاب «سلفر» : «ليس يعنيني من أمره شيء ، والذي يهمني من

أمره أنه لم يدفع حسابه ، فأسرع بالقبض عليه يا هاري» .

فهب أقرب الموجودين إلى الباب ووثب مجداً في إثره .

وأردف «سلفر» قائلاً : «لا بد للرجل من دفع قيمة ما طلب ولو كان هو أمير البحر هوك» . ثم ترك يدي وسألني : «ما هو اسم الرجل؟ الأسود! ماذا؟» .

فأجبته : «الكلب يا سيدي ، ألم يخبرك السيد «ترلاوني» عن القرصان؟ لقد كان هذا أحدهم» .

فصاح «سلفر» : «هكذا إذاً! وهل يجسر مثل هذا الوغد على غشيان نزلي؟ ألا انطلق يا «بن» لمساعدة «هاري» . أحقاً أنه أحد أولئك الأنذال؟ وهل أنت يا «مورغان» الذي كنت تجلس معه؟ تقدم إلى هنا» .

وكان «مورغان» هذا ملاّحاً أشهب الشعر أسمر الوجه محمرّه . فصدع بالأمر وأقبل إليه يدرج الهوينا بجبن وفرق ، وهو يقلب في فمه قطعة من دخان المضغ .

فسأله «سلفر» بعبوس وقد تجعّدت أسارير وجهه : «طبعاً لم تر عيناك قبل اليوم ذلك الكلب الأسود أليس كذلك؟ تكلّم» .

فأجابه مورغان وهو يحييه : «لا يا سيدي . . .» .

«وأنت لا تعرف اسمه أليس كذلك؟» .

«لا يا سيدي» .

فاستطرد «سلفر» قائلاً : «بالله يا «توم مورغان» ، إن هذا لخير لك وأبقى . فلو أنك اختلطت بمثل هذا فلتكوننّ على ثقة بأني ما كنت لأسمح لك بأن تطأ بنعليك ثرى نزلي . ثم بم كان يحدثك؟» .

فأجاب «مورغان» : «لست أدري تماماً» .

فأردف «سلفر» قائلاً : «وهل يصح لك أن تعتبر هذه الهامة التي

على كتفيك رأساً عاقلة مفكرة أم بكرة ذات ثقوب ثلاثة؟ وطبعاً لا تدري تماماً من كان يحدثك أليس كذلك؟» . و«الآن حدثني بما كان يتمتم؟ فلقد سمعته يتشدق بعدة كلمات مثل رحلات وربان وسفن ، ارفع صوتك إذا كان ذلك هو الحديث؟» .

فأجابه مورغان : «كنا نتكلم عن معاقبة الملاّحين بربطهم بحبل وسحبهم تحت هراب السفينة» .

«أعن هذا كنتما تتحدثان؟ يا له من موضوع خطير مناسب ! ولعلك تميل إليه ! عُد إلى مكانك يا بليد» .

وقد همس «سلفر» في أذني عقب عودة مورغان إلى مكانه ، وهو يسارّرني مساررة الصديق الواثق ـ ولست أحسب حديثه إلاّ محض نفاق ومداهنة ـ قال :

«إن مورغان رجل أمين مخلص ، على أنه جامد الفهم غير حديد الذهن» ، وهنا عاد إلى رفع صوته قائلاً :

«دعنا نرى ماذا يكون من شأن الكلب الأسود . أجل لست أعرف هذا الاسم من قبل مطلقاً ، على أنني أتوهم وكأنني رأيت ذلك الوغد قبل اليوم ، فقد كان يتردد إلى نزلي بصحبة سائل كفيف» .

فصحت به أن لا شك في صحة ما يقول ، وأني أعرف ذلك الكفيف من قبل واسمه «بيو» .

فقال «سلفر» وقد تملكته الدهشة : «لقد نطقت بالصدق ، وإني لعلى يقين من أن اسمه «بيو» ، وأغلب ظني أنه سارق محتال . فلو أننا ظفرنا بذلك الكلب الأسود فنكون قد أصبنا أخباراً جديرة بأن تزف إلى السيد «ترلاوني» ، ولا أحسبنا إلاّ ظافرين به ، فإن «بن» يحسن الركض وليدركنه ، ويرجعن به إلينا مكتوف اليدين . لقد كان يتحدث عن شد الملاحين بحبل إلى هراب السفينة ، وإني ممثّل به ما

ذكره في حديثه ذاك» .

وكان طوال الدقائق التي جعل يهرف فيها مسرعاً بهذه الجملة ، وهو يجول في طول الحانة وعرضها مستنداً إلى عكازه ، ضارباً الموائد بيده ، ومظهراً من دلائل الدهشة والعجب ما يكاد يخدع قاضياً أريباً ، أو أحد رجال الشرطة . ولقد عاودتني شبهاتي عندما شهدت الكلب الأسود في حانة المنظار فأمعنت في ملاحظة الطاهي . على أنه كان أبعد غوراً ، وأشد حرصاً ، وأكثر حذقاً ، من أن يعجم عوده فتى مثلي . وما إن رجع الرجلان وقد بلغ منهما اللغب وأضناهما الركض حتى قررا أنهما فقدا أثر الرجل في زحمة الناس ، وقد بالغ القوم في تقريعهما كأنهما لصان . فاقتنعت اقتناعاً لا تشوبه شائبة بأن «جون» الطويل بريء طاهر الذيل ، حتى كنت مستعداً لأن أمدحه وأشهد في جانبه إذا هو اتهم بإهمال مطاردة ذلك الأفّاك .

ثم إنه قال : «التفت إليّ يا «هوكنز» . . ألا ترى أن هذه المسألة عسيرة على رجل مثلي؟ أليس كذلك؟ فماذا عساه يظن بي الكابتن «ترلاوني»؟» . فقد كان ذلك الرجل الملعون الفظ الثقيل الظل في قبضتي وهو جالس في نزلي يشرب من خمري ! وقد أخبرتني أنت بجلية أمره ، ومع ذلك أتركه يفر من بين أيدينا جميعاً وعلى مرأى مني ! ولا أحسبك يا «هوكنز» إلاّ منصفي أمام السيد «ترلاوني» ، فأنت رغم حداثتك ، رشيق حاذق ذكي ، ولقد توسّمت ذلك فيك ساعة دخولك عليّ . والآن المسألة أمامك ، فخبرني بربك ماذا تراني كنت فاعلاً وأنا أحجل على هذه الخشبة العتيقة؟ فلو أنني اليوم كما كنت ربان سفينة قوي الجسم لأدركته بسهولة وقبضت عليه بكل جرأة ، ولأوسعته ضرباً ثم أوثقته في لحظة ، ولكنني الآن . . .» .

وهنا أمسك عن الحديث فجأة . . وقد تدلّى فكه كأنما تذكّر شيئاً

ذا خطر . . وصاح : «الحساب ! لقد شرب اللعين ثلاثة أقداح من الروم ، آه لعنة الله عليّ إذا كنت قد افتكرت بالحساب» .

ثم إنه سقط على مقعد وظل يقهقه حتى انحدرت الدموع على وجنتيه ، فلم أتمالك من متابعته في ضحكه ، وظللنا نقهقه قهقهة متابعة حتى رددت الحانة صدى صوته مرة ثانية . ثم قال وهو يمسح دموعه : «يا لي من عجل بحر سخيف ! إننا زميلان يا «هوكنز» ، فإني مراهنك ومقسم لك بأنه قمين بي أن أعيِّن صبي سفينة مثلك . ولكن استعد للمسير ، فهذا لا ينفع ، لأن الواجب هو الواجب ، سأعتمر قبعتي العتيقة المثلثة الجوانب ، وأذهب معك يا «هوكنز» إلى الكابتن «ترلاوني» لأخبره بواقعة اليوم ، فلا يذهبن عن بالك يا بني أن المسألة ذات بال ، ولم يخرج منا نحن الاثنين أحد بما أتجاسر أن أسميه شرفاً» .

ثم عاد إلى الإغراق في الضحك حتى بدت نواجذه ، ورغم أني لم أفطن إلى كنه الملحة مثل ما فطن هو ، بيد أنني اضطررت لمشاركته في ضحكه مرة ثانية . وقد ظل يسامرني ويلاطفني ما سرنا على رصيف المرفإ ، وجعل يحدثني بخبر مختلف السفن التي كنا نمر بها ، ويصف لي أجهزتها ، ويعرفني مقدار زنة ما تحمله ، ويعين الدول التي تتبعها ، وأنشأ يشرح ما هو جار فيها ، ويوضح كيف أن بعضها كانت تشحن والبعض تفرغ حمولتها ، والبعض الآخر تستعد للإبحار ، وهو لا يفتر يطرفني في كل مرة بنادرة عن السفن أو البحارة . ولا ينفك مردّداً بعض أساليب الملاحين ، ولا يتركه إلاّ إذا استظهرته ، حتى ظهر لي بأنه أفضل من يعاشر من رجال السفينة .

ولـمّا ولجنا باب النزل ، كان السيد «ترلاوني» جالساً إلى جوار الطبيب «ليفزي» ، وكانا يأكلان خبزاً قديداً ويشربان الجعة ؛ على أن

يذهبا إذا فرغا منه لتفقد ما هو جار على متن السفينة .

ولقد سرد «جون» الطويل الحادثة بكل حماسة وصدق ، وكان لا يفتر يستشهد بي من آونة إلى أخرى ، فكنت أؤيده في كل مرة . فأسف السيدان جد الأسف على إفلات الكلب الأسود ، إلاّ أنهما اقتنعا بأنه لم يكن في الإمكان أحسن ممّا كان ، وبعد أن شكرا «جون» الطويل ، اعتمد هذا الأخير على عكازه وانصرف .

فصاح به السيد «ترلاوني» : «يجب أن يكون سائر الملاحين على متن السفينة قبل الساعة الرابعة من عصر اليوم» .

فأجاب الطاهي وهو يجتاز الدهليز : «أمرك سيدي» .

ثم قال الطبيب للسيد «ترلاوني» : «رغم ضعف ثقتي بما تختاره على العموم ، إلاّ أنني أقول بأن هذا الرجل «سيلفر» يوافقني» .

فأجابه السيد «ترلاوني» بقوله : «إنه رجل جدير بالثقة» .

ثم أردف الطبيب : «ولا أحسبك تمانع في استصحاب «جيم» معنا؟» .

فأجابه : «لا شك في ذلك» . ثم صاح بي «البس قبعتك يا «جيم» ودعنا نذهب لنرى السفينة» .

- ٩ -

الهسپنيولا

في المرفإ كانت الهسپنيولا راسية على مسافة من الشاطئ، فكان لا بد لنا من المرور تحت الزخارف التي يضعها الملاحون في مقدم سفنهم، والسير حول مؤخر كثير من تلك السفن، والتي كانت أمراسها تصطك آونة بهراب سفينتنا وآناً تتذبذب فوقنا. وأخيراً وصلنا إلى متن السفينة فقابلنا الربان السيد «آرّو» وحيّانا، وهو بحار أسمر هرم في أذنيه شنفان وبعينيه حول. وكان السيد «ترلاوني» على مودة صادقة وصداقة ثابتة معه، بيد أنني لم ألبث أن لاحظت بأن الأمر كان على العكس من ذلك بين السيد «ترلاوني» وقبطان السفينة.

كان هذ الأخير رجلاً شديد المراس، تلوح عليه أمائر الامتعاض من كل ما هو جار على السفينة، ثم إنه لم يتريث في إبداء سبب استيائه لنا، فما كادت تستقر بنا الأقدام في قمرة السفينة حتى جاء ملاّح على إثرنا وقال:

«إن القبطان «سمولت» يريد محادثتكم يا سيدي».

فأجابه السيد «ترلاوني» منهمكاً: «لا زلت نازلاً عند أمره.. فليدخل».

وكان القبطان خلف رسوله مباشرة، فدخل من فوره وأوصد الباب خلفه.

وهنا سأله السيد «ترلاوني» بقوله: «ما وراءك يا كابتن «سمولت»؟ أرجو أن تكون الأمور جارية في أعنتها مستقرة في نصابها مطمئنة في مواضعها، وعلى أتم ما يكون استعداداً للسفر».

فقال القبطان : «أولى لي يا سيدي أن أصدقك الكلام ، وأمحضك النصح ولو ساءك مني إغلاظ في القول . أقول إني متشائم من هذه الرحلة ، كاره لقيادة السفينة ، وغير راض عن الربان «آرو» . وخير الكلام ما قل ودل» .

فصاح به السيد «ترلاوني» ، وقد رأيته يتميّز من الغيظ ، وقال : «لا أحسبك إلاّ كارهاً للسفينة أيضاً!» .

فأجابه الرجل : «لا علم لي بذلك يا سيدي لأني لم أختبرها بعد ، وكل ما يمكنني أن أقوله بأنه يظهر أنها سفينة سريعة لا بأس بها» .

فأجابه السيد «ترلاوني» : «ولعلك كذلك لا تحب وليَّك؟» .

وهنا اعترض الطبيب قائلاً : «تريث قليلاً . . تريث قليلاً . . فلا نتيجة لمثل هذه الأسئلة غير توليد سوء التفاهم . وسواء أكان حديث الكابتن أكثر أو أقل من اللازم ، فإني مضطر إلى أن أطلب منه إيضاح ما تفوّه به» .

ثم سأل الكابتن قائلاً : «تزعم أنك متشائم من هذه الرحلة فما سبب ذلك؟» .

فأجاب : «لقد وضعني هذا الرجل في خدمته وحولي ستار من الأسرار لا يميط عنه النقاب حتى تبحر السفينة . عليّ أن أسيِّر السفينة حيث يأمرني ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لقلنا خطب يهون ، على أنني أرى بأن أدنى بحار عادي يعرف من شأن الرحلة أكثر مما أعرفه أنا . ولست أحسب هذا من العدل في شيء ، ولا أخالك إلاّ معي في ذلك» .

فأجابه الطبيب : «لا شك في صحة ما ذهبت إليه» .

ثم عاد الكابتن إلى حديثه قائلاً : «أمّا الأمر الثاني فهو أني عرفت بأنّا ماضون في سبيل البحث عن كنز ، ولا تفوتك ملاحظة أني

سمعت ذلك من بحارة السفينة أنفسهم لا من غيرهم ، وأن السعي وراء الكنوز لمحفوف بالمخاطر ، فتراني لا أحب الرحلات التي مهما كان أجرها ، ولا سيما إذا كانت تلك الرحلات محفوفة بالأسرار ، وخصوصاً (لا تؤاخذاني يا سيد «ترلاوني») إذا كانت تلك الأسرار قد لَقّنها الببغاء» .

فسأله السيد «ترلاوني» : «مَن تعني بالببغاء «سلفر»؟» .

فأجاب الكابتن : «إنما هذا لغو من الكلام أعني أنه إفشاء للسر ، وإني لموقن أنه ما من أحد من حضراتكم يا سادة يعرف مبلغ خطر ما أنتما مشرفان عليه ، على أنني مخبركما بمبدأي الخاص : إما حياة وإمّا موت وخطر محدق» .

فأجاب الطبيب «ليفزي» : «لا شك في صحة ما قلت ، فنحن نطرح أنفسنا مطرحاً خشناً من التقرير ، على أننا لسنا من الجهل بمثل ما تظن . ثم إنك تقول بأنك لا تحب البحّارة ، فهل سبب ذلك أنهم غير عارفين بفنون الإبحار؟» .

فأجاب الكابتن : «إني غير راضٍ عنهم بتاتاً ، ويذهب بي الظن إلى أنه كان من العدل أن أحظى بحق اختيار بحارتي بنفسي ، إذا نظرت إلى الواجب» .

فقال الطبيب : «قد يكون لديك شيء من الحق في ذلك ، وقد كان قميناً بصديقي أن يستصحبك في غدواته وروحاته ، على أنه إذا صح لنا أن نعتبر تركه شيئاً من ذلك استخفافاً منه بشأنك ، فقد كان هذا عن غير قصد منه . ثم بقي علينا أن نعرف سبب استيائك من الربان آرّو» .

فأجاب بقوله : «لست راضياً عنه ، مع أني أعتقد بأنه بحار لا بأس به ، وإنما أنكر عليه عدم تحفظه وأخذه بالحيطة مع البحارة ، ما يجعله

غير جدير بأن يكون ضابطاً . فلا بد للربان أن يلزم نفسه ، بمعنى ألاّ يشارب صغار البحارة» .

ثم صاح الطبيب أخيراً : «ومجمل القول يا كابتن حدثنا بما تريد» .

فقال : «حسن ، هل أنتم مصرون على استئناف هذه الرحلة؟» .

فصاح به السيد «ترلاوني» : «وإصرارنا كالحديد لا يفُل» .

فقال الكابتن : «لا بأس ، بما أنكم صبرتم على سماع حديثي السابق الذي لم أوفق إلى أن أدعمه بالحجة والدليل ، فاسمعوا مني بعض كلمات أيضاً :

أولاً : إنهم يضعون البارود والأسلحة في عنبر السفينة الأمامي ، مع أنه لديكم مكان مناسب تحت الحجرة فلمَ لا تضعونه فيه؟

ثانياً : أحضرتم أربعة من رجالكم معكم ، وقد سمعت بأن بعضهم سيعمل في المقدمة ، فلمَ لا يكون بقاؤهم إلى جوار الحجرة؟

وهنا قاطعه السيد «ترلاوني» بقوله : «هل من مزيد أيضاً؟» .

فأجاب : «بقي نقطة واحدة فقط ، وذلك أننا سمعنا كلاماً كثيراً حتى اليوم» .

فثنّى عليه الطبيب بقوله : «أمّا الكلام فأكثر من الكثير» .

ثم استطرد الكابتن «سمولت» قائلاً : «وإني مخبركم بما سمعته بأذني ، ذلك أن بحوزتكم رسماً ببيان موقع الجزيرة ، وأن مكان الكنز موضّح على الرسم بخطوط متقاطعة . . وتقع الجزيرة . . . .» ثم ذكر خطي طولها وعرضها على الوجه الصحيح .

فصاح السيد «ترلاوني» : «ما حدّثت بذلك بشراً!» .

فأجاب الكابتن بقوله : «بل يعرف ذلك صغار البحارة» .

فصاح «ترلاوني» : «لا بد أن تكون أنت يا «ليفزي» أو «هوكنز» هو الذي تكلم!» .

فأجاب الطبيب : «لا كبير أهمية لمعرفة القاتل» .

وقد أمكنني أن أدرك بأن كلاً من الطبيب والكابتن لم يعنيا بمعارضة «ترلاوني» ، ثم إني حذوت حذوهما لأني عرفت بأن الرجل يكيل القول جزافاً . بيد أنني كنت لا أشك في صدقه في هذه النقطة ، وكنت مقتنعاً بأنه ما من أحد منا قد صرح بموقع الجزيرة .

ثم مضى الكابتن في حديثه قائلاً : «لا علم لي بمن يحمل الرسم منكم ، على أنني أعلق كبير أهمية على أن لا يعلم بمكانه أحد ، حتى أنا والسيد «آرّو» ، وإلاّ فإني مضطر إلى الاستقالة» .

فقال الطبيب : «لقد فهمت ما ترمي إليه ، فأنت تحب أن تحف المسألة بنطاق من الغموض ، وأن تضع حامية على مؤخر السفينة يكون رجالها من خدم صاحبي ، ثم تزودهم بكل الأسلحة والبارود التي على السفينة ، وبعبارة أخرى إنك تحذر من حدوث ثورة» .

فأجاب الكابتن «سمولت» : «سيدي ، لا يغلظ عليك قولي ، إذ أنا أنكرت عليك أن تلقنني الحديث ، فإنه لن يُسوّغ لكابتن مطلقاً إذا هو حاول السفر في البحر بأي حال وقد توفرت لديه من الأدلة ما يجعله يجزم بحدوث فتنة . أمّا السيد «آرّو» فلا شك عندي في أمانته ، وكذلك أعتقد في أمانة بعض البحارة أيضاً ، وقد يكون ذلك شأن الباقين على ما أعرف ، على أنني مسؤول عن سلامة السفينة ، ومطالب بحياة جميع رجالها فرداً فرداً . وإنه ليذهب بي الظن إلى أن الأمور ليست مستقرة في نصابها ، وإني مطالبكم بالأخذ ببعض أسباب الحيطة والحذر ، وإلاّ فإني معتزل منصبي ، وهذا كل ما أريد أن أقول» .

فابتسم الطبيب وقال : «أتعرف يا كابتن أسطورة الجبل والفأرة؟ إني لأستميحك عذراً ، ولكنني أصرح لك بأنك تذكّرني بهذه الأسطورة ،

وأنا أراهن أنك كنت تعني أكثر من الذي قلت عندما دخلت» .

فقال له الكابتن : «إنك أريب أيها الطبيب ، فإني لما دخلت كنت مصراً على أن أحظى بإقالتي وتسريحي من خدمتكم . وما كان ليذهب بي الظن إلى أن السيد «ترلاوني» سيسمع مني كلمة واحدة» .

فاعترض السيد «ترلاوني» بقوله : «ولن أسمع منك أكثر مما سمعت ، ولو لم يكن «ليفزي» موجوداً لبعثت بك إلى جهنم . أما وقد قدّر أن أسمعك فإني عامل بمشورتك ، على أن ذلك لن يزيدني إلاّ سوء ظن بك» .

فأجاب الكابتن : «لك أن تظن بي ما تشاء ، على أنك ستجدني رجلاً يقوم بواجبه» .

قال ذلك واستأذن بالخروج .

فقال الطبيب : «يا صديقي «ترلاوني» بالرغم من ملاحظاتي ، فلقد وجدت رجلين أمينين في سفينتك ، هذا الرجل و«جون سلفر» .

فأجاب السيد «ترلاوني» : «لك أن تقول ذلك في «سيلفر» ، أمّا هذا المدعي الذي لا يطاق ، فإني أصرح بأني أعتقد أن سلوكه ليس من الرجولة في شيء ، ولا هو يتفق مع ما هو جدير برجال البحر ، وبعبارة أخرى إن تصرفه ليس تصرفاً إنكليزياً بتاتاً» .

فقال الطبيب : «حسن ، سوف نرى» .

حين وطئنا متن السفينة كان الرجال قد بدأوا في إخراج الأسلحة والبارود وهم يغنون ، وقد وقف الكابتن والسيد «آرّو» على مقربة منهم يشرفان على عملهم .

ولقد سررت جدّ السرور بالترتيب الحديث ، حيث أصلحت كل السفينة . وذلك أن ستة مراكز أنشئت في المؤخرة ، مأخوذة من المراكز التي كانت تكوّن الجزء الخلفي من العنبر الرئيسي . وكان لا يربط هذه

الحجر بمطبخ السفينة إلا ممر من أخشاب مربوطة إلى بعضها ، إلى جوار جانب السفينة الأيسر . وكان المقصود في أول الأمر أن يشغل هذه المراكز كل من الكابتن والسيد آرّو وهنتر وجويس والدكتور والسيد ترلاوني . على أن الترتيب الأخير أسفر عن أن يشغل «ردرث» وإياي مكانين من الستة ، وأن ينام الكابتن والسيد «آرّو» على سطح السفينة . وفي سلالم المركب التي وُسعت من كل جانب حتى لتخالها منزلاً ، وبالرغم من انحطاط السقف إلا أنه كان هناك مكان لتعليق سريرين من أسرة البحارة ، بيد أنه ظهر بأن الربان سُر جد السرور بهذا التعديل . ولقد كان مشكوكاً فيه نظراً لمعاملته مع البحارة ، على أن ذلك لم يكن إلا مجرد حدث ، حيث ستعرف فيما بعد بأنا لم نحظ برأيه طويلاً .

وبينا كنّا جميعاً أشد ما نكون اشتغالاً بنقل البارود والأسرّة ، إذ أقبل آخر ملاح ، أو اثنين ، من ملاحي السفينة في مركب الشاطئ مع «جون سلفر» ، وقد تسلق الطاهي جانب السفينة بمهارة زائدة كأنه القرد ، وما كاد يشهد ما هو جارٍ حتى قال : «بربكم ما هذا الذي تصنعون؟» .

فأجابه أحدهم : «إننا ننقل البارود» .

فقال : «لماذا؟ إذا فعلنا ذلك يفوتنا مد الصباح وجزره !» .

فقال الكابتن : «هكذا أُمرت» ، ولم يزد على أن قال : «اذهب إلى الأسفل يا صاح ، فإن البحارة سوف يحتاجون إلى العشاء حالاً» .

فأجاب الطاهي : «أمرك يا سيدي» . ثم عبث بناصيته واختفى لساعته جهة المطبخ .

فقال الطبيب : «أظن لا بأس بهذا الرجل يا كابتن» .

فأجاب الكابتن «سمولت» بقوله : «قد يكون ذلك صحيحاً» . ثم

مضى في إصدار أوامره لرجاله وقال : «ترفقوا بهذا الشيء يا قوم . . ترفقوا» . ثم إنه لمحني فجأة أفحص المدفع الصغير الذي كنا نحمله في عرض السفينة ، وكان مدفعاً نحاسياً تُساعياً ـ قذيفته تسعة أرطال ـ طويلاً .

فصاح بي : «دع عنك هذا اللعب يا صبي المركب ، وعليك بالطاهي فلعلك تجد عنده عملاً تؤديه» .

وما إن هممت بأن أنصاع لأمره حتى سمعته يقول للطبيب بصوت عال :

«لا أحتمل وجود أحد مميّز على متن السفينة» .

ولا أكتمك بأني كنت مع السيد «ترلاوني» في اعتقاده بالرجل ، فقد كنت أكرهه كرهاً شديداً !

- ١٠ -

الإبحار

مرت ليلة وصولنا في عمل مستمر ونحن نضع الأشياء في مواضعها ، وقد كانت القوارب المشحونة بأصدقاء السيد «ترلاوني» من أمثال السيد «بلاندلي» لا تنفك تتقاطر علينا ، حيث يودع راكبوها السيد ويتمنون له سفراً سعيداً وعوداً حميداً . والحق أنني ما عرفت ليلة في نزل أمير البحر بنبو كان عندي فيها من العمل نصف الذي عملته تلك الليلة ، حتى أضناني التعب ، ونال مني الإعياء . ولـمّا بزغ الفجر نفخ البحار المنوط بملاحظة القوارب والحبال في بوقه ، فتقاطر البحارة على الملواة . وما كنت لأبرح سطح السفينة مطلقاً ، ولو نالني ضعف ما أنا فيه من الجهد ، ذلك لأن الأوامر المقتضبة ، ونغمات الصفير الحادة ، وصوت غناء الملاحين وهم ينحدرون إلى مواقعهم في ضوء مشاعل السفينة ، كانت متعة جديدة عندي .

ثم صاح أحد البحارة : «الآن أنشدنا مقطوعة المشواة» .

فصاح آخر : «غنّنا الأغنية القديمة» .

فأجاب «جون سلفر» وقد اعتمد على عكازه تحت ذراعه : «أهلاً أهلاً بكم يا رفاق» ، ثم رفع عقيرته لساعته وقذف ألفاظاً أعرفها جد المعرفة :

«خمسة عشر رجلاً على صندوق الميت»

ثم إن سائر الملاحين ردّدوا :

«يو هو هو وزجاجة روم»

وكانوا عندما ينتهون إلى ثالث «هو» يديرون القضبان التي أمامهم بعزيمة قوية .

وحتى في تلك اللحظة العارمة حملني تيار الفكر إلى نزل أمير البحر بنبو في أسرع من ارتداد الطرف ، وخُيل إليّ أني أسمع صوت القبطان مشتركاً في ترديد الكلمات . وسرعان ما رُفعت المرساة ، وعلقت عند طرف مقدم السُفينة ، وقد تساقطت منها قطرات الماء وبدأت الريح تملأ القلوع وتدفعها . وخيل إليّ أن الأرض والسفن تسبح على جانبي السفينة . وقبيل أن أستلقي لأهجع ساعة كانت الهسپنيولا قد بدأت رحلتها إلى جزيرة الكنز .

ولست هنا في معرض ذكر تفاصيل الرحلة ، بيد أنني أقول بأنها كانت مُوفقة لا بأس بها ، وقد ظهرت مزايا السفينة ، واتضح بأن البحارة مقتدرون ، وكان الكابتن ملمّاً بواجبه أيّما إلمام ، على أن حادثين أو ثلاثاً وقعت قبيل وصولنا إلى جزيرة الكنز يحسن أن يعرفها القرّاء .

إنّ أول شيء يجدر بي ذكره هو ما وصل إليه السيد «آرّو» من درك أحط مما كان يخشاه الكابتن ، فكان غير محترم الجانب بين رجاله ، وكان يخرج على متن السفينة وقد دكنت مقلتاه ، واحمرت وجنتاه ، وتلعثم لسانه ، إلى غير ما هنالك من علائم السكر . وكثيراً ما كان يؤمر بالنزول إلى أسفل السفينة مخزياً ، وكثيراً ما كان يظل طول يومه مستلقياً على فراشه إلى جوار قمرات البحارة ، وآناً كان يقع ويجرح نفسه ، وآونة يقضي يوماً أو اثنين ثائباً إلى رشده يؤدي عمله بطريقة مقبولة نوعاً ما .

على أنّنا لم نوفّق في غضـــون ذلك في أن نكشف من أين له الشراب ، وكان ذلك لغز السفينة الذي لا يحل . فقد جعلنا نراقبه جهدنا ، ومع ذلك لم نهتد إلى حل ذلك المشكل ، وكنّا إذا واجهناه

بالسؤال ، ضحك إن كان ثملاً ، فإذا كان صاحياً أنكر ، وأجاب بكل تؤدة أنه ما ذاق سائلاً غير الماء القراح .

ولم يقتصر ضرره على أنه عديم النفع كضابط لا نفوذ له بين رجاله ، ولكنه كان في حال إذا استمر معها على هذا النمط فهو لا بد باحث عن حتفه بظلفه ، حتى إنه لم يُدهش أحد ، أو يأسف كثيراً ، عندما اختفى أثره في ليلة ليلاء كان البحر فيها هائجاً مزبداً عظيم الموج شديد النوء .

فقال الكابتن : «لقد سقط في البحر ، وكفانا مؤونة ربطه بالأغلال» .

غير أننا أصبحنا بغير ربان ، فكان لا بد لنا من ترقية أحد الملاحين ، وكان أنسب الجميع هو رئيس النوتية «جوب أندرسن» ، وبالرغم من أن لقبه لم يتغير فقد كان يشغل نوعاً ما وظيفة الربان . وكان السيد «ترلاوني» ممن ركبوا البحر كثيراً ، فأكسبه ذلك معلومات قيمة ، جعلته جزيل النفع ، حيث كان كثيراً ما يرصد بنفسه على متن السفينة إذا كان الجو معتدلاً . وكان مراقب الحركة «هاندز» بحاراً قديماً حريصاً ذا دهاء وحنكة وخبرة بحيث يمكن أن يُركن إليه بكل شيء عند الملمات .

وكان من أعظم الثقات «جون سلفر» ، فتراني مَسُوقاً على ذكر اسمه لأن أتكلم عن طاهي سفينتنا «الشواء» كما اعتاد الرجال أن يسموه .

كان يحمل عكازه على متن السفينة بربطه إلى عنقه بحبل لكي تكون كلتا يديه مطلقتي الحركة بقدر الإمكان ، وكان مشهداً حرياً بالرؤية عندما كان يضغط أسفل عكازه في أحد الحواجز التي تفصل أقسام جوف السفينة عن بعضها ، ويستند إليه ، ثم وهو يستسلم لكل

حـركـات السـفـينة ويمضـي في طهـوه كـمن هو آمن عـلى الشـاطئ . وأغـرب من ذلك كله أنك كنت تشـهـده في أردإ الأجـواء ، وأشـد الأنواء ، يمر عـلى سطح السـفـينة . وكـان له خط أو خطان مـربوطان لمساعدته على اجتـياز المسافات الفارغة ، وكـان يطلق عليـهـما اسم أقراط «جـون سلفر» ، فكان يتنقّل من مكان إلى مكان وهو يسـتعين بالعكاز آنة وآونة يتركه مـعلّقاً بالحبل المربوط إلى عنقـه وهو يسحبه على الأرض خلفه ، ثم يسير في كل ذلك بسرعة لا تقل عن سرعة رجل سليم الساقين . على أن بعض الملاحين الذين أبحروا معه قبل ذلك كانوا يظهرون مزيد عطفهم على نقص قوته إلى هذا الحد .

ولقد حدثني مراقب حركة السفينة قال : «ليس طاهينا بالرجل العادي ، فقد تعلم في صباه تعليماً حسناً ، ويستطيع أن يتكلم باللغة الصـحـيـحـة الخالية من الخطإ إذا هو عُني بذلك ، أضف إلى هذا أنه شجاع ، فما كـان الليث ليقاس بجـون في شيء ! فلقد شهدته يصارع أربعة ثم هو يضرب رؤوسهم ببعضها وهو من السلاح أعزل» .

وكـان سـائر الملاحين يحترمونه ، بل ويطيعـونه ، وكـانت له طريقة خاصة من الحديث في مخاطبة كل فرد ، وهو لا ينفك عن إسداء خـدمـة لكل منهم . وقـد كـان دائم العطف عليّ ، كـثـيـر السـرور بمشاهدتي في المطبخ الذي كان يُعنى بنظافته ، فكنت ترى الصحاف معلقة صقيلة ، وقد وضع قفص ببغائه في أحد زواياه .

وكنتُ إذا غشـيت مكانه صاح بي : «هلم إليّ يا «هوكنز» واسمع من جـون حكاية عـن البـحـر ، فـأنت أجـدر الأخـوان بالتأهيل يا بنيّ . اجلس واسمع الأخبـار . . فهذا الكابتن فلنت ـ فإني أسـمّي ببغائي بهذا الاسم نسبة إلى القرصان الذائع الصيت كابتن فلنت ـ يتنبأ لنا

برحلة موفقة أليس كذلك يا كابتن؟» .

فما كان ينتهي من حديثه إلى هذا الحد حتى يندفع الببغاء مردّداً بمنتهى السرعة هذه الألفاظ «قطع من ذات الثمانية» ـ قطع من عملة ذهبية تعادل شلنين ـ قطع من ذات الثمانية ، قطع من ذات الثمانية ، حتى يدركك العجب من عدم احتباس صوته فلا ينتهي حتى يلقي جون بمنديله فوق القفص .

وكان يقول في مثل هذه الأحوال : «إن هذا الطائر ليكاد يبلغ من العمر مائتي عام يا «هوكنز» ، ويغلب على ظني أن هذا الطائر مخلد غير مائت ، فما شهدت عين من المنكرات والفظائع أكثر مما شهده ، اللهم إلاّ أن يكون إبليس . فقد أبحر مع «أنجلز» القرصان الشهير ، ورافقه إلى «مدغشقر» وساحل «مالابار» في «الهند» و«سرينام» وجزائر «بروفدنس» و«برتوبل» . ولقد شهد استخراج السفن الغارقة المشحونة بالفضة أيضاً ، وهناك تعلم «القطع ذات الثمانية» ولا عجب ، فلقد شهد ثلاثمائة وخمسين ألفاً منها يا «هوكنز» ! ولقد شهد سفر نائب ملك «الأنديز» من «جاوا» ، فإذا نظرت إليه حسبته بعد في السنة الأولى من عمره . ولكنك شهدت الحروب والوقائع أليس كذلك يا كابتن؟» .

فكان الببغاء يردّد : «استعدوا للمسير» .

*

لم تكن خلفية النزاع بين السيد «ترلاوني» والكابتن «سمولت» قد سويت بالنسبة إلى الأول ، فكان تحقير الكابتن علناً ، أمّا الكابتن فكان لا ينبس ببنت شفة حتى يُسأل ، فإذا سئل كان جوابه مقتضباً جافّاً وبكل احتراس ، بحيث لا يتضمّن كلمة زائدة ، وكان يصرح إذا

أحرج مركزه بأنه أساء الظن بالملاحين ، وأنه مُعجب بنشاط بعضهم ، وأن لا بأس بسلوكهم جميعاً . أمّا السفينة فقد سُر بها سروراً جماً ، حيث كان يقول بأنها تلازم مهب الريح ملازمة لا يكاد يتوقعها رجل من زوجه ، على أنه كان يردف بقوله : «وكل ما أقوله أننا غير عائدين إلى أرضنا ثانية ، وإني كاره لهذه الرحلة» .

وكان إذا طُرحت أمثال هذه الكلمات على مسمع السيد «ترلاوني» ، يميل بسالفتيه ، ويشمخ بأنفه ، ثم يضرب في طول السفينة وعرضها جيئة وذهاباً ، ويقول : «ما هي إلاّ خرافة أخرى من خرافات هذا الرجل حتى ينشق إهابي» .

ولقد زادنا ما صادفناه من تقلّب الطقس واشتداد النوء في بعض الأحيان وثوقاً بمزايا الهسپنيولا . أمّا رجال السفينة فقد كانت علامات الرضى والقبول بادية على وجوههم ، ولولا شيء من ذلك لاستعصى إرضاؤهم ، لأني أعتقد بأن الله لم يخلق بحارة شراً من هؤلاء مذ عبث الطوفان بسفينة نوح ، فإنهم كانوا يقبلون على شرب الخمر بكميات كبيرة لأقل مناسبة ، ويصنعون الفطير اليابس في الأيام ذات الأهمية ، مثال ذلك إذا سمع السيد «ترلاوني» بأنه عيد ميلاد أحد البحارة ، ثم إن برميلاً من التفاح كان لا يبرح مفتوحاً في وسط السفينة ليأكل منه من أراد منهم حيثما لذ له الأكل .

وكان الكابتن كثيراً ما يقول للطبيب «ليڤزي» : «ما رأيت خيراً نشأ عن كل هذا التساهل ، وإني أعتقد بأنك إذا أفسدت رجال مقدم السفينة فإنك مُحولّهم إلى شياطين وأبالسة» .

على أن برميل التفاح هذا أفاد فائدة عظيمة فيما بعد ، فلولا وجوده ، لما أخذنا لأنفسنا مثقال ذرة من الحيطة والحذر ، ولذهبنا

ضحية الخيانة والغدر .

وإليك ما حدث . .

كنا قد تعرضنا للريح التجارية ابتغاء الاهتداء لكشف موضع الجزيرة التي كنا ننشدها ـ والتي لم يصرح لي بالإفصاح عنها أكثر من ذلك ـ وكنا ساعتئذ نسير في اندفاعها سيراً حثيثاً صباح مساء ، بمنتهى الحيطة وغاية الحذر والتطلع ، ففي أواخر أيام الرحلة ، حيث كان ينتظر وصولنا في أبعد تقدير في مساء ذلك اليوم أو ظهر اليوم التالي حيث تصبح جزيرة الكنز على مدى البصر منا . وكنا مولين وجوهنا شطر شمالي الشمال الغربي ، وكان الهواء يضرب عمودياً باستمرار على طول السفينة ، والبحر هادئ ساكن ، وكانت الهسپنيولا تمخر بمقدمها عباب البحر بثبات وهي تعبث من آنة إلى آخرى ببعض الزبد فتنثره في الهواء ، وكانت كل الأمور سائرة بانتظام ، وكل شيء في موضعه ، وسائر الملاحين وركّاب السفينة في أشد حالات القوة ، وأعلى درجات الحماسة ، حيث كنا على وشك الإشراف على نهاية الجزء الأول من رحلتنا .

فلمّا كان الوقت قبيل الغروب ، وقد فرغت من كل عملي وقفلت راجعاً إلى فراشي ، خطر لي أن أحظى بتفاحة ، فعدوت على سطح السفينة ، وكان الرقيب متفرغاً للنظر أمامه لاستكشاف الجزيرة ، وقد جعل الرجل المراقب يرقب نهاية الشراع وهو يصفر برفق ليرفه عن نفسه ، فكان هذا هو الصوت الوحيد المسموع خلا خرير ماء البحر عند مقدم السفينة وحول حوافها .

ألقيت بنفسي داخل برميل التفاح ، فلم أجد فيه تفاحة واحدة ، بيد أنني ما إن جلست هناك في الظلام وطرق سمعي خرير الماء ،

وحركة اهتزاز السفينة ، حتى أشرفت على الإغفاء ، فإذا برجل جلس إلى جوار البرميل وصدمه في جلوسه فاهتز عندما أناخ عليه بكتفه ، وكنت إذ ذاك على وشك أن أقفز منه لولا أن الرجل ابتدأ في الكلام ، وكان الصوت صوت «جون سلفر» ، وما إن سمعت اثنتي عشرة كلمة حتى أصبحت لا أجسر على أن أظهر نفسي لأحد ولو أُعطيتُ العالم بأسره ، فتكوّمت في موضعي مرتجفاً وجعلت أنصت إلى الحديث وقد تملكني الرعب وأخذت مني الدهشة ، حيث ظهر لي من هذه الاثنتي عشرة كلمة أن حياة كل الرجال الذين على متن السفينة تتوقف عليّ .

- ١١ -

خيوط الغدر

كان «سلفر» يقول : «لست أنا ممن يوضع لهم الشرك بسهولة ، فقد كان «فلنت» القبطان وكنت أنا أمين «المونة» وغيرها نظراً لهذه الساق الخشبية ، ولقد فقد «بيو» الهرم بصره في الجانب نفسه للسفينة التي كنت أقاتل فيها ساعة فقدت ساقي ، وكان الجراح الذي بترها ماهراً رفيقاً خبيراً بصناعته ، متخرجاً من الكلية ، وعالماً مطّلعاً باللاتينية وغيرها ، على أنه شُنق كالكلب ، وتُرك حتى جف في الشمس كباقي رفاقه عند قلعة «كورسو» ـ رأس في فرنسا ـ وكان أولئك رجال «روبرت» ، وسبب الموقعة تغييرهم لاسم سفينتهم «الثروة الملكية» . . وكان مبدئي أن ما دامت سفينة قد سُميت فليظل اسمها من غير تغيير ، وكان هذا شأن «كسّاندرا» التي أرجعتنا سالمين من ساحل «مالامار» بعد أن أُسر «إنجلند» والي جزر الهند ، وكذلك كان حال «ولرس» ـ اسم حيوان بحري ـ سفينة فلنت القديمة ، حيث شهدتها ملطّخة بالدم الأحمر وعلى وشك أن تغرق من كثرة ما تحمله من الذهب الأصفر» .

ولـمّا كنت أصغي إلى هذا الكلام فقد سمعت صوت أصغر بحارة السفينة يقول ، وقد ظهرت عليه علائم الإعجاب : «لقد كان فلنت فخر كتيبته ونابغة قومه» .

فأجاب «سلفر» : «لقد كان «دافيس» رجلاً بكل معنى الكلمة ، ولكنني لم أبحر معه مطلقاً ، وكل تاريخي أني صاحبت «إنجلند» في غزواته ، ثم بعد ذلك «فلنت» ، وها أنا الآن متطوع هنا كما يقولون .

ولقد اقتصدت من وراء «إنجلند» تسعمائة جنيه ، وألفين وأنا مع «فلنت» ، وجميعها محفوظة في المصرف ، والمبلغ في حدّ ذاته لا بأس به للبحار العادي مثلنا . وعليك أن تتأكد أني ما كسبت هذا المبلغ على أني اقتصدته . فأين كل رجال «إنجلند» الآن؟ لست أدري ! أم أين رجال «فلنت»؟ إن معظمهم هنا وكلهم مسروررون بما ظفروا به من العمل ، وقد كان بعضهم يستجدي الناس قبل ذلك . أما «بيو» فقد كُفّ بصره وكان قبل ذلك يخجل أن ينفق اثني عشر ألف جنيه في عامه كأحد لوردات مجلس النواب ، فأين هو الآن؟ لقد مات وذهبت ريحه ، ولكنه ظل قبل ذلك بعامين يبرح الجوع بأحشائه ويطوي في معظم أيامه على الجوع ، فكان يسأل ويسرق ويقتل ، وقد مات على ذلك ورب السماء» .

فأجاب البحار : «ولكن لم يجده ذلك نفعاً» .

فقال «سلفر» : «ثق أن لا فائدة مطلقاً للأغبياء لا من هذا ولا من غيره ، ولكن التفت إليّ ، إنك غض الإهاب ، على أنك لرشيق نشط ذكي ، ولقد عرفت ذلك منك مذ وقع بصري عليك ، وإني مخاطبك كرجل» .

ولك أن تتصوّر ما شعرت به ساعة سمعت ذلك العجوز الشنيع المخادع «سلفر» ، وهو يتملق غيري بالألفاظ نفسها التي تملقني بها من قبل . وإنه ليذهب بي الظن أنه لو كان في الإمكان لقتلته وأنا في البرميل . بيد أنه مضى في أثناء ذلك في حديثه ، من غير أن يداخله الشك في أن هنالك من يسمعه ، قال :

«كذلك هو شأن القرصان ، إنهم يعيشون عيشة عنيفة ، ويطرحون بأنفسهم مطارح خشنة من التغرير ، ويعرضون أنفسهم للشنق في كل ساعة ، على أنهم يأكلون ويشربون ، كديكة الرهان ، فإذا قفلوا من

الرحلة ألفيت جيوبهم عامرة بمئات الجنيهات بدل مئات السنتات ، ولكنهم يبددون معظم مالهم في شرب الروم وإشباع شهواتهم في ميادين القصف والعبث والمسرات ، فإذا أقفرت من الذهب أيديهم عادوا إلى سيرتهم الأولى من ركوب البحر . على أن هذه ليست خطتي ، فأنا أوزع نقودي أجزاء ، فأضع جزءاً هنا وجزءاً هنالك ولا أجمع شيئاً في مكان واحد مخافة الشبهات ، وها أنا أشرفت على الخمسين من عمري ، فإذا قفلت من هذه الرحلة أتظاهر بأني نبيل بالمعنى الصحيح ـ حسبنا ما أضعناه من عمرنا في المشقات ـ بيد أنني عشت عيشة راضية في غضون ذلك وما كنت لأمنع نفسي عما تشتهيه ، فكنت أنام على فراش وثير ، وآكل طعاماً شهياً لذيذاً طوال حياتي ، اللهم إلاّ إذا كنت في البحر . وقد بدأت مثلكم بحاراً عادياً» .

فقال له صاحبه : «هذا حسن ، ولكن كل أموالك الباقية قد ذهبت الآن ، ولست أحسبك مُغرّراً بنفسك بعد ذلك بالذهاب إلى «برستول» مرة أخرى ، أليس كذلك؟» .

فسأله «سلفر» ضاحكاً : «ولِمَ كل ذلك؟ وأين تظنني أودعت مالي؟» .

فأجابه صاحبه : في «برستول» في المصارف والمحلات .

فقال «سلفر» : «لا شك في ذلك ، فقد كانت مودعة كما تقول عندما أقلعنا ، ولكن زوجتي لا بد أن تكون قد استولت عليها الآن ، وأن تكون قد باعت حانة «المنظار» وحصلت على إيجارها وثمن الأثاث ، ولا بد أنها قد رحلت للقائي ، وإني مخبرك أين يكون تلاقينا لأني واثق منك ، بيد أن ذلك يحدث التحاسد بين الباقين . .» .

فسأله صاحبه : «وهل تثق بزوجتك هذه؟» .

فأجابه : «قلّما يثق القرصان ببعضهم ، وهم في ذلك محقون دون ريب ، على أن لي خطة خاصة أتبعها ، فإذا اتفق أن أحد الرفاق خدعني ، وأقصد بذلك شخصاً يعرفني ، فلن أتركه بعدها حيّاً يرزق . فقد كان بعضهم يخاف «بيو» ، والبعض الآخر يهاب «فلنت» ، على أن «فلنت» بجلال قدره كان يخشاني ، ثم هو يفاخر بخوفه مني . وكان بحارة «فلنت» أخشن أهل البحر عموماً ، فما كان حتى إبليس ليجسر على الإقلاع معهم . أمّا الآن فاسمع : لست أنا بالرجل الفخور الذي يزهو بنفسه ، ولقد شهدتم بعيونكم مبلغ لطف معاشرتي ، على أنني يوم كنت ضابطاً في سفينة «فلنت» ، كنت أضرى من ذئب ، حيث لم يكن ثمة حملان بين رجال «فلنت» ، أجل يجمل بكم أن تتثبتوا من أنفسكم في سفينة «جون» الهرم» .

فقال الصبي : «لقد كنت حتى الساعة زاهداً في هذه الرحلة ، راغباً عنها ، أما وقد سمعت حديثك الساعة ، فإني معك الآن وهاك يدي» .

فأردف «سلفر» قائلاً : «إنك لفتى شجاع ذكي لبيب» . وجعل يهز يده بعنف حتى جعل البرميل يهتز اهتزازاً ، وقال : ما شهدت نموذجاً ظريفاً أشبه منك بالنبلاء الأثرياء؟» .

عند هذا الحدّ بدأت أفطن لمعنى أساليبهم ، فما كان قصدهم بكلمة «نبيل ثري» إلاّ لص البحر المعروف ، وكان المنظر الصغير الذي شهدته آخر دور مثّل لإفساد خلق أحد الرجال المخلصين لنا ، ولعله آخر الباقين من أولئك . بيد أنني ما لبثت أن سُرّي عني من هذه الوجهة حيث صفر «سلفر» صفيراً خاصاً فانحدر شخص ثالث وجلس إلى جوار الجماعة .

فقال «سلفر» : «إن «ديك» لمخلص مستقيم» .

فأجاب «هاندز» : «عرفت بأن «ديك» مخلص وأنه ليس غبيّاً» . قال ذلك وقلب قطعة الدخان التي يمضغها في فيه ويصق . ثم إنه مضى في حديثه قائلاً : «ولكن أنصت إليّ أيها الطاهي ، أريد أن أعرف إلى متى نظل محجوزين ، وإلام نبقى على هذه الخطة ، كأننا بعض قوارب التموين؟ لقد طفح مني الكيل من الكابتن «سمولت» ، حتى أصبحت عاجزاً عن احتمال مضايقته أكثر من ذلك ، وإني لأتلهّب شوقاً لأن أدخل الحجرة وأظفر بما يستمتعون به من نقولات ونبيذ وأطايب» .

فصاح به «سلفر» : «اسمع يا «هاندز» ، لست يا بني ذكيّاً ، ولا عهد لرأسك بالحكمة من قبل ، بيد أنك تستطيع أن تسمع على ما أظن ، فأنصت إلى ما أقول : امضِ في عملك ، وتحمل المضض ، وتلطف في حديثك ، وابق ثائباً إلى رشدك حتى أُصدر كلمتي ، وعليك أن تأخذ نفسك بذلك يا بني» .

فأجاب مراقب الحركة متذمّراً : «لم أعترض على شيء مما تقول ، ولكني أسألك متى ذلك ، وهذا كل ما أقول» .

فصاح به «سلفر» : «هل تريد معرفة الساعة ! بالله ! أما وأنك تريد معرفة الساعة ، فإني أخبرك متى تقوم ، إنما الساعة هي آخر لحظة أقدر فيها على الاستمساك أمام مهاب أهواء الظروف . تلك هي الساعة» . فهذا الكابتن «سمولت» رجل من خيرة رجال البحر ، وهو يكفينا مؤونة تسيير السفينة المباركة بأنفسنا ، وعندنا ذلك السيد «ترلاوني» والطبيب ومعهما الرسم وما إلى ذلك ، ولست أدري مكان الرسم بالضرورة ، وأنّى لي معرفة مكانه؟ ولا أخالك زائداً على ما قلت . حسن فإني أقصد أن السيد «ترلاوني» والطبيب سيجدان الكنز ثم إنهما يساعداننا على إيصاله إلى السفينة ، فإذا تم ذلك أنفذنا ما خطر

لنا . ولو كنت على ثقة بجميعكم يا أولاد السخفاء لما أوقعت بالقوم حتى يرجع بنا الكابتن «سمولت» إلى منتصف الطريق» .

فأجاب الفتى «ديك» : «وما الذي يُريبك منا ، وكلنا على ما أرى بحارة على متن السفينة؟» .

فقال «سلفر» هازئاً : «تعني بأن جميعنا بحارة في مقدم السفينة . قد يكون باستطاعتنا إنفاذ خطة ما ، ولكن من ذا الذي عساه يرتب لنا تلك الخطة؟ وهذا هو كل ما يولد الشقاق بينكم أيها الرجال أولاً وآخراً ، ولو أنني تُركت لإنفاذ خطتي ، لما تسرعت بأمر قبل أن يرجع بنا الكابتن «سمولت» إلى مهب الرياح التجارية على الأقل ، وعندئذ لا يرهقنا بعد ذلك بسوء حسابه ، ولا يعود يوزع بيننا الماء بالقطّارة ، ولكنني عجنتكم عجناً وقلبتكم قلباً وعلى ذلك فسأضطر مرغماً على أن أفتك بهم على الجزيرة حالما يتم نقل الكنز إلى السفينة . بيد أنكم لا تسرون إلاّ إذا ترنحت بالخمر أعطافكم ، فالويل لي منكم ، فإن قلبي منصدع من سفري مع أمثالكم» .

فصاح به «هاندز» : «على رسلك يا جون ، فمن ذا الذي يعاندك ويغضبك؟» .

فأجاب «سلفر» بقوله : «كم من سفينة ضخمة تظنوني شهدتها تُدمَّر ، وكم من قرصان قوي رأيته معلقاً تحرقه الشمس على مشنقة الإعدام؟ وما كل ذلك إلاّ بسبب هذه العجلة وذلك التسرع وتلك المجازفة . هل فهمتم؟ ولقد شهدت في البحر أمراً أو اثنين ، فلو أنكم وضعتم لأنفسكم خطة وتحيّنتم الفرص لتبوأتم أرائك العربات تجري بكم جيادها ، ولكنني أعرف أنكم حمقى يجمل بكم الفقر ، ولا يليق بوجهكم الغنى . فلتملأوا بطونكم في الغد خمراً وشأنكم وما تريدون» .

فصاح به «هاندز» : «إن هنالك من يستطيع أن يقود ويسوس كما تقدر ، وكل ما في الأمر أن للرفاق ولعاً بشيء من القصف واللهو . فهم لا يخلون من النقص على أي حال ، بيد أنهم يأخذون بنصيبهم من السرور شأن إخوان الصفاء» .

فأجابه «سلفر» : «إنه كما تزعم ، ولكن أين هم الآن؟ لقد كان هذا شأن «بيو» وها هو قد قضى وهو يستندي الأكف . وكان ذلك شعار «فلنت» وقد ذهب ضحية الروم حيث لقي حتفه في الهضبة . أجل لقد كانوا إخوان صفاء ولكن أين هم ! وأين ذهبوا؟» .

ثم قاطعه «ديك» بقوله : «وماذا ترانا فاعلون بهم إذا نحن قلبنا لهم ظهر المجن؟» .

فصاح الطاهي مُعجباً : «هذا الرجل الذي أفخر به . . وهذا هو ما أُسمّيه العمل المهمّ بعينه ، فماذا تظن الأنسب عمله؟ هل نتركهم على شاطئ الجزيرة ونغادرهم مهجورين فيها كما كانت عادة «إنجلند» ، أو نذبحهم ذبح النعاج ، وهذه عادة «فلنت» و«بيلي بونز» .

فقاطعه «هاندز» قائلاً : «لقد كان «بل» فارس هذه الجولة ، ولكنه ميت ، والموتى لا يفقهون حديثاً ؛ أجل إنه ميت الآن ، وقد عرف نهايته ، ولو أن بحاراً خشناً مات على البر فليكون ذلك «بل» .

فصاح به «سلفر» : «إنك محق فيما تقول ، فقد كان خشناً حاضر الذهن . ولكن لاحظوا أنني رجل سهل المراس ، فأنتم تقولون بأني مثال الرقة ، ولكن جاء أوان الشدة ، فلا مفر من الواجب يا رفاق ، وإني مقترح قتلهم لأني أشفق إذا تربعت على إحدى منصات مجلس النواب ، أو تبوأت أريكة عربتي ، أن يدهمني أحد هؤلاء المحامين البحريين راجعاً من منفاه على غير موعد ، وكأنه الشيطان ساعة الصلاة . فكل ما أقوله «تريثوا» ، ولكن إذا دقّت الساعة فلنقتلهم

جميعاً ، ولا نُبقي على أحد» .

فصاح به مراقب الحركة : «إنك رجل يا جون» .

فأجابه «سلفر» : «سوف تقتنع بصحة مُعتقدك عندما ترى بعيني رأسك . وإني لا أبغي إلاّ واحداً هو «ترلاوني» ، ولسوف أفصل رأسه ـ التي تحاكي رأس العجل ـ عن جسمه بيديّ هاتين» .

ثم أردف قائلاً : «هلم يا «ديك» إلى برميل التفاح فوافني بواحدة أرطّب بها حلقي» .

ولك أن تتصورّ هول ما حل بي من الرعب ، فلو أنني أُوتيت ذرة من القوة لقفزت من موضعي ، وركضت كالأيل ، ولكنّ قوتي خارت وخانني قلبي .

سمعت «ديك» يحاول النهوض ، على أنه خُيّل إليّ أن أحداً منعه ، ثم إن «هاندز» صاح مستنكراً وقال : «ألا تُمسك عن رشف ذلك السائل الكدر يا «جون»؟ إلينا بشيء من الروم يا رجل» .

فقال «سلفر» : «إني مؤتمنك يا «ديك» ، فخذ هذا المفتاح يا بني واملأ طاساً وعد به إلينا ، واذكر بأني واضع على البرميل مقياساً» .

بيد أنه بالرغم من شدة ما حل بي من الرعب أمكنني أن أستنتج السبيل الذي كان يُحضر منه السيد «آرّو» ذلك السائل القوي الذي أودى به .

وما إن ذهب «ديك» حتى جعل «هاندز» يهمس في أثناء غيابه في أذن الطاهي ، فلم أستطع أن أسمع أكثر من كلمة أو اثنتين . بيد أنني استخلصت منهما أخباراً هامة . فإنه فضلاً عما قرع أذني من العبارات التي تؤدي إلى معنى واحد ، فإني سمعت هذه الجملة برمتها : «لن يشاطرنا من الباقين أحد ، فإن السفينة لا تزال تحوي رجالاً مخلصين» .

فلمّا رجع «ديك» جعل الجماعة يرشفون كل واحد نهلة من الطاس ، فأول جرعة كانت نخب الحظ ، والثانية نخب «فلنت» الهرم ، وقد قال «سلفر» نفسه بنغمة شبيهة بالغناء «وهذا نخبنا ، فأمسكوا ألسنتكم ، تنالوا جوائز كثيرة ، وطعاماً وفيراً» .

وهنا لمحت شبه نور وقع عليّ في البرميل ، فلمّا رفعت بصري شاهدت القمر قد أشرق ، وأطل على شراع مؤخر السفينة ، وانعكس ضوؤه الأبيض على نهاية القلع الأمامي ، وفي الوقت نفسه اخترق هذا السكون المخيم صوت المراقب يقول «اليابسة» .

- ١٢ -
مجلس الحرب

تسارع وقع الأقدام على متن السفينة ، ولقد أمكنني أن أسمع بعض مَن في الحجرة ومقدم السفينة يتركون فراشهم ، فانسبت في لحظة إلى خارج البرميل ، واحتجبت خلف القلع الأمامي وانثنيت راجعاً نحو المؤخرة ، ثم عدوت حيث التقيت «هنتر» والطبيب «ليفزي» وهما يركضان نحو القلع غير المعرض للريح .

كان سائر الملاحين قد اجتمعوا هنالك ، وقد ارتفع الضباب ساعة ظهور القمر ، فرأينا على مدى البصر منا في جنوبي غربي الجزيرة زوجاً من التلال يبعد أحدهما عن الآخر بنحو ميلين ، ينتصب خلف أحدهما وعلى مقربة منه تل ثالث أضيق منهما طويلاً . وكانت قمته لا تزال محتجبة داخل حُجب كثيفة من الضباب .

وكأنما شهدت كل ذلك في حلم ، حيث كان أثر الهول الذي داهمني مذ دقيقة أو اثنتين لا يزال آخذاً بلبي ، حائلاً بيني وبين عقلي . وهنا سمعت الكابتن «سمولت» يصدر أوامره . وكانت الهسپنيولا قد قربت من مجرى الريح درجتين ، وقد جرت ساعتئذ في طريق يجعل مرأى الجزيرة واضحاً من الشرق .

ثم قال الكابتن : «الآن أيها الرجال ، أما وقد أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من المكان الذي نقصده ، فهل شهد منكم أحد قبل اليوم هذه الأرض التي أمامكم» .

فصاح به «سلفر» : «رأيتها أنا يا سيدي ، فقد مررت بها على سفينة تجارية كنت طاهياً فيها» .

فسأله الكابتن : «يُخيل إليّ بأن المرسى في جنوبي الجزيرة ، خلف جزيرة صغيرة أليس كذلك؟» .

فأجابه الطاهي : «كما تقول يا سيدي ، وهم يسمونها جزيرة الهيكل العظمي ، وكانت يوماً مركزاً هاماً للصوص البحر ، وكان معنا في السفينة هذه رجل - يقصد السيد «آرّو» - يعرف سائر أسمائها ، أمّا هذا التل المائل نحو الشمال هنالك فاسمه تل الصاري الأمامي ، وهناك ثلاثة تلال على خط واحد تقع تجاه الجنوب ، واسمها الأمامي والرئيسي ، والأخير ، أمّا الرئيسي فهو التل الأكبر الذي يحف قمته حجاب من الضباب ، وهم يسمونه عادة المنظار بسبب كونهم يرقبون منه ما إذا كانوا في المرفإ ينظفون السفينة» .

فأجابه الكابتن «سمولت» : «عندي رسم هنا ، فانظر إذا كان يمثّل هذا المكان بعينه» .

فالتهبت عينا «جون سلفر» الطويل في رأسه عندما لمست أنامله ورقة الرسم ، على أن جدّة الورق أفقدته الأمل . ولم يكن هذا هو الرسم الذي وجدناه في حقيبة «بيلي بونز» ، على أنه كان صورة طبق الأصل منه ، كاملاً في كل شيء من أسماء ومرتفعات وأغوار لا ينقصها سوى الخطوط المتقاطعة الحمراء والمذكرات المكتوبة ، ولكن بالرغم من شدة استيائه البالغ ، فقد كان له من قوة عقله ما جعله يتمالك انفعاله .

أجاب : «أجل يا سيدي ، هذا رسم هذه البقعة بعينها ، وهو رسم متقن ، فمن يكون ذاك الذي رسم هذا ، إني لأعجب؟ فإني أعترف بأن القرصان أكثر جهلاً من الجهل ، فأنى لهم مثل هذا؟ أجل هذا هو الرسم بعينه ، فهذا مرفأ الكابتن «كد» ، وهو الاسم نفسه الذي كان

يطلقه زملاء البحر على المكان ، وهنا تيار شديد يجري جهة الجنوب ثم يتجه نحو الشمال تجاه الشاطئ الغربي ، وإنك لمحق يا سيدي في تحويلك الجمع إلى جهة أخرى ، حيث ليس ثمة محل أنسب من هذه الأماكن للدخول والإمالة به» .

فأجابه الكابتن «سمولت» : «شكراً لك على هذا ، وسأدعوك فيما بعد لتمدنا برأيك ، والآن فلتذهب» .

ولقد دهشت من شدة جمود «جون» في تصريحه بمعلوماته عن الجزيرة ، وإني لأعترف بأني شعرت كأنما ذُعرت عندما دنا مني ، ولا شك في أنه لا يعرف بأنني سمعت مؤامراته من البرميل ، بيد أنه ما كاد يلمس بيده ذراعي حتى أحسست بدبيب الفزع من قساوته وفرط نفاقه واقتداره ، فلم أتمالك أن أخفي ارتعادي .

قال لي : «إن هذه الجزيرة لبقعة جميلة ، يُسرُّ فتى مثلك بالنزول فيها ، فسوف تسبح في أنهارها ، وتتسلق أشجارها ، وتصطاد جداءها ، وتصعد تلالها كأنك بعض تلك الجداء . أجل إن هذه الذكرى لتكاد تعيد إليّ الشباب ، حتى أوشك أن أنسى ساقيَ الخشبية» . ثم أردف يقول : «ثق يا بني بأنه جميل أن يكون الإنسان فتياً ، وأن يكون له ساقان وعشرة أصابع . فإذا أردت أن تستكشف مختلف بقاع الجزيرة فما عليك إلاّ أن تطلب من «جون» كي يعد لك طعاماً شهياً تحمله معك في تجوالك» .

ولـمّا انتهى من حديثه عند هذا الحد لكمني على كتفي بكل مودة وتدليل ومضى يدرج ، هابطاً إلى أسفل السفينة .

وكان الكابتن «سمولت» والطبيب «ليفزي» والسيد «ترلاوني» يتحادثون مليّاً على سطح مؤخر السفينة . ورغم شدة قلقي في أن

أفضي لهم بجملة خبري ، بيد أنني لم أجسر على مقاطعتهم علانية ، وبينما أنا مجد في تدبير عذر مقبول ، دعاني الطبيب إلى جواره ، وكان قد ترك غليونه في أسفل السفينة ، ولـمّا كان شديد الولع بالتدخين ، أراد أن أوافيه به ، على أنني ما إن دنوت منه بقدر ما أستطيع محادثته من غير أن يسمعني أحد ، حتى قلت بغير تردد : عندي حديث أريد أن أقوله أيها الطبيب فخذ الكابتن والسيد «ترلاوني» إلى الحجرة في الأسفل ، ثم جِدْ بعد ذلك سبباً لدعوتي ، فإن عندي لخبراً تكاد السموات تنفطر منه ، وتنشق الأرض ، وتهمد الجبال همداً .

فتغيّرت سحنة الطبيب شيئاً ، ولكنه ما لبث أن ملك حواسه ، ثم صاح بصوت عال : «شكراً لك يا «جيم» فهذا كل ما أريد أن أعرفه» وكأنما كان قد سألني شيئاً .

قال ذلك ودار على عقبيه ، ثم وافى صاحبيه ، فتحادثوا لحظة ، وبالرغم من أن أحداً منهم لم يرفع طرفه ولا صوته ، أو حتى يدمدم ، فقد بدا لي أن الطبيب أفضى إليهما بطلبي ، حيث لم يلبث الكابتن أن أصدر أوامره إلى «جيب أندرسن» ، وفي لحظة كان الملاحون قد تقاطروا على جانب السفينة .

ثم خطب الكابتن «سمولت» فيهم قائلاً : «يا أبنائي ، عندي كلمة أوجهها إليكم ؛ إن هذه الأرض التي رأيناها إنما هي البقعة التي قطعنا المراحل سعياً في الوصول إليها ، ولـمّا كان السيد «ترلاوني» رجلاً كريماً ، جزيل الكرم ، كما نعلم جميعاً ، فقد سألني سؤالاً أو سؤالين ، ولـمّا أخبرته بأن كل رجل منكم قد أدى واجبه تماماً بكيفية ما كنت لأتوقع أحسن منها ، فلذلك سيصحبني السيد الطبيب إلى الحجرة

لنشرب نخبكم ونخب حظكم ، وسوف يقدم إليكم خمراً لتشربوا نخب صحتنا وحظنا ، أمّا عن رأيي الخاص في ذلك فهو أنه أمر جميل ، وكرم نادر فإذا أتتم وافقتموني فلتهتفوا للسيد الذي أمر لكم بذلك» .

ولا نزاع في أنهم لم يترددوا في الهتاف لساعتهم ، بيد أن أصواتهم رنت عالية قوية كأنما هي صادرة من أعماق قلوبهم ، حتى أنه داخلتني خلجات من الشك في أن أولئك القوم أنفسهم كانوا يرسمون الخطط للعبث بأرواحنا وسفك دمائنا .

وما كادت موجات الهواء المحمّلة برنين الهتاف السابق تسكن حتى انبرى «جون سلفر» وصاح بصحبه : «فلنهتف أيضاً للكابتن «سمولت»» فلبى سائرهم بحماسة ورغبة .

وعند ذلك هبط الثلاثة إلى قاع السفينة ، ولم يطل بهم الوقت حتى بعثوا في طلبي . وما إن دخلت عليهم حتى رأيتهم جلوساً حول المائدة وأمامهم زجاجة خمر إسباني ، وبعض العنب المجفف ، وجعل الطبيب يدخن بضجر ، وقد وضع شعره المستعار في حجره . وكنت أعرف بأنه لا يفعل ذلك إلاّ إذا كان مستاء . وكان شباك مؤخر السفينة مفتوحاً حيث كان المساء حاراً ، وكنت ترى القمر يتألق على أثر السفينة في الماء .

ثم قال السيد «ترلاوني» : «هيا يا «هوكنز» أنت تقول بأن لديك أخباراً فحدثنا بما وراءك» .

فصدعت بأمره ، وأخبرته بعبارة مختصرة كل تفاصيل حديث «سلفر» ، ولم يقاطعني أحد حتى أنهيت ، وقد ملك الحديث عليهم مشاعرهم فلم يتحرك منهم أحد ، بيد أنهم سمّروا أبصارهم في وجهي من أول الحديث إلى آخره .

وما انتهيت منه حتى صاح بي الطبيب : «اجلس يا جيم» .

فجلست إلى جوارهم حول النضد ، وصبوا لي كأساً من النبيذ ، وملأوا يدي بالعنب المجفف ، وقد شرب ثلاثتهم الواحد بعد الآخر نخب صحتي ، مظهرين احترامهم على أمانتي وجرأتي ، وقد انحنوا جميعاً باحترام إذ فعلوا ذلك .

وهنا صاح السيد «ترلاوني» بالكابتن : «لقد أصبت يا سيدي وأخطأت ، وإني معترف بجهلي وغباوتي ، نازل منذ الساعة من أمرك» .

فأجاب الكابتن : «لست أنت أكثر جهلاً مني يا سيدي ، فما سمعت بخبر بحارة يسبق إصرارهم على التمرد ، ثم هم يظهرون بوادره واضحة لكل ذي عين باصرة ، تستطيع اتخاذ التدابير لقمعها قبل حدوثها ، إلا هؤلاء ؛ فإنهم خدعوني» .

وهنا قاطعه الطبيب بقوله : «معذرة يا كابتن ، فـ«جون سلفر» رجل داهية» .

فأجاب : «يظهر واضحاً وهو في مؤخر سطح السفينة ، ولكن ما هذا إلا حديث خرافة فما هو بمغن عن أنفسنا شيئاً . بيد أنني أرى نقاطاً ثلاثاً أو أربعاً ، إذا أذن السيد فإني ذاكرها» .

فأجابه السيد «ترلاوني» بعظمة قائلاً : «أنت الكابتن يا سيدي فلك أن تتكلم» .

فقال الكابتن : «أولاً وقبل كل شيء علينا أن نمضي في سبيلنا حيث لا يمكن أن نرجع ، فلئن أصدرت أمري بالرجوع ، فهم لا مشاحة غير متريثين عن التمرد ، ثانياً ، أمامنا متسع من الوقت حتى

نظفر بالكنز على الأقل ، ثالثاً ، عندنا رجال مخلصون ، ونحن لا بد مضطرون يوماً إلى القتال . ولا يسعنا إلاّ تحيّن الفرص إذا سنحت ، ثم نمعن فيهم فتكاً وتقتيلاً في ساعة لا تخطر لهم ببال ، وأحسبنا نستطيع الاعتماد على خدمك يا سيدي» .

فأجابه السيد «ترلاوني» قائلاً : «لا ريبة في ذلك ، فأنت قادر على الاعتماد عليهم بقدر اعتمادك على شخصي» .

فأجاب الكابتن : «خدم السيد «ترلاوني» ثلاثة ونحن و«جيم هوكنز» أربعة ، والآن فهل نجد بين البحارة أحداً يوالينا؟» .

فأجاب الطبيب : «أغلب ظني أنه يمكننا أن نثق بالرجال الذين انتخبهم السيد «ترلاوني» بنفسه ، قبل أن يهتدي إلى «سلفر» .

فرد عليه السيد «ترلاوني» : «كلاّ ، لا يمكننا الاعتماد على أولئك ، فهذا «هاندز» أحدهم وقد جاراهم في تآمرهم» .

فقال الكابتن : «كنت أحسب أن في الإمكان الوثوق به» .

فصاح السيد «ترلاوني» قائلاً : «إن مجرد علمي بأن جميعهم إنكليز ليرهقني من أمري عسراً حتى ليكاد يخيل إليّ أن أنسف السفينة» .

فقال الكابتن : «حسن يا سادة ، ليس عندي ما أزيده ، فيجب أن نصبر ، وأن نظل حذرين ، ولو أن الانتظار شديد على النفس ، وكان خيراً لنا أن نقاتلهم ، ولكن لا مبرر لذلك حتى نعرف رجالنا . ولا أرى لنا رأياً سوى الثبات والصبر وتحيّن الفرص» .

فأردف الطبيب بقوله : «وهذا «جيم» في وسعه مساعدتنا أكثر من أي إنسان ، فإن الرجال لا يتحفّظون أمامه ، وهو فتى دقيق الملاحظة» .

فأجاب السيد «ترلاوني» بقوله : «إن ثقتي بك يا «هوكنز» عظيمة» .

فداخلتني خلجات من القنوط جراء هذا المديح ، حيث شعرت بأن لا حول لي ولا طول . بيد أنها دورة عجيبة من دورات الحظ صادفتني فكنتُ سبب نجاة أصحابي .

وفي الوقت نفسه كان الرجال الأمناء الذين نستطيع أن نعتمد عليهم لا يتجاوزون السبعة من الستة والعشرين ، وأحد أولئك السبعة صبي ، فعلى ذلك يصبح الرجال ستة مقابل تسعة عشر .

القسم الثالث
في الجزيرة
- ١٣ -
الاقتحام

ألفيت مظهر الجزيرة قد تغيّر أيّما تغيير حين صعدت إلى ظهر السفينة في صبيحة اليوم التالي . فمع أن النسيم كان أشد ما يكون سكوناً ، إلا أننا قطعنا مسافة بعيدة في أثناء الليل . وكنا نتحرك حركة هادئة على مسافة نصف ميل من جنوبي شرقي الساحل المنخفض . وكان جزء متسع من سطح الجزيرة مغطى بغابات سنجابية اللون ، ويتخلل تلك الصبغة المتجانسة خطوط من الرمل الأصفر في الأراضي المنخفضة ، وتشذ عن مستواه شجرات شامخة الطول من صنف شجر الصنوبر ، تراها آونة متفرقة ، وآونة متجمعة ، بيد أن اللون العام كان متجانساً كئيباً . أما التلال فكانت قممها الحجرية العارية مرتفعة ظاهرة فوق الخضرة وكلها غريبة المنظر . بيد أن «المنظار» كان يبين جميع التلال بثلاثمائة أو أربعمائة من الأقدام ، وكان أعجب التلال شكلاً ومنظراً ، حيث يذهب في السماء واضح القوام من سائر نواحيه تقريباً ، ثم هو ينتهي فجأة بقطع في أعلاه فيخيل إليك أنه بعض قواعد التماثيل .

وكانت الهسپنيولا تتهادى متمايلة من جانب إلى جانب في عرض البحر ، وجعل الجمع يتحرك ذات اليمين وذات اليسار ، محدثاً لجبأ وضوضاء عالياً ، والسفينة كلها تقرقع وتصر وتهتز كأنها بعض المصانع . فكان لا بد لي من التمسك بالحبل المتدلي من الصاري .

وخيل إليّ كأنما الدنيا تلف أمام بصري كالمصاب بالدوار، ذلك أنه رغماً عن كوني أصبحت بحاراً لا بأس به في أثناء الطريق، غير أنني ما اعتدت أن أقف هذه الوقفة من غير أن تجيش نفسي، أو يصيبني شيء من الدوار، خصوصاً في مثل هذه الساعة المبكرة وأنا أشعر بالجوع.

ولعل ذلك هو السبب، أو لعله مظهر الجزيرة بغاباتها السنجابية المحزنة، وأحجارها الناتئة العارية، وأمواج بحرها الزاخر التي تحدث هديراً كهزيم الرعد وهي تضرب بقوة في أكناف ساحلها العمودي الانحدار. وبالرغم من أن الشمس كانت ترسل من ذائب أشعتها خيوطاً ساطعة ساخنة، وقد علت أصوات الطيور الساحلية وهي تصيد السمك حائمة حولنا، وكان يصح أن يطرب أحدنا للنزول على شاطئ الجزيرة بعد طول المدة التي قضيناها في البحر، إلاّ أنه دب في نفسي دبيب من الكراهية لتلك الجزيرة مذ شهدتها، وكأنما كان قلبي يختلج داخل صدري من شدة الرعب.

كان أمامنا عمل شاق في ذلك الصباح، حيث لم يكن ثمة أثر لهبوب الريح، وكان لا بد لنا من حل القوارب وملئها بالرجال، وأن نسحب السفينة ثلاثة أو أربعة أميال حول زاوية الجزيرة، وداخل الممر الضيق إلى المرفإ خلف جزيرة الهيكل العظمي. فتطوّعت في أحد القوارب ولم يكن ثمة من داع لوجودي، وكانت الحرارة شديدة محرقة، وقد جعل الرجال يتذمرون بفظاعة على عملهم، وكان «جيب أندرسن» صاحب الأمر في القارب الذي نزلت فيه، بيد أنه بدلاً من أن يجتهد في حفظ نظامه، أخذ هو أيضاً في التذمر أكثر من الباقين.

ثم قال مقسماً : «لا بأس ، فما هذا الشقاء بدائم» .

ولقد حسبت بأن هذه بادرة سيئة ، حيث كان الرجال حتى ذلك اليوم يؤدون واجبهم بجد ونشاط ورغبة ، غير أن مجرد رؤية الجزيرة كان كافياً لحل خيوط النظام وتفكيك عراه .

وكان «جون الطويل» واقفاً إلى جوار مراقب الحركة يقود السفينة طول مدة دخولنا إلى المرفإ ، وكان يعرف الطريق معرفته لخطوط راحته ، ولو أن الرجل المنوط بسبر الأغوار كان يجد حيثما ذهب أغواراً أعمق من المبيّنة في الرسم ، بيد أن ذلك ما كان ليدفع به إلى التردد مرة واحدة ، فكان يعلل ذلك بقوله : «إن الجزر يصحبه تيار عنيف ، وإن هذا الممر سهل مأمون كأنما مُهّد كما يقولون بمعول» .

ثم وقفنا عند النقطة المبيّن عندها المرفأ في الرسم ، على نحو ثلث ميل من كل من الساحلين ، ساحل الأرض القارة على إحدى الناحيتين وجزيرة الهيكل العظمي من الجهة الأخرى . وكان قاع البحر رمليّاً نظيفاً . وقد أزعج صوت إلقاء المرساة أسراباً من الطير فجعلها تحوّم وتصيح فوق الغابات ، ولكن ما هي إلاّ دقيقة حتى حطّت على الأرض ثانية ، ثم خيّم السكون الشامل .

كان المكان الذي رسونا فيه محوطاً بالأرض من كل جانب تقريباً ، بحيث يكون بمعزل عن عبث الرياح وتأثير الأمواج ، ثم يكاد يكون مدفوناً بين الغابات ، حيث امتدت أشجارها حتى كادت تمس الخط المرسوم على جانب السفينة ، والذي يجب أن يظل دائماً فوق الماء ، والشواطئ تكاد تكون مسطحة ، وقد ذهبت رؤوس التلال في السماء على شكل نصف دائرة ، واحد هنا وواحد هناك . وكان نهران صغيران ، أو إن شئت مستنقعان ، يصبان في هذه الحفرة التي نحن فيها ، كما يمكنك أن تسميها إذا أردت . وكانت أوراق الأشجار المنثورة

ذات بريق متموّج ، وكان من المتعذر علينا أن نبصر بشيء من المنزل أو السياج ، حيث كانا مدفونين بين الأشجار تماماً ، ولو لم يكن من الرسم الذي معنا ، لخيل إلينا بأننا أول من أرسى هنالك مذ بزغت تلك الجزيرة من أعماق البحر .

ولم يكن ثمة نسمة ريح تهب ، ولا صوت يسمع ، باستثناء خرير الأمواج على الساحل الذي يبعد عنا نحو نصف ميل ، وحركة هديرها على الصخور الناتئة . وكانت ثمة رائحة عفنة تخيم على المكان الذي أرسينا فيه ، ولعلها رائحة الأوراق المبتلة وجذوع الأشجار المعطنة . ولقد بصُرت بالطبيب يدفع الهواء من أنفه المرة تلو المرة متمعضاً كمن يشم رائحة بيض فاسد . حيث قال : «لست أعرف من شأن الكنز شيئاً ، على أنني موقن أن الحمى متفشية في هذا المكان» .

ولئن كان سلوك الرجال مرعباً وهم في الزوارق ، فقد أصبح هائلاً مروعاً عندما صعدوا إلى سطح السفينة ، فما كادت تستقر بهم الأقدام على سطحها حتى جعلوا يحومون فيها وهم يدمدمون بغضب وشراسة ، ثم جعلوا يتلقون أتفه الأوامر بنظرات مبهمة ، وينفذونها دون رغبة ولا اكتراث .

ولعل العدوى قد سرت إلى المخلصين أنفسهم ، حيث لم يكن في السفينة رجل يرشد صاحبه ، أو يقوّم معوجه . على العموم كانت مظاهر التمرد بادية في أوضح معانيها .

ولم نكن نحن معشر أهل الحجرة ، الذين فطنا إلى الخطر المحدق فقط ، ولكن «جون» كان أشد ما يكون اشتغالاً ، حيث ظل يتنقل من جماعة إلى جماعة ، وهو يكلّف نفسه تقديم أغلى النصائح وأفضل الإرشادات لأصحابه ، أضف إلى ذلك أنه كان المثل الأعلى الذي يصح أن يُقتدى به ، بحيث كان يتعذر على أي فرد سواه أن يظهر

بمثل مظهره ، حتى أوشك أن ينهك نفسه رغبة في العمل ، وتلطفاً في أدائه ، وقد بالغ في محاسنة كل من يلقاه ، وهو لا يفتر عن الابتسام . فإذا أصدر أمراً ، رأيته وقد انتصب على عكازه في لمحة عين ، وهو يتدفق سروراً ، ثم هو يقول : : «إليك يا سيدي» ، فإذا لم يكن ثمة عمل يؤديه ألفيته يغني الأغنية تلو الأغنية ابتغاء أن يستر امتعاض أصحابه .

ولم يرعنا شيء من المظاهر المقبضة التي شهدناها ، في أصيل ذلك اليوم الأغبر ، بقدر ما هالنا ارتباك «جون» الظاهر الجلي .

ولذلك لم نجد مندوحة عن عقد مجلس آخر في الحجرة .

قال الكابتن : «لو أنني أصدرت أمراً بعد هذا يا سيدي ، لأحدق بنا سائر الملاحين في لحظة ، فما أصدرت أمراً إلا جوبه بالامتثال الجاف كما ترون ، وإذا رددت عليهم القول لأدى ذلك إلى تعانق الأسنة ، وإذا لزمت الصمت فطن «سلفر» إلى أن وراء الأكمة ما وراءها وبذا يفتضح الأمر ، وليس لدينا الآن إلا رجل واحد نعتمد عليه» .

فسأله السيد «ترلاوني» : «ومن يكون ذلك الرجل؟» .

فأجاب الكابتن : «إنه «سلفر» يا سيدي ، فإنه مثلي ومثلك أشد ما يكون حرصاً على إخفاء الأمور والتستر عليها . ولو عرضت له فرصة بحيث يمكنه أن يبعدهم عن هذا النزاع لفعل ، فما ضرنا لو أننا قدمنا له الفرصة ، وذلك بأن نسمح للرجال بأن يتنزهوا على الشاطئ في أصيل هذا اليوم ، فإذا ذهبوا لم يبق لنا ثمة مجال للمشاحنة ؛ وإذا لم يذهب منهم أحد فإنا متحصنون بالحجرة ومقاتلوهم قتالاً نتمنى معه الموت ، وإذا ذهب البعض فلتوقن بأن «سلفر» لا بد راجع بهم وهم كالحملان الوديعة» .

فعملنا على الأخذ برأي الكابتن ، وهيأنا المسدسات المحشوة ،

وزودنا بهـا كل من نثق به من الرجـال ؛ وقد كـان من بين مـن وثقنا بهم «هنتر» و«جويس» و«ردرث» ، وقد تلقوا الأخبار من غير تعجب ولا انزعـاج ، ما لم نكن لنتوقعه منهم . ثم صعد الكابتن إلى سطح السفينة وخطب في البـحارة قائلاً : «إخواني ، لقد كـان يومنا شـديد الحـرارة ، ولا شك في أن سـائرنا متـعب منهـوك ضـيق النفس ، فـلا بأس من أن تعرجوا على الشـاطئ ساعة ؛ فالزوارق لا تزال في الماء ، وهي تحت إمرتكم ، وليذهب منكم من شاء في هذا الأصيل ؛ وإني مطلق طلقـة مـدفع قـبل الغـروب بنصف سـاعـة ، ترجـعـون إذا سمعتموها» .

وأغلب ظني أن أولئك الأغرار لم يسمعوا بالتصريح حتى قرّروا أن يكسروا سيقانهم ويدموا أقدامهم ، بحثاً وتنقيباً عن الكنز ، حالما يصلون إلى سطح الجـزيرة . فـمـا إن انتـهى الكابتن من خطابه حـتى علت أصواتهم بعد خفوتها ، وهتفوا هتافاً عالياً ردد صداه تل بعيد ، فذعرت الطيور من أماكنها مرة أخرى ، وجعلت تحلق حول المرفإ صاخبة .

وكان الكابتن أحكم من أن يعترض سبيلهم ، فما إن لفظ كلمـاته حتى اختـفى عن الأنظار في لحظة ، تاركـاً «سلفـر» لتـرتيب نظام الجـمـاعـة ، وأحـسبـه أحـسن صنعـاً بعـمله ، فلو أنه ظل على سطح السفينة ، لما استطاع أن يتظاهر بعدم إدراكه لحقيقة الموقف ، حيث كان أظهر من الشـمس في يوم صائف . فقد كان القبطان الآن هو «سلفر» وكان بحارته رجالاً أشداء متمردين عصاة ، أمّا المخلصون ـ ولم ألبث أن أيقنت من وجود رجال مخلصين في السفينة ـ فلا بد أنهم كـانوا من الغباء بمكان ؛ أو بالأحرى كان البحارة جميعاً سـاخطين متأثرين

بزعماء العصابة ، ولم يكن هناك ثمة ما يميز أحدهم عن الآخر ، اللهم إلاّ تفاوت هذا الأثر شدة وضعفاً ، ولما كان جلّهم طيب المنبت من المبدإ ، فقد ظلوا ثابتين ، وأصبح من المتعذر تحويلهم عن غرائزهم . والبون شاسع بين رجل بليد صامت وبين آخر عازم على الاستيلاء على سفينة ، وهدر دماء عدد من رجالها الأبرياء .

وأخيراً تم تشكيل الجماعة ، فأسفرت عن بقاء ستة رجال في السفينة ، وشخص ثلاثة عشر رجلاً بمن فيهم «سلفر» إلى الجزيرة .

وهنا خطرت لي أولى تلك الخواطر التي كانت مدعاة لانتشالنا من بين براثن الهلاك .

فما دام «سلفر» قد ترك ستة أنفار ، فقد كان من الواضح أن جماعتنا ما كانت لتقوى على الاستيلاء على السفينة والذود عنها . ولـمّا كان الباقون ستة فقط ، كان من البديهي أيضاً أنهم ليسوا في حاجة كبيرة إلى مساعدتي . فخطر لي أن أذهب مع الذاهبين إلى الشاطئ . فقفزت إلى أقرب الزوارق بأسرع ما أمكنني ، واحتجبت في مقدم القارب ، وما كدت أستقر حتى تحرك .

لم يلحظني أحد منهم سوى المجدف الذي كان في المقدمة ، حيث قال : «هل أتيت معنا يا جيم؟ ألا أخفض رأسك» . بيد أن «سلفر» حدد بصره من القارب الثاني وسأل ليعرف ما إذا كنت أنا معهم . ومن تلك اللحظة ندمت على قدومي بهذه الطريقة .

أمّا البحارة فقد تسابقوا بقواربهم نحو الشاطئ ، غير أن القارب الذي كنت فيه كان قد تحرك قبلها ، وكان في الوقت نفسه أخف القوارب وأحسنها رجالاً ، فمر إلى الأمام مرور السهم الراشق ، ثم اصطدم بأقرب الأشجار التي على شاطئ الجزيرة ، فتمسكت بفرع وطفرت مطوّحاً نفسي على الشاطئ متوّغلاً في أقرب أجمة ، بينما

كان «سلفر» ومن معه على مسافة مائة قدم منا .

وقد سمعته يصيح قائلاً : «جيم . . جيم !» .

على أنني لم أعره التفاتاً ، بل رحت أقفز وأنثني ، مخترقاً الأدغال ، منكس الرأس حتى أدركني التعب ، ونال مني الإعياء فعييت عن استئناف الركض .

- ١٤ -
على اليابسة

بلغ من فرط فرحي بنجاتي من «جون» الطويل أنني بدأت أسرّي عن نفسي ، فجعلت أقلّب بصري بشيء من اللذة في الأرض الغريبة التي كنت أطؤها ، فشعرت لأول مرة بغبطة الاستكشاف . أمّا الجزيرة فكانت غير آهلة ، ولم يكن أمامي ثمة شيء من مظاهر الحياة ، فقد تركت أصحابي خلفي ، فأصبحت لا أرى إلاّ بعض الوحوش الكاسرة والدجاج ؛ فجعلت أسرح هنا وهنالك بين الأشجار . وكنت حيثما حولّت بصري أشهد نباتات مزهرة لا عهد لي بمثلها من قبل ، وقد انسابت الأفاعي في كل ناحية .

على أنني أشرفت على أجمة عظيمة من تلك الأشجار الشبيهة بالبلوط ـ التي عرفت فيما بعد بأن اسمها السنديان الحي ، أو الدائم الاخضرار ـ وكانت واطئة كالعوسج والعليق ، وأغصانها عجيبة الالتواء ، وأوراقها متلبدة كالغماء ـ قش يصنعون منه السقوف ـ ثم إن الأجمة كانت ممتدة من إحدى الروابي الرملية وقد أخذت أشجارها تزيد ارتفاعاً كلما زادت انبساطاً ، حتى تصل إلى حافة المستنقع العريض المملوء بالقصب ، حيث كان يتخلله أحد الأنهار الصغيرة في مجراه إلى المرفإ ، وكان المستنقع يتبخر تحت تأثير حرارة الشمس الشديدة ؛ وقد لاح طيف «المنظار» كأنما يضطرب داخل ذلك الحجاب من الضباب .

وبينا أنا على هذه الحال إذ شعرت فجأة بحدوث حركة مفاجئة حيث انتشر فوق أديم المستنقع سرب هائل من البط ، وأخذ يصيح

ويدور في الفضاء ، فاستنتجت لساعتي بأنه لا بد أن يكون بعض رفاقي من الملاحين يقتربون من حدود المستنقع . ولم يكذب حدسي ، حيث لم أعتّم أن سمعت أصوات بشرية على مسافة مني . وكنت كلما أرهفت السمع كلما زادت الأصوات وضوحاً واقتراباً .

وانتابني روع شديد ، ثم لذت بظل أقرب شجرة بلوط ، وجلست القرفصاء مرهفاً السمع .

وسمعت من مكاني صوتاً يجيب على سؤال رجل عرفت بأنه «سلفر» ، وكان رجع إلى استئناف قصته من جديد ، حيث كان مستطرداً في حديثه مدة لا يقاطعه فيها صاحبه ، وكانت لهجة حديثهما تدل دلالة واضحة على أنهما يتكلمان في موضوع خطير ؛ يغلب أنهما كانا يتحدثان بشراسة وحدة ، بيد أنه لم تطرق سمعي كلمة واضحة من حوارهما .

ثم بدا أخيراً بأن المتكلمين قد كفا عن الحديث ، ولعلهما جلسا على الأرض ؛ وقد كفت الطيور عن الحركة ، ولزمت جانب السكون ، ورجعت إلى مكانها من المستنقع .

وهنا شعرت بأني أهمل واجبي ؛ فما دمت قد طرحت بنفسي ذلك المطرح الخشن ولم أحجم عن مرافقة أولئك الأشرار ، فلا أقل من أن أسترق السمع لما يقولون في مجالسهم . فكان لا بد لي من الاقتراب منهم قدر الإمكان ، لأنفذ خطتي وأؤدي واجبي وأنا في مخبئي بين الأشجار المتدلية الأغصان .

وكان من السهل عليّ أن أحدس تماماً مكان المتحادثين ، ليس فقط بتتبع جهة صوتهما ، ولكن من حركات الطيور القليلة التي ظلت محلقة فوق رؤوس المتطفّلين ، فشخصت نحوهما زاحفاً على قدمي بشجاعة وبطء زائد حتى وصلت إلى ثغرة بين الأوراق ، وما إن رفعت

رأسي لأرى من خلالها حتى شهدت جلياً «سلفر» وأحد بحارة السفينة واقفين يتحدثان وجهاً لوجه في وهدة صغيرة خضراء إلى جوار المستنقع تحيطها من جميع النواحي أشجار متقاربة .

كان «سلفر» يقول : «يا صاح ، إني واثق أنك رجل كريم نبيل ، أفهمت؟ إني أحسن الاعتقاد بك ، ولتكن على ثقة من ذلك ! ولو أني لا أحسب لك كبير حساب ، أفتظنني كنت أكلف نفسي مؤونة الحضور إلى هنا لأحذّرك؟ ولقد قضي الأمر ، فأنت اليوم عاجز عن رد ما فات أو تلافيه ، وما حدا بي على مخاطبتك إلاّ فرط حرصي على انتشالك من بين أنياب الهلاك ، ولو أن أحد الرفاق الخبثاء عرف بالأمر ، فأين يكون مصيري يا «توم»؟ حدثني بربك ما ترى القوم فاعلين بي؟» .

فأجابه صاحبه وقد احمر وجهه ، وخشن صوته : «إنك يا «سلفر» رجل كبير السن أمين ، أو على الأقل معروف بالأمانة ، وعندك أيضاً نقود ليست لكثيرين من البحارة المساكين ، ولا ريب عندي في شجاعتك ، فخبّرني بربك ما الذي يحدو بك للانقياد وراء هذه الطغمة من الأوغاد المارقين؟ وعهدي بمثلك لا يرضى بهذا ! إنه لأهون عليّ أن أفقد ذراعي من أن أعق واجبي» .

ثم جعلته جلبة فجائية يمسك عن حديثه ، هذا وقد فهمت من الحديث أن «توم» مخلص أمين . على أنني ما لبثت أن نمي إليّ خبر آخر يؤيد أمانة فرد سواه ، وذلك أن صوتاً يشابه صيحة الغضب رن صداه بعيداً على جانب المستنقع فجأة ، ثم أعقبته صيحة ثانية ، وأخيراً سمعت صرخة طويلة هائلة ردّدت صداها صخور المنظار نحو عشرين دفعة ، ففزعت أسراب طيور المستنقع وحجبت وجه السماء بجرمها الأسود القاتم ، وقد جعلت تخف بأجنحتها حفيفاً متواصلاً

في الوقت نفسه . وبعد فترة من سماعي صرخة ذلك المائت التي ما فتئت ترن في ذهني ، عاد السكون فشمل هذه البقعة ، ولم يبق ثمة من صوت يتخلل سكون ذلك الأصيل سوى خشخشة الطيور المتواقعة ، وهدير الأمواج البعيدة .

وقد انتفض «توم» ساعة سمع تلك الصيحة كما ينتفض الجواد إذا هُمز ، غير أن «سلفر» لم يتحرك له ساكن ، بل وقف حيث كان ، وقد اعتمد على عكازه ، وجعل يرقب صاحبه كالأفعوان إذا تحفز للوثوب .

ثم صاح «توم» بصاحبه وقد مد إليه يده قائلاً : «جون» .

فصاح به «سلفر» وقد قفز إلى الخلف ثلاثة أقدام بسرعة : «إياك أن تلمسني !» .

فأجابه صاحبه بقوله : «ليكن ما تريد ، ولكن إشفاقك مني ، وسوء ظنك بي ، لدليل على شر نفسك ، وسواد قلبك ، ولكني مقسم عليك لتُخبرني بجلية الخبر» .

فرمقه «سلفر» مبتسماً بدهاء ، وهو على أشد ما يكون من الحذر ، وقد استحالت مقلتاه إلى نقطتين دقيقتين في وجهه الكبير ، بيد أنهما كانتا تتألقان كأنهما شظيتان من الزجاج البراق ، وقال له :

«تريد أن تعرف ما هذا ، إنه على الأرجح «آلان» .

وهنا أخذت «توم» عزة البطولة فقال وهو يقطر غضباً :

«أهو «آلان»؟ ألا سقى الله نفسه ، فقد كان بحاراً بكل معنى الكلمة ، أمّا أنت يا «جون سلفر» فقد كنت صديقي طويلاً ، أمّا اليوم فما أنا بعد بصاحبك ، فإذا مُت كالكلب فإنما أموت في أداء واجبي . لقد قتلتَ «آلان» أليس كذلك؟ فاقتلني أنا أيضاً إذا قدرت ، بيد أنني أحتقرك ولا أخشاك» .

ومـا إن وصـل «توم» في حـديثـه إلى هذا الحـد حـتى أدار ظـهـره للطاهي ، وانطلق ميـمّماً الشـاطئ ، على أنه لـم يكن مقـدوراً عليه أن يتجاوز إلاّ قليلاً ، وإذا «جون» يمسك بفـرع شجرة ، ويبعـد عكازه من تحت إبطه ، ويرسل المرماة الخشنة مخترقة الهواء فتصدم بسنانها «توم» المسكين بين كتفيه بقـوة هائلة ، فأصابه لذلك دوار شـديد ، وذهبت يداه صاعدتين إلى فوق ، ثم لهث لهثة عالية وخرّ على وجهه .

ولا يعرف أحد ما إذا كان قد أصابه ضـرر شديد أم لا ، ولكن من المنطقي جداً أن نحكم من صـوت الطعنة بأنها قـصـمت ظهـره على الأثر . بيد أنه لم يُمهل حتى يستفيق ، فقد وافاه «سلفر» موافاة القدر ، وعدا نحوه كأنه في خفته بعض القردة ، مع أنه كان بغير ساق ولا عكاز . وفي لحظة كان فوقه ، وقد أغـمد نصل مديته إلى مقبضـها دفعتين في جسـده الذي لا يملك صاحبه عن نفسه دفاعاً . ولقد سمعته وأنا في مخبئي يلهث بصوت عال وهو يطعنه .

وما كنت عـرفت حقيقة الإغـماء من قبل ، بيد أنني شـعرت في اللحظة القصيرة التالية لتمثيل هذا المشهد على مرأى مني ، كأن الدنيا تسبح أمامي ، وكأنما هي دائرة في ضبـاب ، فكان «سلفر» والطيـور وقمـة المنظار العـالية تدور دوراناً مـستمـراً ، وهي مقلوبة رأسـاً على عقب . كما خيل إليّ أني أسمع رنين أجراس بعيدة ، وصياح أصوات نائية تطن في أذنيّ .

ولـمّـا عـدت إلى رشـدي ، كـان الوحش «سلفر» قـد اسـتجـمع حواسه ، وأعاد عكازه إلى مكانه من إبطه ، ووضع قبعته على رأسه ، وقد ارتمى «توم» أمامه بلا حراك على الحشيش . بيد أن القـاتل ما كان ليـعنى به مطلقـاً ، ولكنه جـعل ينظف نصل مـديتـه الملوث بالدم ، بإضـمامة من الحـشيش ، وكأن كل شيء سـوى ذلك في موضعه لم

يتغير ، فالشمس ما زالت مشرقة بغير رحمة على المستنقع المتبخر ، وهي تتألق فوق قمة الجبل العالي ، وكان يعزّ عليّ أن أقنع نفسي بأن حادثة قتل قد وقعت أمامي حقيقة ، وأن حياة بشرية انتُزعت بغير رحمة مذ لحظة على مشهد مني .

وهنا وضع «سلفر» يده في جيبه وأخرج صفارة جعل يصوّت بها أنغاماً مرخمة خاصة ، رنت مخترقة ذلك الهواء الساخن ، وقد أعجزني بالضرورة إدراك المقصود بهذه الإشارة . بيد أنها ما لبثت أن أيقظت كامن خوفي ؛ فأشفقت من أن رجالاً آخرين قد يكونون مقتربين ، وقد يؤدي ذلك إلى اكتشاف مخبئي ، ولا سيما أنه قد قُتل رجلان من الأمناء منذ هنيهة ، ولعله مُمثل بي ما مُثل بهما .

فبدأت لتوّي أبتعد عن مكاني ، وزحفت راجعاً بما استطعته من سرعة وسكون إلى الجزء الأكثر انبساطاً من الغابة . وإني لكذلك ، إذ نزلت بسمعي أصوات عالية تتردد بين القرصان العتيق «سلفر» وبين أصحابه ، فضاعف من سرعتي هذا الصوت المؤذن بالخطر ، فما كدت أظفر بالخروج من الأجمة ، حتى عدوت بسرعة لا عهد لي بمثلها من قبل ، من غير أن ألتفت إلى الجهة التي أدبرت منها ، ما دامت تبعدني عن القتلة ، وكلما زدت ركضاً كلما ازددت خوفاً حتى انتهى بي الأمر إلى أن مسني طيف من الخبل .

وحق لي أن أختبل ، فمن ذا الذي كتب عليه ضياعه مثلي؟ فكيف أجسر إذا أطلق المدفع على النزول في القارب بين أولئك المتمردين الذين ما زالوا ملطخين بآثار جرائمهم الحديثة؟ أفلا يدق أولهم عنقي؟ أفلا يكون مجرد غيابي وتخلفي دليلاً على خوفي ، وبالضرورة برهاناً على ما اتصل إليه علمي من الأسرار الهائلة؟ فعرفت أنه قضي الأمر . فسلام على الهسبنيولا وعلى السيد «ترلاوني» وعلى الطبيب

والكابتن ؛ فلم يبق ثمة من باب أطرقه غير الموت جوعاً ، أو أن يقتلني المتمردون .

وكنت طوال هذه الدقائق أركض بقوة من غير أن أفطن إلى ذلك ، فأشرفت على سفح التل الصغير ذي القمة المزدوجة ، ووصلت إلى صقع من الجزيرة تنمو فيه أشجار السنديان المتفرقة على مسافات متباعدة ، وكانت أقرب في شكلها إلى أشجار الغابات ؛ ويختلط بهذه بعض أشجار صنوبر متفرقة تتراوح أطوالها بين الستين وحوالى السبعين قدماً ، كما كان هواؤها أكثر نقاوة من الهواء المجاور للمستنقع .

وهنا دهمني هول جديد ، جعلني أجمد في موضعي ، خافق القلب ، ذاهل اللب .

- ١٥ -

الرجل المجهول

كان وقوفي عند موضع صخري سحيق الانحدار ، فانساب الحصى والرمل مقرقعاً متوثباً بين الأشجار ، فتحولت عيناي بالفطرة إلى ذلك الاتجاه ، حيث شهدت جرماً يقفز بسرعة خلف جذع شجرة صنوبر . ولقد أعجزني تمييزه بحال ، سواء أكان دباً ، أو إنساناً ، أو قرداً ؛ على أن كل ما عرفته أنه كان قاتماً خشناً مشعّثاً . ولكن خوفي من هذا الطيف الجديد ، جعلني أجمد في موضعي لا أحرّك جارحة .

وكأنما تقطعت بي الأسباب ، فأمامي هذا الجرم الشاذ يرصدني ، وورائي أولئك القتلة السفاحون . وقد خطر لي في لحظة أن أؤثر ما أعرفه من الخطر على ما لست أعرفه ، حتى أن «سلفر» نفسه بدا لي أقل فظاعة بالنسبة إلى هذا المخلوق الوحشي . فنكصت على عقبي ، ثم حددت بصري ونظرت خلفي من فوق كتفي محترساً ، وبدأت أترسّم مواقع قدميّ ، وانثنيت راجعاً صوب القوارب .

وللتوّ عاد ذلك الجرم إلى الظهور ، ثم دار حولي في دائرة واسعة ، مجتهداً أن يردّني عن الجهة التي يمّمت وجهي شطرها . غير أنني كنت واهن القوى ، وأعياني التعب ، على أنني موقن بأنه حتى لو أنني كنت في قوتي قبل أن أبدأ بالهروب ، لاستعصت عليّ مواجهة ذلك الخصم القوي في سرعة عدوه ، فكان يمر مرور الأيل من شجرة إلى شجرة ، بيد أنه كان يجري على قدمين كسائر الناس ، ولو أنه يختلف عنهم في فرط تحدّب ظهره في أثناء عدوه ، حتى لتكاد تحسبه اثنين ، على أنني متأكد من أنه إنسان لا ريب فيه ولا لبس يخفيه .

ودار بخلدي ما سمعته عن أكلة اللحوم البشرية ، وكنت على وشك الاستنجاد ، ولكن مجرد يقيني من أنه إنسان بغض الطرف عن مبلغ توحشه ، أفرخ روعي قليلاً ، وبدأ خوفي من «سلفر» يزداد بالقياس إلى جزعي من ذلك الكائن . ولذلك وقفت في موضعي لا أتحرك ، وجعلت ألتمس لنفسي مخرجاً من هذا المأزق ، بينما أنا أقدح زناد فكري إذ نزلت برأسي ذكرى مسدسي ، وما إن فطنت إلى أنني لست أعزل ، حتى عاود قلبي نور الشجاعة ، والتفت بعزم ثابت شطر رجل الجزيرة هذا .

ولكنه كان قد اختفى خلف جذع شجرة أخرى ، ولا بد أنه جعل يرقبني بكل يقظة ؛ حيث أني ما كدت أسير نحوه ، حتى عاد إلى الظهور ، ثم خطا نحوي خطوة ليلاقيني ، وبعدئذ تردد وتقهقر ، ثم عاد إلى التقدم ؛ وأخيراً لفرط دهشتي وارتباكي ، ألقى بنفسه على ركبتيه ، ومد إليّ يديه المشبكتين متوسّلاً متضرّعاً .

وهنا لم يسعني إلاّ أن أسأله : من تكون؟

فأجاب : أنا «بن» . وكان صوته قبيحاً ، كالقفل الذي علاه الصدأ . ثم أردف قائلاً : «أنا «بن غن» المسكين ، نعم أنا هو ، ولم أتكلم مع إنسيّ في هذه السنين الثلاث» .

وهنا استطعت أن أدرك بأنه رجل أوروبي مثلي ، يكاد يكون جميل الوجه ، وكانت الشمس قد لوّحت كل ما عُرض لها من جلده ، حتى إنك لترى شفتيه سوداوين ، وكانت عيناه الصافيتان الجميلتان تظهران غريبتين في هذا الوجه البالغ السواد ، كما كان شيخ الشحاذين الذين رأيتهم أو تخيلتهم من حيث رثاثة ملابسه ، فقد كان يرتدي أسمالاً بالية من خيش سفينة قديم ، ويلبس ملابس بحرية رثة بالية ، وكانت رقع ثيابه مربوطة إلى بعضها بمجموعة من الأواصر لا تناسب بينها

مطلقاً ؛ فمن وزرة نحاسية ، إلى قطع من الدبق ، إلى عقد وعرى من الجلد المطلي بالقطران . وقد تمنطق عند حقويه بمنطقة من جلد قديم ذات عقد نحاسي ، فكانت هذه القطعة هي الجزء الوحيد المتماسك في كل ملابسه .

فصحت به متعجّباً مستنكراً وقلت : «هل قضيت ثلاث سنوات منفرداً حقاً ! هل غرقت سفينتك؟» .

فقال : «نعم يا أخي ؛ إنما تركني أصحابي» .

وكنت قد عرفت ذلك من قبل ، وفهمت بأنه إنما يعني به ضرباً مريعاً من العقاب كان شائعاً بين جماعة القرصان ، وبيانه أن يزودوا المذنب بقدر من البارود ، وشيء من الرصاص ، ثم هم يتركونه على شاطئ جزيرة قاحلة نائية .

ثم استطرد قائلاً : «أُنزلت على الشاطئ المهجور وتركت للقدر منذ ثلاث سنين مضت ، فكنت أقتات بالماعز والتوت والمحار ، وكان شعاري حيثما ذهب الإنسان فهو قادر على استنباط سبل العيش ، بيد أنني لا أكتمك يا صاح بأن نفسي متلهفة إلى الطعام الذي يأكله الناس ، أفلا يتفق أن تكون معك قطعة من الجبن هنا الآن؟ طبعاً لا يوجد معك أليس كذلك؟ لا بأس ، فكم من ليلة تعيسة كنت أحلم فيها بالجبن ـ الجبن المحمّص غالباً ـ فإذا استيقظت ألفيتني صفر اليدين كما نمت» .

فأجبته بقولي : «لئن قُدّر لي الرجوع إلى السفينة مرة أخرى فإنك مصيب من الجبن» .

وكان طوال هذه الفترة يلمس بأصابعه قماش سترتي ، ويملس يدي ، وينظر إلى حذائي ، وبالإجمال فقد جعل يظهر في فترات حديثه سروراً صبيانياً لوجوده في حضرتي ؛ بيد أنني ما كدت أصرح

بجملتي الأخيرة حتى رفع رأسه بعجب ، وحملق فيّ بشيء من الدهاء .

ثم قال مردّداً ألفاظي السابقة : «إذا قُدّر ورجعت إلى السفينة ! فهل هنالك ثمة مَن يمنعك؟» .

فأجبته : «لست أعنيك بقولي بالضرورة» .

فأجاب : «لأنت محق في يقينك ، ولكن ما اسمك يا صديقي؟» .

فأجبته : اسمي «جيم» .

فردّد اسمي مرتين وهو يتظاهر بفرط السرور وقال : «آه يا «جيم» ، لقد عشت عيشة يكاد يخجلك سماع تفاصيلها ، فقد كان لي أمّ تقية كانت تتعهدني بعنايتها .

فقلت : «لِمَ لا ، ألا يكون ذلك مؤكّداً؟» .

فأجاب : «حسن ، ولكنني كنت عظيم التقى ، وكنت صبيّاً مؤدباً ورعاً ، حتى لأستطيع أن أتلو تعاليم أصول الإيمان بسرعة تكاد لا تستطيع أن تميز معها الكلمة من الأخرى . وكانت النتيجة يا «جيم» أني ابتدأت حياتي بالمقامرة ، وكانت أمي تنبهني في كل مرة وتتنبأ عن كل هذا ، كانت تتنبأ هذه السيدة الورعة ، ولكن الله هو الذي أراد أن أكون هنا ، ولقد ذكرت كل التعاليم الدينية هنا ، وعدت إلى التقوى ثانية ، فلا تراني أشرب الروم كثيراً ، اللهم إلاّ بعض قطرات بقصد الترويح ، فإني مضطر إلى أن أكون طيّباً ، وأنا أرى السبيل إلى ذلك أيضاً» .

ثم نظر حوله وخفض صوته وقال : «وإني فوق كل ذلك غني يا جيم» .

«وهنا أيقنت بأن البائس لا بد أن يكون قد اختبل في وحدته ، وأحسبني أظهرت شعوري بذلك على أسارير وجهي ، وذلك لأنه عاد

إلى قوله بكل حماسة قائلاً :

«إنما أقول بأني غني ! غني ! وإني مخبرك بالأمر ، وجاعل منك رجلاً يا جيم ، آه يا جيم لسوف تبارك توفيق جدك ، وطالع سعدك ، لأنك كنت أول من عثر بي !» .

وهنا ظهر على محياه فجأة طيف تهديد ، فضغط يدي في قبضته ، ورفع سبابته أمام عيني مهدداً وقال : «ألا خبّرني بربك يا «جيم» أليست هذه سفينة «فلنت»؟» .

وهنا سُرّي عني ، وبدأت أعتقد أني ظفرت بحليف ، فأجبته قائلاً : «ليست هذه سفينة «فلنت» ، فقد مات «فلنت» ، ولكنني غير ممسك عنك من الأمر شيئاً ، ما دمت قد استحلفتني ، فإن بعض ملاحي السفينة لسوء حظ الباقين ، هم من رجال «فلنت» .

فسألني بلهفة : «أليس بينهم رجل ذو ساق واحدة؟» .

فسألته ما إذا كان يعني «سلفر» .

فقال : «آه «سلفر» ! هذا هو اسمه» .

فقلت : «إنه الطاهي وزعيم العصابة» .

وكان لا يزال ممسكاً رسغي ، فما كدت أفضي إليه بما أفضيت حتى شدّ قبضته وقال : «لئن كان جون الطويل هو الذي أرسلك فإني طيب كلحم الخنزير ، وأعرف ذلك منك ، فأفتك بك ، ولا أدعك تذهب» .

فعزمت للتو أن أفضي إليه بجملة الخبر ، وبسطت له حكاية رحلتنا كلها رداً على سؤاله ، وعرّفته بالمأزق الحرج الذي ألقينا أنفسنا فيه ؛ فجعل ينصت لحديثي بمنتهى الجذل ، ولـمّا فرغت منه جعل يملس على رأسي وقال : «إنك فتى طيب يا «جيم» ، وأنت تقول إنكم جميعاً في ظروف خطرة ، أليس كذلك؟ ولكن هوّنوا عليكم ،

وضعوا ثقتكم في «بن غن» فإنه فارس هذه الجولة» . ثم سألني قائلاً : «هل تثق بأن السيد يظهر بمظهر حر الفكر إذا أنا مددته بالمعونة وهو على ما تقول من حرج الموقف؟» .

فأجبته : «إنما السيد هو مثال حرية الضمير» .

فأردف يقول : «لست أبغي أن يجعلني حارساً لأحد أبوابه ، ويمنحني بذلة خدم رسمية ، فما هذا قصدت ولا إليه ذهبت ، وإنما أريد أن أسألك هل يعقل أن لا يعطيني ألف جنيه مثلاً من النقود المضمونة في اليد؟» .

فأجبته : «لا شك عندي في أنه يرضى بذلك ، حيث أن كل ملاحي السفينة سيظفرون بنصيب من المال» .

ثم عاد فحدجني بنظرة دهاء وقال : «ولست أحسبه يبخل عليّ بأن يحملني معه إلى بلدي؟» .

فأكّدت له بأن السيد «ترلاوني» لا يضن عليه بذلك ، فهو رجل نبيل ، وفوق ذلك فإنّا محتاجون إلى مساعدتك إذا تخلصنا من العصاة لتعاونا على الرجوع بالسفينة .

فقال : «آه . . إذاً لا ريب في أنكم ستأخذوني معكم» فانشرح للأمر .

ثم قال : «إني مخبرك الآن ما هو شأني بالموضوع ، فقد كنت في سفينة «فلنت» عندما دفن الكنز ، وكان معه ستة من البحارة الأقوياء ، وقد ظلوا على الشاطئ نحو أسبوع ، وكنا راسين على بعد منهم فوق سطح السفينة «ولرس» . وفي يوم رقت غلائل صحوه ، ارتفعت الإشارة ، وانقلب «فلنت» منفرداً في قارب صغير ، وقد لف رأسه بوشاح أزرق ، وكانت الشمس لا تزال في المشرق ، وقد كان على وجهه بياض قاتل ، ظهر في إثر القارب ، ولكنه كان حيّاً لم يصب

بسوء ، أمّا الستة الذين رافقوه فقد قتلهم ودفنهم ، أما كيف قتلهم فأمر حار فيه كل رجال السفينة ، ولا بد أنها كانت موقعة وقتال ، ثم إنها موت فجائي على الأقل ، فقد وقف منفرداً في وجه ستة . وكان ربان السفينة ساعتئذ هو «بيلي بونز» وكان «جون سلفر» رئيس البحارة ، فسألاه أين أودع كنزه ، فأجاب : «يمكنكم أن ترجعوا إلى الشاطئ وتمكثوا هناك إذا أحببتم ، أمّا السفينة فلا بد لها من الإقلاع في طلب المزيد من الذهب» .

«هذا وقد مضى على الأمر ثلاث سنوات ، فاتفق أن مررت عند انقضائها في سفينة أخرى ثم بصرنا الجزيرة ، فأومأت إلى صحبي هلموا يا رفاق إلى الجزيرة لنبحث عن كنز «فلنت» فقد أودعه هذا المكان . فكره الكابتن ذلك ، على أن الأخوان رغبوا فيه فرسونا ، وأوسعنا الجزيرة بحثاً وتنقيباً ، اثني عشر يوماً كاملة ، وكانوا كلما مضى يوم كلما زادوني لوماً وتعنيفاً ، حتى إذا كان صباح يوم معتدل عاد سائرهم إلى السفينة ، ثم أعطوني فأساً ومعولاً ، وقالوا امكث أنت وابحث لنفسك عن كنز «فلنت» .

«وهكذا يا جيم بقيت هنا ثلاث سنوات لم أذق فيها مضغة من طعام ، ولكن التفت إليّ وانظر ، هل ينبئ شكلي أنني من البحارة العاديين؟ قل لا . . وأنا أقول بأني لم أكن بحاراً» .

وهنا غمز بعينيه ، وجذبني بعنف ثم قال :

«اذكر هذه الكلمات للسيد «ترلاوني» يا جيم» .

أمّا الكلمات التي أريدك أن تكررها فهي ـ ولم يكن غير ذلك ـ «كان رجل الجزيرة ثلاث سنوات في حالتي الضوء والظلام ، وعاش تحت سمائها في المطر والصحو . فربما كان يقتل وقته في التفكير في صلاة ، أو في أمه العجوز ، إذا اتفق أنها حية ترزق ـ هكذا تقول ـ

ولكن معظم وقته كان يقضيه ـ تقول هكذا ـ في البحث عن أمر آخر، ثم إنك تعرضه كذلك» . قال هذا وقرصني ثانياً بكل وداد .

ثم استطرد في حديثه وقال : «ثم إنك تقف وتقول، وهو مشحون بملء الثقة، لاحظ ـ ملء الثقة ـ في رجل أصيل مثلك أكثر مما يثق بأولئك القرصان، حيث إنه كان واحداً منهم» .

فأجبته : «حسن، لست أفقه من حديثك حرفاً، ولكن لا حرج علي اليوم في ذلك ولا تثريب، فأنى ليَّ العودة إلى السفينة؟» .

فأجاب : «أجل لا ريب في أن هذه هي العقبة الكأداء . ولكن هاك قاربي الذي صنعته بيدي هاتين، ولقد خبأته خلف الصخرة البيضاء، فلنجرب الانتقال به بعد الغروب» ، ثم قال منزعجاً : «ها! ماذا أسمع؟» .

وبالرغم من أن الوقت كان قبيل الغروب، بساعة أو ساعتين، فقد رددت سائر جوانب الجزيرة صدى قصف مدفع .

فصحت به : «لقد بدأوا القتال فاتبعني»! .

ثم بدأت في العدو نحو المرفإ، وقد نسيت كل مخاوفي، وذلك الرجل يقفز إلى جواري بملابسه المصنوعة من جلد الماعز .

وكان يقول : «إلى اليسار . . إلى اليسار، سر على يسارك يا صاحبي جيم! لذ بظلال الأشجار! هنا قتلت العنزة الأولى، ولكن الماعز لا تأتي إلى هنا الآن، فقد تحصنت في فيافي الجبال خوفاً من «بنيامين غن» . آه وهنا المقبرة! ألا ترى إلى هذه الربى؟ لقد كنت أصطفي هذا المكان لأصلي من آن إلى آخر عندما أتوهم بأن اليوم قد يكون يوم أحد . وليس المكان بشديد الشبه بالمعبد، بيد أنه يدانيه في وقاره وسكونه . ثم إنك تقول بأن «بن غن» كان قصير ذات اليد،

فلم يكن هناك قسيس ليصلي معه ، وكل ما كان يملك هو الكتاب المقدس وعَلم» .

وقد ظل يهرف بذلك طول المدة التي عدوتها من غير أن يتوقع لحديثه رداً ، أو يحظى برد عليه ، وقد أعقبت قصف المدفع بقليل طلقات أسلحة نارية .

وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى شهدت العلم الإنكليزي يخفق فوق إحدى الغابات على نحو ربع ميل .

القسم الرابع
الدّريئة
- ١٦ -
رواية الطبيب «ليفزي»

بعد أن قرع الجرس ثلاثاً كما في العرف البحري - أو حين انتصفت الساعة الثانية تقريباً - انطلق القاربان من الهسپنيولا إلى الشاطئ، وكنت - أي ليفزي - والربان والسيد «ترلاوني» نتباحث في أمورنا داخل العنبر . فلو أن ريحاً ملائمة هبت لكنا أوقعنا بالستة الثائرين الذين بقوا على ظهر السفينة معنا ، ورفعنا المرسى وأقلعنا في عرض البحر ، ولكن الريح كان معدوماً ، وقد زاد حيرتنا مجيء «هنتر» إلينا وإخبارنا بأن «هوكنز» ذهب إلى الشاطئ مع الآخرين في القارب .

وما كنا لنشك مطلقاً في «هوكنز» ، وإنما أدركتنا خشية على سلامته حيث كان مع قوم تجعلنا خشونة أخلاقهم بحيث نعتبر رجوعه إلينا ثانية من محض المصادفات ، فربضنا على سطح السفينة ، وكان القار يغلي في حللها من شدة الحر ، وقد سبّب لي الريح الصاعد من المرفإ دواراً فإذا كانت للحمى والزحير رائحة تشم فقد كانت في ذلك المرفإ الممقوت ، وقد جلس الأوغاد الستة يتمتمون تحت شراع من القلع الأمامي ، وكنا نرى الزورقين يجريان نحو الشاطئ وفي كل زورق رجل جالس وهم بالقرب من مجرى النهر ، وكان أحدهم يصفر ليليبوليرو .

ولـمّا كان الانتظار شاقّاً ، فقد تقرّر أن أذهب أنا مع «هنتر» إلى الشاطئ في زورقنا «القارب السعيد» للاستكشاف .

وكان الثائرون قد اتجهوا بقاربهم إلى جهة اليمين، ولكني أنا و«هنتر» جذفنا إلى جهة الدريئة(*) الموضحة على الرسم، ثم رأينا الرجلين اللذين تركا لحراسة القاربين حين سمعنا غناءهما لليليبوليرو، وابتدأا يتشاحنان، وكنت أراهما يتناقشان فيما يجب عمله بنا، فلو أنهما ذهبا إلى «سلفر» وأخبراه، فربما كانت النتيجة غير ذلك، ولكني أظن أن لديهما أوامر من قبل، ولذلك قرّرا أن يبقيا هادئين في مكانهما ثم استأنفا الإنشاد.

وكان الشاطئ منحنياً قليلاً، فجعلت هذا النتوء حائلاً بيننا وأنا أقود الزورق إلى الشاطئ، حتى إنه قبيل نزولنا إلى الأرض لم نعد نبصر القاربين. ثم قفزت إلى الأرض وعدوت بأسرع ما يمكنني واضعاً منديلاً من الحرير تحت قبعتي لحفظ الرطوبة، وكان معي مسدسان لصدّ ما عساه أن يحدث من الخطر.

ولم أكد أعدو المائة ياردة حتى وصلت إلى الدريئة.

وإليك وصفها: تجد ينبوعاً من الماء الصافي يجري فوق قمة التل تقريباً، وقد أنشئ بيت وزرائب حول تل وينبوع ماء، وهذا البيت من كتل الخشب - جذوع الأشجار - ويسع نحو الأربعين رجلاً على الأكثر وفيه ثقوب للبنادق على الجوانب، وقد مهدوا ونظفوا متسعاً كبيراً حوله وبنوا زرباً يبلغ ارتفاعه ستة أقدام، ولم يعملوا له باباً ولا منفذاً، وكان منيعاً إلى درجة يصعب معها هدمه في مدة قصيرة ودون كبير عناء، وكان يعرض كل محاصر للخطر، وأمّا الذين في الدريئة فيقفون هادئين داخله تحت الحماية ثم يصيدون في الخارج إن لم يؤخذوا على غرة كالطير، وما عليهم إلاّ العناية بمراقبة الطعام

(*) الدريئة: ما يستتر به الصائد ليخدع الصيد، وهي البيت المحصّن.

فيمكنهم الدفاع عن الدريئة ضد فرقة من الجند .

وقد حمل إلى قلبي السرور منظر ينبوع الماء على الأخص ، لأنه بالرغم من أن عنبر السفينة كان فيه متسع كاف ، إلاّ أنه كان مفعماً بالأسلحة والذخيرة والمؤن والنبيذ الجيد ، فما أهملنا إلا الماء . وقد جعلني أفكر فيما سمعته من صراخ رجل يموت جاء يطن في أذني من عرض الجزيرة ، وما كنت حديث عهد برؤية القتل العمد فقد خدمت تحت قيادة صاحب السمو الدوق «كمبرلاند» وجرحت في موقعة «فونتنوي» ، ولكن على الرغم من ذلك فقد نبض قلبي بقوة حيث خطر بفكري هلاك «جيم هوكنز» .

ومن الفضائل أن يكون الإنسان قد دخل الجندية ، ولكن أفضل من هذا أن يكون طبيباً ، فلم يكن الوقت متسعاً للتباطؤ ، وعلى ذلك فقد جمعت فكرتي في الحال ، ولم أضيع شيئاً من الوقت ، ثم رجعت إلى الشاطئ وقفزت إلى «القارب السعيد» .

ولحسن حظّنا كان «هنتر» جيّد التجذيف فقد جعلنا الماء يتطاير ، وبعد مدة قصيرة كنا قد وصلنا إلى جانب السفينة ثم صعدنا إليها ، فوجدت قومي جميعهم في اضطراب كما هو طبيعي في مثل هذا الحال ، وكان السيد «ترلاوني» جالساً وقد جف الدم من وجهه فاشتد بياضه من كثرة التفكير في الضرر الذي سببه لنا ، فما أطيب قلبه ! وقد صلُح حال أحد البحارة الستة الذين كانوا في عنبر الملاحين .

قال الربان «سمولت» مشيراً إلى الرجل : «هذا رجل حديث العهد بهذا العمل أيها الطبيب ، فقد أتانا وهو في حالة إغماء عندما سمع الصيحة ، وما هي إلا لمسة واحدة لمراقب الحركة وينضم إلينا ذلك الرجل» .

ثم أخبرت الربان بخطتي واتفقنا على طريقة تنفيذ الخطة بالتفصيل .

فجعلنا «ردرث» فوق السقيفة بين العنبر والقلع الأمامي ومعه ثلاث أو أربع بنادق محشوة بالبارود ، ومرتبة ليقي بها نفسه ، وأتى «هنتر» بالقارب إلى مؤخر السفينة ، وصرت أنا و«جويس» نملؤها بصفائح البارود والبنادق وأكياس البسكويت ولحم الخنزير الموضوع في البراميل الصغيرة وبرميلاً من الكونياك وصندوقي الثمين المملوء بالعقاقير الطبية .

وفي الوقت نفسه وقف السيد «ترلاوني» والربان على سطح السفينة ، ونادى الربان مراقب الحركة الذي كان أكبر الملاحين وقال : «يا سيد «هاندز» إذا بدرت إشارة من أي واحد منكم أنتم الستة فسنصرعه في الحال ، فإن مع كل واحد منا مسدّسين» .

فتراجعوا إلى الوراء ، وبعد أن تشاوروا مدة يسيرة نزلوا جميعاً الواحد وراء الآخر من السلم الأمامي إلى عنبر الملاحين ظانين أنهم يمكنهم أن يأخذونا على غرة من الخلف ، ولكنهم رأوا «ردرث» ينتظرهم على السقيفة ، فرجعوا ثانية ، ثم أطل واحد منهم برأسه من على سطح السفينة فنهره الربان قائلاً : «انزل يا كلب» .

فعاد برأسه إلى الخلف ، ولم نعد نسمع شيئاً عن هؤلاء البحارة الستة .

وفي أثناء ذلك كنا قد عبأنا «القارب السعيد» على قدر ما استطعنا ، وجذّفنا أنا و«جويس» من المؤخرة واتجهنا نحو الشاطئ بقدر قوة تجذيفنا .

وقد لفتت رحلتنا الثانية نظر الرقيبين اللذين على الشاطئ فقطعا أنشودتهما الليليبوليرو ثانية ، وقبل أن يختفيا عن بصرنا خلف الرأس الصغير ، جرى أحدهما مسرعاً إلى الشاطئ واختفى ، وقد كنت عازماً بعض الشيء على أن أغيّر خطتي وأحطم قاربيهما ولكني

خشيت أن يكون «سلفر» ورفقاؤه قريبين منهما وربما كنا رجعنا خاسرين لمحاولتنا الحصول على الشيء الكثير جداً .

ولـمّا وصلنا الشاطئ بسرعة في المكان المحدّد ، وصرنا نضع المؤونة في الحصين ، ذهبنا نحن الثلاثة في الدفعة الأولى محملين جهد الطاقة وقذفنا بالمؤن خلف السور وتركنا «جويس» لحراستها ـ وكان شخصاً واحداً إلاّ أنه معه ست بنادق ـ ثم رجعت أنا و«هنتر» إلى «القارب السعيد» وحمّلنا أنفسنا ثانية ، وهكذا استمر بنا الحال وتكرر ذلك دون انقطاع حتى حزنا جميع البضاعة ، ولـمّا استقر الخادمان في الحصين ذهبت أجذف بكل قوة حتى وصلت إلى الهسبنيولا .

على أن مخاطرتنا في إيصال حمل آخر كانت ستظهر كأنها مجازفة أكثر من الحقيقة ، فقد كان القوم يتفوقون علينا بكثرة عددهم ، إلاّ أننا نمتاز عنهم بالسلاح ، فلم يكن مع واحد منهم بندقية ، وقبل أن يصبحوا منا على مرمى طلق المسدس ، تكون قد أصبنا منهم ستة على الأقل .

وكان السيد «ترلاوني» ينتظرني من شباك المؤخرة وقد أفاق من إغمائه وأمسك الحبل وربطه بشدة ، بحيث صرنا نحمل القارب حفظاً لحياتنا ، فكانت حمولته عبارة عن لحم خنزير مملح وبارود وبسكويت ، ولكل من السيد و«ردرث» والربان بندقية ومدية وباقي الأسلحة والبارود ، قذفنا به إلى الماء على عمق تسعة أقدام ، فكنا نرى الفولاذ اللامع يبرق في ضوء الشمس في القاع الرملي النقي .

وفي هذا الوقت بدأ الماء يتراجع بالجزر ، وكانت السفينة تتمايل حول مرساها ، فسمعنا أصواتاً خافتة في اتجاه القاربين ، ومع أن هذا قد طمأن قلوبنا على سلامة «جويس» و«هنتر» اللذين كانا في الجهة الشرقية إلاّ أنه كان إنذاراً لنا بالرحيل .

فرجع «ردرث» من مكانه فوق السفينة وانسل إلى القارب الذي أتينا به إلى مؤخرة السفينة ليكون أسهل للربان «سمولت» .

وقال الربان : «أتسمعونني أيها الرجال؟» .

فلم يجبه أحد من الذين في الرواق الأمامي .

«إني أخاطبك يا «أبراهام غراي» .

فلم يجبه أحد أيضاً .

ثم استأنف الربان مناداته بصوت أعلى : «غراي ، إني تارك هذه السفينة ، وإني لآمرك باتباع أوامر ربانك ، وإني على يقين أنك في باطنك رجل طيب وليس من أحد منكم رديئاً كما يظهر ، وسوف أعطيك ثلاثين ثانية لتنضم إلينا ، وهذه ساعتي في يدي» .

ثم ساد سكون تام .

فعاد الربان يقول : «تعال يا رجلي ، لا تنتظر طويلاً ، فإني أخاطر بحياتي وحياة من معي من هؤلاء الأفاضل في كل ثانية أمكثها» .

وحصل شجار في الداخل فجأة وسمعنا صوت لكمات وضرب ، وخرج «أبراهام غراي» وبصدغه شج ، وأتى مسرعاً نحو الربان كالكلب الذي يأتي ملبّياً صفير صاحبه ، وقال بين يديه : «إني معك يا سيدي» .

وفي اللحظة التالية انسل هو والربان بيننا في القارب ، فجذبنا مجاذفنا وابتعدنا ، ثم صرنا بعيدين جداً عن السفينة ، إلاّ أننا لم نكن بلغنا الدريئة بعد .

- ١٧ -

تكملة الرواية: آخر رحلة للقارب السعيد

اختلفت الرحلة الخامسة تمام الاختلاف عن الرحلات السابقة ، فقد كان جوف القارب الذي كنا فيه مملوءاً أكثر مما يتسع ، حيث ركب فيه خمسة من الرجال الكبار الجثة ، منهم ثلاثة يزيد طول الواحد منهم عن الستة أقدام ، وهم «ترلاوني» و«ردرث» والربان ، وهذا وحده أكثر من طاقة القارب . أضف إلى ذلك البارود ولحم الخنزير المملح وأكياس الخبز . أمّا المدفع فقد وضع في المؤخرة فأمالها ، وقد دخل القاربَ الماء مراراً حتى ابتل ذيل معطفي قبل أن يخب بنا المسير مائة ياردة .

وقد أمرنا الربان أن نجلس على حافة القارب حتى يستوي في جانبيه ، وعلى الرغم من ذلك فقد كنا نخشى الغرق .

أمّا الاختلاف الثاني في رحلتنا هذه فكان تراجع الماء بالجزر ، فقد كان التيار القوي المتلاطم الأمواج يندفع بسرعة من الجنوب إلى جهة الغرب حتى يصل إلى جهة البحر الذي دخلنا منه إلى المرفإ في الصباح ، وقد تمثّل خطر الموج تحديداً على قاربنا الذي حمل فوق طاقته ، وأخطر من ذلك خروجنا عن طريقنا وابتعادنا عن المكان الذي كان علينا النزول إلى الأرض من جهته ، فلو كنا تركنا القارب يسير حسب التيار لرسونا بقرب مرسى قوارب القرصان ، حيث كان من الممكن مفاجأتهم لنا في أي لحظة .

قلت للربان : «لا يمكنني التوجه بالقارب نحو الدريئة يا سيدي» ، لأنني كنت أقود القارب بينما كان هو و«ردرث» يجذفان دون أن يبدو

عليهما التعب ، وأردفت القول : «إن تيار الجزر يرجعنا إلى الوراء! فهل تستطيعان أن تجذفا بقوة أكثر من ذلك؟» .

فأجاب الريان : «لا يا سيدي ، فإن القارب يخب من الماء إذا فعلنا ذلك فأرجو أن تستمر حتى نتغلب على تيار الجزر» .

كنت أعمل بكل طاقتي ، فرأيت أن تيار الجزر كان يسوقنا إلى جهة الغرب ، حتى أني حولت رأس القارب نحو الشرق أخيراً أو بحيث يكون عمودياً تقريباً بالنسبة إلى الجهة التي علينا الاتجاه نحوها .

فقلت : «لن نبلغ الشاطىء ونحن بهذه السرعة» .

فأجاب الريان : «إذا كان هذا هو الطريق الوحيد الذي يمكننا أن نسلكه فلا مفر منه ، وعلينا أن نستمر عكس التيار» ، ثم استمر قائلاً : «وإذا اتجهنا إلى جهة المرسى فلا يمكننا أن نحكم أين سيكون مرسانا ، فربما يسوقنا التيار إلى جهة قاربي القرصان ، على أنه باستمرارنا في الطريق الذي نسير فيه تقل سرعة تيار الجزر فيمكننا أن نرسو في أي مكان نشاء من الشاطىء» .

فقال «غراي» الذي كان جالساً في مقدمة القارب : «لقد خفّت فعلاً سرعة التيار يا سيدي ، فنحن نسير أسرع من قبل قليلاً» .

فأجبته بقولي : «شكراً لك يا رجلي» . وكأنما لم يحصل منه شيء مّا حصل ، فقد كنا عازمين على معاملته كأحد رجالنا .

ثم عاد الريان فجأة إلى الكلام ، وقد تغيّرت نبرات صوته قليلاً ، قال : «المدفع !» .

فقلت : «لقد فكرت في ذلك» ، لأني تحققت أنه كان يفكر في قذف القنابل حيث لم يتمكنوا من جلب المدفع إلى الشاطىء ، وعلى فرض أنهم تمكنوا من ذلك فلن يستطيعوا جره بين الغابات .

فأجاب الريان : «انظر من جهة المؤخرة أيها الطبيب» .

استغرقتنا التطورات ، وكدنا ننسى المدفع التساعي الطويل . وقد رأينا الخمسة الأوغاد وهم يعملون في حل القلع ، وهو القماش الكبير الذي تسير به السفينة ، فلم يكن هذا كل ما جال في خاطري ، بل خطر لي في تلك اللحظة أن قنبلة المدفع والبارود قد تركا وراءنا وأن ضربة واحدة تجعلهما في حوزة الأشرار الذين على متن السفينة .

وقال «غراي» ، وقد بحّ صوته ، إن «هاندز» كان صاحب المدفع عند «فلنت» .

وعلى الرغم من كل ذلك اتجهنا نحو المكان الذي أردنا أن نرسو فيه ، وكنا قد ابتعدنا عن التيار وصرنا نجذف باعتدال ، وقد تمكنت من قيادة القارب بانتظام نحو المكان المقصود ، وقد كان من الخطر بمكان أن أصبح القارب معرضاً بمجمل جانبه إلى السفينة بدل مؤخره ، حتى أصبحنا بذلك هدفاً ملائماً .

وقد كنت أرى الوغد «هاندز» ذا الوجه المحمر وهو يعالج قنبلة مستديرة على سطح السفينة .

ثم سأل الربان قائلاً : «أيكم أحكم رماية؟» .

فقلت : «اخرج يا سيد «ترلاوني» .

فقال الربان : «اختر لي واحداً يا سيد «ترلاوني» من بين هؤلاء الرجال وليكن هاندز» .

وقد كان «ترلاوني» في ثباته كالحديد البارد وكان منشغلاً في حشو مدفعه .

ثم صاح الربان قائلاً : «فليكن تحكيمهم للمدفع بخفة وهدوء وإلاّ انقلب القارب ، وليكن جميعكم على الحافة عندما تطلق قذيفة المدفع» .

فرفع السيد «ترلاوني» المدفع ، وقد أوقف التجذيف ، وملنا جميعاً

إلى الجهة المقابلة حتى يحفظ التوازن ، وقد تم الأمر بغاية الدقة والحكمة حتى أنه لم تدخل القارب نقطة ماء واحدة .

وفي تلك الأثناء كانوا قد أداروا المدفع حول محوره ، وكان أكثر الناس تعرضاً له «هاندز» لوقوفه عند فوهته ، ولكن الحظ لم يساعدنا ، فحين أطلق «ترلاوني» مدفعه انحنى «هاندز» ومرت القنبلة تصفر فوق رأسه في حين وقع أحد الأربعة الآخرين .

ولم يردّد صدى صوته رفاقه الذين كانوا معه على السفينة فقط ، بل أيضاً جميع الذين كانوا على الشاطئ ، ولـمّا نظرت نحوهم رأيت قراصنة آخرين يتسللون من بين أشجار الغابات قاصدين قاربهم .

فقلت : «ها إني أرى المتمرّدين آتين» .

فقال الربان : «تنح عن طريقهم ، علينا ألاّ نهتم إذا أغرقوا قاربنا ، فإن لم نتمكن من الوصول به إلى الشاطئ فيمكننا الوصول سابحين» .

فأعقبته قائلاً : «إنه واحد من العابثين جهز بالرجال ، وأمّا الباقون فيحتمل أن يكونوا قد ذهبوا ليقطعوا علينا الطريق من جهة الشاطئ» .

فقال الربان : «إن الشوط لكبير على العابثين ، وأنت تعلم أن المرفاع على الشاطئ وأني لا أخشاهم ، بل أخشى القنابل الكروية ، فما أسهلنا هدفاً لها ! فإن أبسط إنسان يمكنه أن يصيبنا ، وأخبرنا أيها السيد عندما ترى الأعداء حتى نتوقف» .

وفي الوقت نفسه كنا نجذف حثيثاً بالنسبة إلى حالة قاربنا المحمل فوق طاقته بحيث لم يدخله إلاّ قليل من الماء ، وقد أصبحنا الآن على مقربة من الشاطئ ، فما هي إلاّ ثلاثون أو أربعون دفعة بالمجذاف حتى نصله ، فقد كشف الماء المتراجع بالجزر عن جزء غير قليل من الرمل تحت الأشجار الملتفة ، وصرنا لا نخشى القارب ، فقد اختفى خلف

رأس من الأرض ناتئ في البحر وصار الجزر الذي كان يؤخرنا في البداية مساعداً لنا ضد أعدائنا ، فلم يبق لنا خوف إلاّ من المدفع .

وقال الربان : «لو أسعفني الوقت لكنت أفضّل أن أقف هنا حتى نقضي على رجل آخر» .

وكان من الواضح جلياً أنهم كانوا يريدون ألاّ يعوقهم عائق يؤخر إطلاقهم النار علينا ، فما كانوا ليهتموا بأمر مثل ما اهتموا بزميلهم الذي وقع مع أنه لم يمت ، فقد رأيته يحاول الزحف بعد أن سقط .

ثم نادى السيد قائلاً : «استعداد» .

فرد عليه الربان قائلاً بسرعة الصدى : «أمسك» .

ثم تنحى السيد «ردرث» إلى الخلف حتى غطس معظم مؤخر القارب في الماء ، وفي هذا الوقت سمع صوت الطلق ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي سمع «جيم» فيها صوت طلقة ، إذ لم يصله صوت طلقة السيد «ترلاوني» لكن لم يعرف أحد منا تماماً أين وقعت القنبلة ، على أني أعتقد أنها مرت من فوق رؤوسنا .

وعلى أي حال ، فإن مؤخر القارب غرق بهدوء في ماء عمقه ثلاثة أقدام ، وكنت أنا والربان متواجهين ونحن واقفان على أرجلنا ، وأمّا الثلاثة الباقون فقد انغمسوا في الماء وخرجوا منه والماء يقطر من ملابسهم .

إلى هنا لم يكن قد لحق بنا أي ضرر بليغ حيث لم نفقد أرواحاً ، وأمكننا أن نخوض إلى الشاطئ سالمين ، إلاّ أن جميع ما كان معنا من المؤن قد غاص إلى قاع البحر . وقد زاد الطين بلة أن بندقيتين فقط من خمس بقيتا في حالة صالحة للعمل ، أمّا بندقيتي فقد أخرجتها من تحت ركبتي ، ورفعتها فوق رأسي ، وأمّا الربان فكان يحمل بندقيته على كتفه وهو يسير جاعلاً الزناد إلى الجهة العليا كما يفعل

الرجل العاقل ، وقد استقرت البندقيات الثلاث الباقية في قاع اليم مع القارب .

إضافة إلى ذلك أننا سمعنا أصواتاً تقترب منا في وسط الغابة على الشاطئ ، فلم نكن معرضين فقط لأن ينقطع اتصالنا بالدريئة ونحن في هذه الحالة السيئة ، بل كان ما نخشاه هو أن يكون عند «هنتر» و«جويس» من حصافة الرأي إذا هاجمهما ستة رجال أن يدافعا بثبات . أمّا «هنتر» فقد كان ثابتاً كما نعلم ، وأمّا جويس فكان مشكوكاً في حاله إذ كان لطيفاً مؤدباً يصلح أن يكون تابعاً لإنسان ينظف ملابسه ولكن لا يصلح مطلقاً ليكون محارباً .

وبينما كان يجول كل ذلك في خاطرنا خضنا إلى الشاطئ بأسرع ما يمكن تاركين «القارب السعيد» وأكثر من نصف البارود خلفنا .

- ١٨ -

الطبيب يستأنف الرواية: آخر معارك اليوم الأول

عبرنا بأسرع ما يمكن الجزء الذي يفصلنا عن الرديئة من الغابة، وفي كل خطوة كنا نخطوها كانت أصوات القراصنة تقترب منا، وبعد مدة قصيرة أصبحنا نسمع وقع أقدامهم وهم يركضون، وصوت طقطقة الأغصان كلما اقتحموا جزءاً كثيفاً من الغابة.

وساورني الشك من احتمال عدم احتكاكنا ببعضنا، ونظرت إلى زناد بندقيتي، وقلت للربان: «أيها الربان، إن طلقة «ترلاوني» مميتة فأعطه بندقيتك لأن بندقيته غير صالحة».

فتبادلا حينذاك البندقيتين، ثم وقف «ترلاوني» برهة وهو ساكن ومستمر في بروده، كما كان منذ ابتداء الرحلة، وهو يمتحن صلاحية البندقية للاستعمال. وفي الوقت ذاته حين رأيت «غراي» دون سلاح أعطيته سيف البحار. وقد انشرحت صدورنا جميعاً عندما رأينا «غراي» يبصق في يده ويقطب جبينه ويطوّح بنصل خنجره في الهواء، فقد أظهر بحركاته البهلوانية أنه يستحق طعامه.

ولـمّا سرنا أربعين خطوة بعد ذلك وصلنا إلى طرف الغابة وشاهدنا الدريئة أمامنا، وقد وصلنا إلى منتصف السياج الجنوبي، وفي الوقت نفسه تقريباً ظهر سبعة من الثائرين، وعلى رأسهم «أندرسن» رئيس البحارة وقد علا صراخهم من جهة الزاوية الجنوبية الغربية.

وقفوا مشدوهين برهة كأنهم أخذوا على حين غرة. وقبل أن يتنبّهوا من اضطرابهم، كنت أنا والسيد نطلق النار عليهم، وشاركنا

في ذلك «هنتر» و«جويس» . على أن الطلقات الأربع كانت مبعثرة ، إلا أنها كانت مجدية فقد وقع واحد من الأعداء ، وولى الباقون الأدبار ودخلوا الغابة .

وبعد أن حشونا بنادقنا ثانية سرنا إلى خارج السياج لنرى العدو الذي وقع ، فوجدناه ميتاً لا حراك فيه وقد أصيب في قلبه .

فانشرحت قلوبنا لهذا النصر ، ثم سمعنا في الحال صوت طاق مسدس داخل الأجمة ، وقد مرت بجانب أذني رصاصة أودت بحياة «توم ردرث» المسكين الذي خرّ صريعاً على الأرض ، فرددنا عليهم أنا والسيد بإطلاق الرصاص ، ولكن لم يكن أمامنا أشباح نصوب إليها الطلقات ، فربما كان ذلك إسرافاً فقط في البارود ، ثم لقمنا البنادق والتفتنا إلى «توم» المسكين .

كان الربان و«غراي» في أثناء ذلك يفحصانه ولكني بطرفة عين تأكدت من وفاته .

وقد كان لسرعة ردّنا على الثائرين بإطلاق الرصاص عليهم أن تفرّقوا مرة أخرى ، وتمكنا من حمل «توم» وإدخاله من فوق السياج حتى أدخلناه الدريئة دون أن يلحقنا أي أذى .

ثم قال الربّان للسيد «ترلاوني» وهو يصافحه : «هوّن على نفسك فقد حصل له خير فلا خوف على الرجل الذي يموت وهو يؤدي واجبه نحو ربانه وسيده . فربما كان هذا الكلام لا يدل على الورع إلاّ أنه حقيقة واقعة» .

ثم أخذني جانباً وقال : «أيها الطبيب «ليفزي» كم أسبوعاً تنتظر إلى أن تعود أنت والسيد؟» .

فقلت له إنها ليست مسألة أسابيع بل أشهر ، وإنه إذا لم نعد في آخر شهر آب/ أغسطس فإن «بلاندلي» سيرسل وراءنا يبحث عنا ،

لذا اعمل حسابك ، ليس من بحث عنا قبل هذا الموعد .

ثم سألته : «ماذا تقصد بسؤالك؟» .

فأجاب الريان قائلاً : «إني آسف على فقدنا حمل القارب في المرة الثانية ، هذا ما أقصد ، فأمّا من جهة البارود والرصاص فعندنا الكفاية منهما ، وأمّا الطعام فإنه قليل ـ إنه لقليل أيها الطبيب «ليفزي» حتى إنه لمن حسن الحظ أن مات أحد أعدائنا» .

وأشار إلى الجثة الهامدة تحت الراية .

وفي هذه اللحظة مرت قذيفة كروية فوق سقف البيت الخشبي بعيداً عنا داخل الأجمة وكان يصحبها زئير وصلصلة في مرورها .

فقال الريان : «نعم ! أطلقوا عليهم الرصاص يا أولادي فإن عندكم كفاية من البارود» .

وفي الدفعة الثانية كان التصويب أحكم وسقطت القذيفة داخل الدريئة فأثارت سحاباً من الرمل ولم يحدث ضرر آخر .

فقال السيد : «أيها الريان ، إن البيت لا يرى من السفينة . فلا بد أن يكون تصويبهم على الراية فهلاّ يكون من الصواب إنزالها؟» .

فأجاب الريان بصوت عال : «أأنزل رايتي ! لا يا سيدي لست أنا الذي أفعل ذلك» . وبعد أن تفوه بهذه الكلمات وافقناه جميعاً على رأيه ، فلم تكن هذه سياسة رشيدة منه خليقة برجال البحر وتدل على الإحساس الشريف فقط ، بل أظهرت لأعدائنا مبلغ احتقارنا لقنابلهم .

واستمر إمطارنا بقذائف مدافعهم طول المساء ، فكانت القنابل تسقط قبل أن تصل إلينا أو تتجاوزنا بعيداً أو تسقط في الرمل داخل الدريئة ، إلاّ أنهم صاروا يصوبون مدفعهم مرتفعاً ، فتسقط القنبلة باردة وتنغمس في الرمل الناعم ، وكنا نخشى أثر اصطدام القنابل بشيء صلب ، حتى إن واحدة منها دخلت إلينا من السقف ثم

خرجت من أرضية البيت ، فاعتدنا ذلك النوع من اللعب الشبيه بلعب الخيل وما كنا نعيرها اهتماماً أكثر مما كنا نعير كرة الكريكيت .

والذي لحظه الربان «أن شيئاً واحداً ذا قيمة ربما نتج عن ذلك ، وهو أن الغابة التي أمامنا ربما تكون قد خلت من الناس ، وأن الماء قد تراجع بسبب الجزر ، فيجب أن نكشف عن مؤونتنا وليذهب متطوعون لجلب لحم الخنزير المملح» .

وكان «غراي» و«هنتر» أول من استجابا للدعوة ، فخرجا من الدريئة مسلحين ، إلاّ أن التجربة لم تكن ذات جدوى ، فقد كان الثائرون أجرأ مما كنا نظنهم ، أو أنهم كانوا واثقين من مدفعية «هاندز» ، فإن أربعة أو خمسة منهم كانوا منهمكين في حمل المؤن وهم يخرجون بها حتى يصلوا إلى أحد القاربين الذي كان قريباً منهم ، وقد أرسوه في الماء رغم التيار بوساطة التجذيف . وكان «سلفر» يقوده وهو جالس في مؤخره ، وكل واحد منهم مزود ببندقية أتوا بها من مخزن سري لم يعلم مكانه سواهم .

ثم جلس الربان إلى سجل الرحلة ، وابتدأ تدوين التالي :

«ألكسندر سمولت رئيساً . دافيد ليفزي طبيب السفينة . أبراهام غراي النجار الرفيق . جون ترلاوني مالك السفينة . جون هنتر وريتشارد جويس خادما صاحب السفينة ، وهما من رجال البر ـ وهؤلاء هم جميع من بقي من بحارة السفينة شركاء ـ ومعهم مؤنة عشرة أيام جراية دون إسراف ، وقد وصلوا إلى الشاطئ اليوم ورفعوا الراية البريطانية على البيت الخشبي في جزيرة الكنز . وقد قتل الثوار «توماس ردرث» خادم صاحب المركب وهو بحار قليل الدربة وجيمس هوكنز صبي الكابتن» .

فسمعت نداء من جهة البر .

فقال «هنتر» الذي كان يؤدي الحراسة وقتئذ : «البعض ينادينا» .

فكان الصوت ينادي : «أيها السيد ! أيها الربان ! مرحى . هل أنت هنتر؟» .

فعدوت نحو الباب فرأيت «جيم هوكنز» سالماً وبصحة جيدة وهو آت يتسلق الدريئة .

- ١٩ -
جيم هوكنز يتابع الرواية

حين رأى «بن غن» الراية توقف واستوقفني قابضاً على ذراعي ثم جلس ، وقال : «الآن قد وصلنا وهناك أصحابك دون شك» .

فأجبته : «إني أرجح جداً أن يكون الثائرون هناك» .

فصاح : «هكذا ! لِمَ لا أعتقد ذلك ، لأن المكان الذي يحل به القرصان لا بد أن يرفعَ عليه «سلفر» الراية السوداء أيضاً ، وأظن أن النصر كان في جانب رفاقك ، وها هم قد استحوذوا على البيت المحصن العتيق على الشاطئ الذي بناه «فلنت» من مدة طويلة جداً ، فقد كان رجلاً ذا رأس كبيرة ، وقد كان كذلك لا ند له في شجاعته دون أن يتعاطى الروم فما كان ليخشى أحداً ، وما كان هذا دأبه ، إلا أن «سلفر» كان ذلك الرجل» .

فقلت : «حسن ، ربما كان الأمر كذلك ، وكل هذا يوجب عليّ أن أسرع في الانضمام إلى رفاقي» .

فأجاب : «كلاً يا صاح ، لست فاعلاً ذلك ، فإنك صبي طيب ، فإمّا أن أكون قد أخطأت النظر إليك أو تكون صبياً بصريح العبارة . والآن «بن غن» يطلق لقدميه العنان ، وإني لا أعود حتى لو شملتني نشوة الروم ، في ذلك المكان الذي أنت ذاهب إليه ـ ليس الروم بفاعل ذلك بي ، حتى أرى السيد النبيل وآخذ منه وعداً بشرفه ، وأرجو ألا تنسى كلماتي ، إنه لمنظر جميل (هذا كل ما تقول) وإنه منظر جميل وزيادة في الثقة ـ ثم اقرصه» .

ثم قرصني للمرة الثالثة بخفة ورشاقة ، وقال :

«إذا أردت بن غن فأنت تعرف أين تجده يا جيم حيث وجدته اليوم تماماً ، وعلى الشخص الذي يأتي أن يكون حاملاً شيئاً أبيض في يده ، وأن يأتي وحده ! ثم تقول هذا : بن غن له عقلية خاصة به» .

فقلت : «حسن ، أعتقد أني فهمت ما أردت قوله ، فأنت تريد أن تقترح شيئاً وأن تفضي به إلى السيد أو الطبيب ، وأنك توجد حيث وجدتك اليوم ، هل هذا كل ما تريد؟» .

فأضاف قائلاً : «وإذا سألت متى يكون الموعد ، فإنه يكون وقت الظهر حتى يدق الجرس ستاً» .

فقلت : «حسن هل أذهب الآن؟» .

فقال بشغف : «لن تنسى المنظر الجميل ، له عقلية خاصة به ، له عقلية خاصة ، هذا هو المهم وهذه تختلف باختلاف الناس . حسن أظن أنه يمكنك الذهاب الآن يا جيم» قال هذا وهو قابض على يدي . «وأظنك يا جيم إذا رأيت «سلفر» لست ببائع بن غن له؟» .

وقطع علينا الحديث صوت قنبلة أتت تمزق الهواء مارة بأشجار الأجمة ثم استقرت في الرمل على مسافة لا تبلغ المائة ياردة من المكان الذي نتحادث فيه ، وبعد لحظة ولى كل منا في اتجاه .

ثم استمرت القنابل تسقط مدة ساعة تماماً ، وقد هزت أصواتها أركان الجزيرة ، كنت تسمع في أثنائها أزيز اختراقها الأشجار ، وكنت أنتقل من مخبإ إلى آخر والسهام المزعجة تتبعني أو عى الأقل خيل إلي ذلك ، إلاّ أنه عند نهاية إطلاق القنابل عاودني ذلك نوعاً ما ، مع أني لم أجرؤ على أن أسير في اتجاه الحصن حيث كانت القنابل تتساقط أكثر من الجهات الأخرى ؛ ثم زحفت بين الأشجار التي على الشاطئ بعد أن سرت طويلاً متجهاً إلى الشرق .

كانت الشمس قد غابت ، وأخذ نسيم البحر يتحرك ، ويهز الأشجار في الغابات ، ويموج سطح الماء داخل المرفإ ، وقد كشف الجزر عن متسع عظيم من الرمال ، وتغير الهواء بعد السخونة طول النهار إلى برودة جعلتني أشعر بها وهي تتخلل معطفي .

والهسپنيولا ما برحت راسية حيث كانت ، ولكن بكل تأكيد كانت الراية السوداء - راية لصوص البحر - تخفق على شراعها . وبينما أنا أرنو إليها إذ بَصرت ضوءاً ، ثم سمعت طلقاً دوى صداه في الفضاء ، ثم تبعته قنبلة مضت تصفر في الهواء ، وقد كان ذلك آخر إطلاق القنابل .

وانبطحت هنيهة أرقب الموقعة التي تعقب ذلك ، فرأيت رجالاً يهشمون جسماً بمعاولهم على الشاطئ بالقرب من الدريئة ، وقد عرفت أن ذلك الجسم الذي يُهشَّم إنما هو «القارب السعيد» وكانت النار تشتعل على بعد عند مصب النهر بين الأشجار ، وكان أحد قاربي اللصوص مستمراً في جريه جيئة وذهاباً بين هذه النقطة والسفينة ، وكان الرجال الذين رأيتهم قبل ذلك متجهمين ، قد جعلوا يصيحون كالأطفال وهم يجذفون ، إلاّ أن نبرات أصواتهم كانت تنبئ عن سكرهم .

وأخيراً خطر لي الرجوع نحو الدريئة وكنت في الجهة السفلى من اللسان الرملي الذي يسد الميناء من الجهة الشرقية ، ويتصل بجزيرة الهيكل العظمي بجزء من الأرض يعلوه مقدار قليل من الماء ، وعندما انتصبت قائماً على قدميّ رأيت من بُعد تحت اللسان صخرة منفردة مائلة إلى الارتفاع على بعد مني ، تظهر عالية من بين الأعشاب التي حولها ، ذات لون أبيض ناصع ؛ فخطر لي أنها الصخرة البيضاء التي ذكرها «بن غن» ، وأنه ربما احتجنا يوماً من الأيام إلى قاربه ، فينبغي

لي أن أعرف أين أجده .

ثم بعد ذلك انطلقت أسير على حافة الغابة حتى وصلت خلف الدريئة أو الجهة التي تلي الشاطئ حيث قابلني عند ذلك رفاقي ورحبّوا بي .

وما كدت أستقر حتى قصصت عليهم حكايتي .

*

كان نسيم الليل الذي ذكرته قبل الآن يصفر باستمرار متخلّلاً فتحات الدريئة ، ويعطرنا وابلاً من ذرات الرمل ، فقد كنا نجد الرمل في أعيننا وبين أسناننا وفي طعامنا ، وكان دائم الحركة في القعر عند العصيدة وهي تغلي ، وأمّا مدخنتنا فكانت عبارة عن ثقب مربع في السقف ، وما كان يتسرب منها إلى الخارج إلاّ قليل من الدخان والباقي كان يدور داخل المنزل ، فيسبب لنا السعال ويجعل أعيننا تدمع .

أضف إلى ذلك أن «غراي» ، وهو الرجل الذي انضم إلينا حديثاً ، كان الرباط ما زال على جبينه من أثر الجرح الذي ألم به عندما كان يحاول التخلص من الثائرين ، وما برحت رفات «توم ردرث» من غير دفن بجوار الحائط وهي هامدة بلا حراك تحت العلم البريطاني .

ولو أننا تُركنا وشأننا بلا عمل ، لحال الفكر في حالتنا السيئة بيننا وبين مشاعرنا ، ولكن الربان «سمولت» لم يكن الرجل الذي يدعنا نفعل ذلك ، فقد طلبنا جميعاً للحضور أمامه وقسّمنا إلى مجموعات . فشكّل من الطبيب و«غراي» ومني مجموعة ، ومجموعة أخرى من السيد «ترلاوني» و«هنتر» و«جويس» ؛ وعلى الرغم من شدة تعبنا ، فقد أرسل اثنين منا لجلب الحطب ، وأمر آخرين بحفر قبر

لدفن «ردرث» ، وعين الطبيب طاهياً ، وعُينت أنا حارساً على الباب ، بينما كان الربان نفسه يذهب من مكان إلى آخر مشجعاً كل واحد منا ومساعداً من يحتاج إلى المساعدة .

وكان الطبيب يتقدّم من الباب من آن إلى آخر ليستنشق الهواء ويريح عينيه من الدخان الذي كان يجعلهما تجحظان من رأسه ، وكان كلما فعل ذلك كلما تكلم معي قليلاً .

فقال مرة : «إني لأفضل ذلك الرجل «سمولت» على نفسي ، وإن لقولي هذا معنى كبيراً يا جيم» .

ثم أتى مرة أخرى واستمر صامتاً برهة من الزمن ثم التفت إليّ وسألني :

«هل بن غن هذا إنسان؟» .

فأجبته قائلاً : «لا أعرف يا سيدي وإني غير متأكد من سلامة عقله» .

فقال الطبيب : «إذا كان في الأمر شك فهو عاقل ، فإن رجلاً يعيش ثلاث سنوات في جزيرة خالية من السكان ، يقضم أظفاره بأسنانه ، لا ينتظر منه أن يكون في مظهره كالعقلاء مثلي ومثلك ، فإن هذا ليس طبيعياً ! وهل كان الجبن كل مشتهاه؟» .

ثم قال : «حسن يا جيم» انظر فائدة الطعام الجيّد ، فهل رأيت علبة السعوط؟ إنك لم ترني مرة أستنشق منها ، والسبب في ذلك أني وضعت فيها قطعة من جبن بارما ، وهو جبن لذيذ شديد التغذية ، بيد أنني معطٍ هذه القطعة لبن غن» .

وقد دفنا قبل العشاء رفات «توم» العجوز في الرمل ووقفنا حولها برهة عراة الرؤوس في الهواء ، كما احتطبنا مقداراً كبيراً ، إلاّ أنه لم

يكن كافياً في نظر الربان ، فقد هز رأسه وقال لنا أن نعاود الكرة باكراً بهمة أكبر ، ثم أخذ الرؤساء الثلاثة ركناً من المكان يتباحثون في أحوالنا .

ويظهر أن مسألة قلة المخزون لدينا من المؤونة أخذت الحيز الأكبر من حديثهم ، فقد كاد الجوع يدفعنا إلى التسليم قبل أن يصلنا إمداد ، فكان خير أمل لدينا كما تقرّر هو أن نقاتل اللصوص حتى ينزعوا علمهم من فوق السفينة أو يقلعوا بالهسپنيولا ، وقد نزل عددهم الآن من تسعة عشر إلى خمسة عشر منهم اثنان مجروحان ، وأحدهما الذي أصيب بجوار المدفع ، وقد أصيب بجرح بليغ إن لم يكن قد مات ، فكان يتحتم علينا أن ننتهز كل مناسبة للاشتباك معهم ، محافظين على أرواحنا بقدر المستطاع . ولنا غير ذلك حليفان من الروم والجو .

فأمّا من جهة الأول فإننا كنا نسمع صراخهم وهم يغنون في وسط الليل وآخره وهم على بعد نصف ميل منا تقريباً ، وأمّا بالنسبة إلى الثاني فإن الطبيب تحدانا مقسماً بشرفه أن بقاءهم حيث هم في المستنقع لا بد أن يفقدهم نصف عددهم في أقل من أسبوع واحد ، ولا سيما أنهم لا يحملون معهم عقاقير .

ثم استدرك قائلاً : «هذا إذا لم يتغلبوا علينا بالقتال أولاً ، فإنهم يسرون جداً إذا انفكوا مقلعين بالمركب ، حيث لا ينقصهم للرجوع إلى القرصنة إلاّ ظفرهم بسفينة» .

فقال الربان «سمولت» : «إنه أول مركب أفقده» .

وكنت متعباً جداً ، ولما رقدت لأنام صرت أتقلّب كثيراً حتى غلبني النعاس فنمت كقطعة من الخشب دون حراك .

وقد استيقظ الباقون من النوم مبكرين ، وبعد أن أفطروا زادوا في الحطب نحو النصف عما كان بالأمس ، ثم استيقظت بعد ذلك لسماع حركة وضوضاء .

سمعت شخصاً يقول بصوت عال : «علم الهدنة !» .

ثم سمعت بعد ذلك مباشرة صوتاً مستغرباً يقول إنه «سلفر» نفسه !

وعلى هذا انتصبت قائماً وأسرعت إلى ثقب في الحائط وأنا أمسح عيني لأنظر .

- ٢٠ -

راية سلفر

اتضح لي جلياً أن رجلين يقفان بجوار الدريئة من الخلف ، وكان أحدهما يلوح بقطعة من القماش الأبيض ، وأما الآخر فكان «سلفر» نفسه واقفاً بسكون بجانب صاحبه .

كان ذلك في ساعة مبكرة من صباح يوم اشتدت فيه البرودة بحيث لم أشعر بمثلها من قبل ، فقد وصل أثر الصقيع إلى نِقي عظامي ، وكانت السماء فوق رؤوسنا صافية ولا سحاب يحجمها عنا ، وقد انعكس شعاع الشمس على أطراف الأشجار فجعلها تتألق بلون وردي جميل . وأمّا المكان الذي كان «سلفر» واقفاً فيه مع مساعده فكان لا يزال في الظل ، وكان وصاحبه يخوضان إلى الركب في بخار أبيض من ضباب منخفض تسرب ليلاً من المستنقع ، وقد كان القر والبخار يدلان دلالة واضحة على سوء المناخ الذي يسود الجزيرة ، فقد كانت بالاختصار بقعة رطبة كثيرة الحمى .

قال الربان : «استقروا داخل البيت أيها الرجال ، فإنها خدعة بنسبة عشرة لواحد» .

ثم نادى القرصان قائلاً : «من يتقدّم هناك؟ قف أو نطلق النار» .

فأجاب «سلفر» بصوت عال : «علم الهدنة» .

وكان الربان واقفاً في الرواق حذراً من طلقة يراد بها الغدر ، ثم اتجه إلينا وقال :

«مجموعة الطبيب ، كونوا على حذر في مراقبتكم ، وأنت أيها الطبيب أرجو أن تكون في جهة الشمال ، وأنت يا «جيم» في الجهة

الشرقية ، وأنت يا «غراي» في الجهة الغربية ، وأمّا أنتم يا رجال المجموعة الثانية فلتعدوا البنادق وتحشوها ؛ كونوا نشطين ومحترسين أيها الرجال» .

ثم التفت نحو القرصان ثانياً وقال : «وماذا تبغون بعلم الهدنة؟» .

وفي هذه المرة أجاب الرجل الآخر بصوت عالٍ قائلاً : «إنه القبطان «سلفر» يا سيدي أتى ليفاوضكم» .

فقال الربان : «القبطان «سلفر» ! لا أعرفه ، من هو؟» . وسمعناه يقول لنفسه بصوت منخفض : «هل هو قبطان؟ يا الله وهذه ترقية أخرى !» .

فأجاب «جون سلفر» الطويل بنفسه :

«أنا يا سيدي ، وقد اختارني هؤلاء الفتية قبطاناً بعد أن تركتم السفينة ـ وكان ينطق كلمة تركتم بشدة ـ ونحن مستعدون أن نسلّم إذا أُعطينا شروطاً لا بأس بها . وكل ما أريده هو كلمة منك يا كابتن «سمولت» في أن تسمح لي بالدخول والخروج من الدريئة سالماً معافىً ، وتمهلني دقيقة حتى أبتعد بقدر مسافة الطلقة قبل إطلاق النار» .

فقال الكابتن سمولت : «يا «سلفر» ليس لي مصلحة في حديثك ، ولكن إن كنت تريد أن تكلمنا فيمكنك المجيء وهذا كل شيء ، فإذا كانت مبادرتكم خيانة فتكون من جانبكم وليساعدكم الله» .

فصاح «جون» الطويل وهو مسرور قائلاً : «إن في هذا لكفاية أيها القبطان فإن كلمة منك تكفي . . فأنا أعرف الرجل النبيل ولا ريب» .

وكنا نرى الرجل الذي يحمل الراية وهو يحاول أن يثني «سلفر» عن عزمه ، ولم يكن هذا مستغرباً إذا نظرنا إلى تصرف القبطان في جوابه الذي يدل على الشهامة المتناهية ، إلاّ أن «سلفر» ضحك منه

بصوت عال ثم لطمه على ظهره كمن يقول إن فكرة الحذر في غير محلها ، ثم تقدم نحو الدريئة وقذف بعصاه إلى الداخل ، ثم رفع ساقه برشاقة ومهارة عظيمتين واقتحم السياج وعبر إلى الجهة الأخرى .

وإني أعترف بأني انشغلت إلى درجة كبيرة بما كان يجري ، حتى صرت عديم الفائدة في مركزي كحارس ، فقد تركت الثغرة التي في الجهة الشرقية فعلاً وزحفت بهدوء خلف القبطان الذي جلس على العتبة متكئاً بذراعيه على ركبتيه ، واضعاً رأسه بين يديه ، محدقاً بعينيه في الماء وهو يتدفق من فُوهة الينبوع الحديدية بين الرمال .

وقد عانى «سلفر» كثيراً حتى تسلق التل ، وبقي حتى وصل إلى التل المنحدر بين دوحات الشجر الكثيفة ، في الرمل الناعم ، وكانت حالته بمكازه أشبه بحال سفينة سكن عنها الريح وهي في وسط البحر . ولكنه استمر في ذلك كرجل وهو صامت حتى وصل أمام القبطان ، فحياه باحترام كبير ، وكان يلبس أحسن ملابسه ، مرتدياً معطفاً أزرق طويلاً سميكاً ذا أزرار نحاسية يصل إلى ركبتيه ، وفوق رأسه قبعة أنيقة موضوعة على مؤخر هامته .

قال القبطان رافعاً رأسه : ««ها أنت قد وصلت ، يحسن بك الجلوس» .

فقال جون الطويل مشتكياً : «لمَ لا تسمح لي بالدخول؟ إنه نهار شديد البرد ولا يُستحسن الجلوس في الخارج فوق الرمل!» .

فقال القبطان : «لماذا يا «سلفر»؟ إذا كنت فضلت أن تبقى رجلاً أميناً لكنت بقيت فوق سفينتك ، فإن هذا من فعلك ، ولولا ذلك لبقيت طاهي سفينتي ولقيت معاملة لطيفة ، بدلاً من أن تكون القبطان «سلفر» لص البحر المعتاد الثائر ، وبذلك تستحق الشنق» .

فأجاب الطاهي بعد أن جلس كما أمر : «حسن ، أرجو أن تمد إليّ يدك ثانية ، وهذا كل ما أريد ، وما أروع وأجمل هذا المكان الذي أنتم فيه ، آه ! وهذا «جيم» أرجو لك أحسن الأوقات ، وإني تحت تصرفك أيها الطبيب . هذا وإني أراكم مجتمعين كأنكم أسرة سعيدة كما ينبغي» .

فقال «سمولت» : «إذا كان عندك شيء تريد أن تقوله فقله يا رجل» .

فأجاب «سلفر» قائلاً : «إنك مصيب أيها الكابتن «سمولت» فإن الواجب هو الواجب بالتأكيد ، حسن ، والآن إني مخبرك أن عملكم البارحة كان في غاية الإحكام ، ولا أنكر أنه كان متقناً . إن بعض رجالكم يحكمون تصويب السهام ، وإني لا أنكر أيضاً أنّ بعض رجالي أثر فيهم ذلك ، وربما يكونون قد اضطربوا جميعاً ، وقد أكون نفسي اضطربت ، وربما يكون هذا هو سبب مجيئي إلى هنا للمفاوضة ، ولكن اعلم أيها الكابتن أن هذا لا يحصل مرتين ! فلنحسن طريقة الحراسة ولنتعاون على ذلك بشرب الروم ، وأظن أنه يخيل إليكم أن الخمر لعبت بنا ، كلاّ ، فإني أخبرك أني كنت صاحياً ، إلا أني كنت متعباً للغاية ، ولو أنني تمكنت من الاستيقاظ دقيقة قبل ذلك لكنت أجهزت عليكم» .

فقال «سمولت» ببرودة : «حسن !» .

فقد كان كل ما قاله «سلفر» لغزاً له ، وما كان ليمكنك أن تظن ذلك في حديثه . وأمّا أنا فابتدأت أوجس خيفة ، وقد خطرت بذهني آخر كلمات «بن غن» ، وابتدأت أظن أنه زار اللصوص حيث سكروا جميعاً حول النار ، ثم انشرح صدري وأنا أفكر مليّاً أن أمامنا أربعة عشر رجلاً من العدو فقط .

قال «سلفر» : «حسن ، هذه هي طلباتنا ، فإننا نبغي الكنز وسنأخذه ، وهذا بيت القصيد ! عليكم المحافظة على حياتكم ، وهذا شيء أكيد لكم ولا أشك أن الخريطة بحوزتكم أليس كذلك؟» .

فأجاب القبطان قائلاً : «ربما كان ذلك» .

فردّ عليه «جون» قائلاً : «آه ، حسن ، إنها عندكم ، إني موقن بذلك . لا ينبغي لكم أن تكونوا جشعين مع إنسان ، فليس في ذلك ذرة من الفائدة لكم وثقوا بذلك . وكل ما أريد هو الرسم البياني الذي عندكم ، وإني ما أردت بكم سوءاً مطلقاً» .

فقاطعه «سمولت» قائلاً : «إن هذا غير مجد معي يا رجل ، وإننا نعرف بالضبط ما قصدتم عمله ، ونحن لا نعير ذلك اهتمامنا ، وتحقق من الآن أنكم لن تستطيعوا إلى ذلك سبيلاً» .

ثم نظر إليه شَذراً وبهدوء وأخذ يملأ غليونه بالتبغ .

وصاح «سلفر» قائلاً : «إذا كان أبراهام غراي . . .» .

فقاطعه «سمولت» بصوت عال قائلاً : «كف عن هذا ، إن «غراي» لم يفض إليّ بشيء ، وأزيدك قولاً إني أود أن أراك أنت وهو وجميع مَن في الجزيرة تنسفون من فوق الماء وهذا هو رأيي في ذلك» .

وبعد هذا الانفعال البسيط ابتدأ «سلفر» يقلّل من غلوائه ، وكان مرجله قد غلى قبل ذلك ولكنه خمد الآن .

وقال : «يكفي هذا ، فليس بين السادة الأفاضل موافق أو غير موافق كما يقتضي الحال ، وحيث أني أراك تملأ غليونك بالتبغ يا كابتن ، فإني رافع الكلفة وناهج نهجك» .

ثم ملأ غليونه وأشعله ، فجلس الرجلان يدخنان غليونيهما وهما ساكنان فترة من الزمن ، وتارة كان يحملق الواحد منهما في وجه

الآخر ، وتارة يضغطان على التبغ ، وطوراً ينحني الواحد منهما إلى الأمام ليبصق .

ثم استأنف «سلفر» كلامه قائلاً : «والآن ، هذا هو هدفنا ، إننا نريد الرسم البياني حتى نحصل على الكنز ، ثم فلتتركوا اصطياد البحارة الذين لا حول لهم ولا قوة ودعوا إصابتهم في رؤوسهم وهم نائمون ، فإذا قبلتم ذلك فأنا مخيركم بين أمرين ، إمّا أن نحملكم معنا على متن السفينة بعد أن نكون قد شحنا الكنز ، وفي هذه الحال أعطيكم ميثاقاً بكلمة شرف أو أوصلكم سالمين إلى شاطئ أحد البلدان ، وإمّا إذا لم تقبلوا هذا فإن بعض رجالي ذوو طباع خشنة ولهم ثأر عندكم ويريدون شفاء غليلهم منكم لما استعملتموه معهم من القسوة ، فعلى ذلك يمكنكم الإقامة في هذا المكان ، ثم إننا نقسم المؤن بنسبة عدد الرجال ، وإني معطيكم عهدي وميثاقي لما قلت أولاً بأن أرسل لكم أول سفينة أبصرها تمر لتحملكم . ويجب أن تعتبروا أن هذا الحديث جدي ، وما أظن أنكم تنالون خيراً منه ، وإني لأرجو ـ وهنا رفع صوته ـ جميع الرجال الذين في هذا البيت المحصن أن يسمعوا حديثي ، فإن الكلام وأن خوطب به شخص واحد فإنه يسري على الجميع» .

فقام الكابتن «سمولت» من مقعده وصار يضرب غليونه براحة كفه اليسرى لينزل منه رماد التبغ ، وقال : «هل هذا كل ما تريد أن تقول؟» .

فأجاب «جون» : «إن هذه لآخر كلمة نقولها ، فإذا لم تقبلوا هذا فلن نلاقيكم إلاّ برصاص بنادقنا ، فقد سمعتم آخر كلمة عندنا» .

فقال «سمولت» : «حسن جداً ، أصغ الآن لما أقول ، إذا أتيتم إلينا واحداً واحداً فإني مغلغلكم في السلاسل ، وسأحملكم معي إلى إنكلترا لتحاكموا محاكمة عادلة هناك . وإذا لم تفعلوا ذلك فإن اسمي

ألكسندر سمولت وقد رفعت راية ملكي ، وإني لجاعل مقركم قاع البحر ، ولا يمكن أن تجدوا الكنز ، ولا يمكنكم أن تسيّروا السفينة ، ولا تقدروا على محاربتنا ـ وهذا «غراي» قد فك نفسه من خمسة رجال منكم ـ إن سفينتكم قد قيدت بالسلاسل أيها السيد «سلفر» ، فإنكم على شاطئ لا ريح فيه ، وستتحقق من ذلك فيما بعد ، وإني واقف هنا ومخبرك بهذا ؛ هذه آخر كلماتي المفيدة التي يمكنك سماعها مني ، فبالله إني لمجند لك في أول مرة أراك فيها بعد الآن ، فاذهب يا غلامي ، وارحل عن هذا المكان ، وأرجو أن تسرع وأنت واضع يداً فوق أخرى» .

فصار وجه «سلفر» كالصورة في تلونه ، وكانت عيناه تموجان في رأسه من شدة الغضب . وصاح قائلاً : «أعطني يدك حتى أنهض !» .

فأجابه «سمولت» قائلاً : «لست فاعلاً ذلك» .

فصاح : «من يمدّ إليّ يده لأستعين بها على القيام؟» .

فلم يتحرك أحد منا ، فزحف على الرمل وهو يلعننا حتى وصل إلى المدخل فاستند إليه وانتصب قائماً متكئاً على عكازه ، ثم بصق في الينبوع وصاح بصوت عال قائلاً :

«ذاك ما أعتقده فيكم ، وقبل أن تمضي ساعة سأصليكم ناراً حامية وأنتم في بيتكم المحصن ، فاضحكوا بالله عليكم اضحكوا ! فإنه قبل مضي ساعة ستضحكون ، ستضحكون من الجهة الأخرى ، فسيكون أسعدكم حظاً من يموت» .

وبينما هو ذاهب يتعثر في مشيته وينكث الأرض بعكازه جعل يشتم شتماً قبيحاً ، ثم ساعده الرجل الذي يحمل علم الهدنة على اقتحام سور الدريئة بعد أن خاب مراراً وهو يعالج ذلك ، ثم غابا في الحال داخل أشجار الغابة .

- ٢١ -

المعركة

بعد أن ولّى «سلفر» اتجه الكابتن الذي كان يراقبه جيداً إلى داخل البيت فلم يجد أحداً منا في موضعه إلاّ «غراي»، وكانت تلك هي المرة الأولى التي رأيناه فيها غاضباً متوتّراً.

فنادى فينا قائلاً: «ليلزم كل مكانه». ولـمّا رجع كل منا إلى موضعه قال: «يا غراي، إني سأدون اسمك في السجل تنويهاً بأدائك فقد وقفت كما يقضي عليك الواجب كالبحار النظامي، وأنت يا سيد «ترولاني» أعجب جداً لسلوكك، وأنت أيها الطبيب كنت أظنك ارتديت سترة الملك! فهل كان سلوكك في موقعة «فونتنوي» على هذا النحو؟ فإذا كان الأمر كذلك فالأفضل أن تستريح».

ثم وقف أفراد مجموعة الطبيب جميعاً في أماكنهم عند الفتحات، وكان الباقون مشتغلين في تلقيم البنادق الفائضة، وكان احمرار الوجه يعلو وجوه الجميع وكأن في أذن كل واحد منهم برغوثاً.

ثم حملق الكابتن برهة وهو صامت ثم تكلم قائلاً:

«يا سادة، إني قد صوبت إلى «سلفر» جميع السهام، وأشعلت فيه النار، وهذا ما أردته، وإني لموقن أنه قبل مضي ساعة سيهاجمنا برجاله كما قال، وإنهم يزيدون علينا عدداً، ولا داعي لأن أذكر لكم هذا، ولكننا نمتاز عنهم بأننا نحارب تحت حماية. ومنذ دقيقة كنت أقول بأننا حاربنا بنظام تام. ولست أشك في أن النصر سيكون حليفنا».

ثم مشى حول المكان يتفقد الأحوال وهو يقول: «إنّ كل الأمور

سائرة بانتظام» .

وكان في الجهتين المتقابلتين من البيت شرقاً وغرباً فتحتان فقط ، وفي الجهة الجنوبية التي فيها الباب فتحتان أيضاً ، وفي الجهة البحرية خمس ، وقد كان عندنا نحو عشرين بندقية للسبعة الرجال ، وكان الحطب مكوماً أربع أكوام كالمناضد ، واحدة منها عند منتصف كل ضلع تقريباً ، وقد وضع على كل منضدة من هذه مقدار من الذخيرة وأربع بنادق محشوة معدة لمناولتها للمدافعين ، وفي الوسط سيوف البحارة .

ثم قال الكابتن : «أطفئوا النار فقد ذهب البرد ولا يستحسن ترك الدخان يدخل في أعيننا» .

وعلى ذلك أخرج «ترلاوني» بنفسه موقد النار الحديدي ثم طمس الجمر في الرمل لإطفائه .

واستمر «سمولت» يصدر أوامره قائلاً : «إن «هوكنز» لم يفطر بعد ، فاذهب يا «هوكنز» لتفطر ثم عد إلى مكانك وكن نشطاً مملوءاً بالحياة يا بني ، فإن ذلك ضروري قبل أن يقتضي الأمر ، وأنت يا «هنتر» مر بالجميع بدور من البراندي» .

وفي أثناء ذلك كان الكابتن قد رتب خطة الدفاع في ذهنه ، ثم قال : «أيها الطبيب أرجوك أن تجعل مكانك عند الباب لترى منه دون أن تعرض نفسك للخطر ، فكن دائماً في الداخل ، وليكن إطلاقك النار من المدخل ، وأنت يا «هنتر» الزم الطرف الشرقي هناك ، وأنت يا «جويس» قف في الجهة الغربية ، أمّا أنت يا سيد «ترلاوني» فإنك أحكم الجميع في إطلاق الرصاص ، فلتكن أنت و«غراي» عند الطرف الشمالي ذي الخمس الفتحات ، فإن الخطر أشد في هذه الجهة ، فإذا تمكنوا من الاقتراب منه أطلقوا النار علينا من منافذها وتصبح حالتنا

سيئة ، وأنت يا «هوكنز» ليس لي ولك أي قيمة تذكر في إطلاق الرصاص ، فلنقف لتعبئة ومساعدة من يحتاج إلى المساعدة» .

وما إن أتمّ الكابتن حديثه حتى انقشع البرد ، ولم تكد الشمس تعلو حزام الأشجار التي كانت تكتنفنا حتى سلطت أشعتها الذهبية على المكان وانقشع الغمام وجف البخار دفعة واحدة ، وسُرعان ما اشتدت الحرارة فصار الرمل محرقاً ، وابتدأ الصمغ يسيل من الكتل الخشبية التي تشكّل البيت المحصن ، فخلعنا المعاطف والأردية ، وفتحنا الجيوب حول الأعناق ، وشمرنا الأكمام عن السواعد ، ووقفنا هناك كل في المكان المعد له ، تتقد قلوبنا حرارة وحميّة .

ومرت بنا ساعة ونحن على ذلك الحال .

فقال الكابتن بتأثر : «قاتلهم الله ، إن هذه الحال تشبه تماماً حالات سكون الهواء في البحر ، فاصفر للريح يا غراي» .

وفي هذه اللحظة تماماً وصلتنا أول أخبار الهجوم ، فقال «جويس» : «أستأذنك يا سيدي ، هل أطلق النار إذا رأيت أحداً؟» .

فأجابه بصوت عال : «هذا ما قلته لك من قبل» .

فأجابه «جويس» بأدب وهدوء كالعادة : «شكراً لك سيدي» .

ثم مضت دقائق ولم يحصل شيء ما جعلنا جميعاً متحفزين مصغين بسمعنا ، ومحدقين ببصرنا ، وقد قبض أصحاب البنادق على أسلحتهم بأيديهم ، بينما كان «سمولت» واقفاً وسط البيت المحصن مطبقاً فاه عابساً بوجهه .

وما هي إلا ثوان قليلة حتى أطلق «جويس» طلقة فجأة ، وقبل أن يذهب صدى طلقته ، تكررت الطلقات من الخارج مراراً ، وتناثر الرصاص ، واحدة بعد الأخرى ، وقد وجهت إلينا من كل صوب ، من أطراف السياج ، فأصابت الحصن عدة طلقات ، ولكن لم تنفذ إليه

واحدة منها ، ولما انكشف الدخان وانقشع الغمام ، ساد الهدوء والسكون حول الدريشة والأشجار المحيطة بها فصارت خالية من المهاجمين كما كانت سابقاً ، فما كان ليتحرك غصن ، ولا يرى ضياء لماسورة بندقية ليدل على وجود أثر للعدو .

ثم سأل الكابتن : «هل أصبت الرجل يا جويس؟» .

فأجابه «جويس» قائلاً : «لا يا سيدي لا أظن ذلك» .

فتمتم «سمولت» : «إن قول الصدق لثانية الفضائل ، املأ بندقيته يا «هوكنز» ، وكم كان عدد الطلقات في وجهتك أيها الطبيب؟» .

فقال الطبيب «ليفزي» : «إني أعرف بالتأكيد أن ثلاث طلقات صويت إلينا من هذه الجهة ، فقد رأيت الضوء ثلاث مرات ، مرتين متقاربتين ، والثالثة تبعد عنهما قليلاً إلى جهة الغرب» .

فقال «سمولت» : «أي ثلاث طلقات ؛ وكم في وجهتك أيها السيد ترلاوني؟» .

هنا لم يكن الجواب سهلاً ، فقد أُطلقت من الشمال سبع على حساب تعداد السيد ، وثمان أو تسع على حساب تعداد «غراي» ؛ ومن الشرق والغرب أطلق عيار واحد فقط ، فكان من الواضح أن استئناف الهجوم سيكون من الجهة الشمالية ؛ وستكون مجرد مناوشة من الجهات الأخرى ، ولكن الكابتن «سمولت» لم يغيّر شيئاً من ترتيبه ، فكانت حجته في ذلك أنه إذا نجح الثائرون في اختراق الدريئة فسيستحوذون على أي فتحة يجدونها غير محمية ويتصيدوننا كالجرذان .

ولم يتركوا لنا الوقت الكافي ، فلم تمض لحظات حتى انقض علينا جماعة القرصان من الغابة التي في الجهة الشمالية ، وركضوا مسرعين نحو الحصن صارخين بصوت عال ، وفي الوقت نفسه صبوا علينا

الرصاص من الغابة ، فدخلت إحدى القذائف من الباب وهشمت بندقية الطبيب قطعاً صغيرة .

وتهافت المتمردون على السياج كالقردة ، وصار السيد و«غراي» يكرران تصويب الطلقات النارية حتى وقع ثلاثة منهم ، أحدهم في الأمام داخل السياج ، والآخران خارجه ؛ ولكن يظن أن واحداً من هذين كان خوفه أكبر من إصابته ، فإنه بعد ذلك فرّ مهرولاً واختفى بين الأشجار .

وقد انكفأ اثنان منهم على وجهيهما ودخل التراب فميهما ، وهرب آخر ، وعبر أربعة منهم سياجنا بينما كان يرى من الملجإ أن سبعة أو ثمانية منهم مجهزون بعدة بنادق وهم مستمرون بإصلاء الحصن ناراً حيث أصابته إلاّ أنها لم تجدهم نفعاً .

وقد كان الأربعة الذين هجموا علينا قد اقتحموا الردهة ووصلوا إلى البيت ، وكانوا يصرخون وهم يركضون ، وكان الرجال الذين بين الأشجار يرددون صدى صوتهم ليشجعوهم ، وقد صُوبت عدة طلقات إليهم ولكنها كانت تطلق على عجل من الرماة ، حتى إنه لم تصب واحدة منها أحداً ، وفي لحظة كان القرصان الأربعة قد عبروا التل وصاروا فوقنا .

ثم أطل البحار «جيب أندرسن» برأسه من وسط الفتحة وكان يصرخ بصوت يشبه الرعد قائلاً : «صوبوا عليهم جميعاً أيها الرجال» .

وفي الوقت نفسه أمسك أحد القرصان بمقدمة بندقية «هنتر» واختطفها من يده وأخذها من الفتحة ، وأهوى عليه بضربة قوية أوقعته فاقد الشعور على الأرض ، بينما كان ثالث يجري دون سلاح حول المنزل ، وظهر عند الباب فجأة وأطاح بسيفه البحري على الطبيب .

وهنا تغيّرت مراكزنا كلية وانعكس الحال ، فمنذ لحظة كنا نطلق ونحن تحت حماية على عدو مستهدف في العراء ، والآن صرنا نحن معرضين بدون حماية ، ولم يكن في وسعنا الرد على أحد منهم .

وقد أصبح البيت الخشبي مملوءاً بالدخان ، وكان ذلك سبباً في نجاحنا النسبي ، فصار يرن في أذنيّ الصراخ الدال على الاضطراب ، وأضاء بريق طلقات المسدسات ، بينما كان يزعجني أنين جريح بصوت عال .

وصاح الكابتن : «اخرجوا وحاربوهم في العراء بسيوف البحر!» .

فتناولت سيفاً من السيوف ، وأخذ شخص آخر سيفاً مثله ، فجرحني عند مفاصل أصابعي جرحاً بليغاً ، فاندفعت إلى الخارج من الباب إلى نور الشمس ، وكان قد رآني شخص بالقرب مني لم أتبيّنه ، وكان أمامي تماماً الطبيب مقتفياً أثر الذي هجم عليه تحت التل ، وعندما وقع عليه بصري كان قد هزم غريمه وأوقعه على ظهره شاجاً وجهه .

ثم صاح الكابتن قائلاً : «انتشروا حول البيت أيها الفتيان» ، وكنت قد أحسست بتغيّر في صوته رغم شدة الحالة التي اختلط فيها الحابل بالنابل .

واندفعت على الفور دون تبصر واتجهت إلى الشرق ، رافعاً سيفي وأنا أعدو حول ركن المنزل ، وفي اللحظة الثانية كنت أمام «أندرسن» وجهاً لوجه ، فصرخ بصوت عال رافعاً سيفه فوق رأسه وهو يتألق ويبرق في ضوء الشمس ، ولم يكن في الوقت متسع للخوف ، ولكن حيث أنّ الضربة كانت مهيّأة للوقوع عليّ قفزت مسرعاً إلى جانب ، فزلقت قدمي في الرمل الناعم فانحدرت إلى جانب التل .

وعندما كنت أعبر الباب ، كان بقية الثائرين قد اقتحموا الحواجز

للقضاء علينا ، وكان على رأس أحدهم قلنسوة حمراء ، وقد تسلق أعلى الردهة وقذف بإحدى رجليه إلى الداخل واضعاً سيفه في فيه . هذا وكانت الفترة قصيرة حتى إني عندما انتصبت على قدميّ ثانية كان كل واحد في الموضع الذي رأيته فيه ، فكان الشخص الذي على رأسه القلنسوة الحمراء لا يزال في منتصف الطريق ، وابتدأ آخر يطل برأسه من فوق السياج ، ولكن في هذه البرهة كانت المعركة قد انتهت وكتب لنا فيها النصر .

وكان «غراي» الذي كان يتبعني عن قرب ، قد انقضّ على البحار قبل أن يفيق من ألم وقع الضربة التي همّ أن يهوي بها علي ، وقتل آخر عند إحدى الفتحات وهو يحاول إطلاق النار على البيت وهو على الأرض صريعاً يئن من جروحه ، والمسدس لا يزال يدخن وهو في يده ، وثالث رأيته وقد أرداه الطبيب بضربة قوية ، ولم يبق إلاّ واحد فقط من الأربعة الذين تسلقوا الجدار لم نعلم عنه شيئاً ، وهو بعد أن ترك خنجره على الأرض صار يتسلق الجدار ليلوذ بالفرار .

ثم صاح الطبيب : «أطلقوا النار من داخل البيت ، وأنتم أيها الفتيان ارجعوا إلى المكان المحميّ» .

ولكن لم يلتفت أحد إلى كلماته ، فلم تطلق رصاصة واحدة ، وكان آخر المهاجمين قد ولّى مدبراً ، ثم اختفى مع الباقين بين الأشجار . وما كادت تنقضي ثلاث ثوان حتى لم يبق أثر لجماعة المهاجمين سوى الخمسة الذين انطرحوا على الأرض ، أربعة داخل السور وواحد خارجه .

وجريت أنا والطبيب و«غراي» بسرعة للحماية ؛ خشية أن يرجع من تبقى منهم حيّاً لأنهم تركوا بنادقهم ، ومن المحتمل جداً استئناف إطلاق النار في أي لحظة .

وكان قد انقشع الدخان من البيت وتبيّن لنا الثمن الذي دفعناه لانتصارنا ، فقد كان «هنتر» مجندلاً بجوار فتحة ، وأما «جويس» فلن تقوم له قائمة بعد أن أصابته الرصاصة في رأسه ، وفي أثناء ذلك كان السيد «ترلاوني» يسند الكابتن في وسطه وكلاهما مصفر الوجه .

وقال «ترلاوني» : «إن الكابتن مصاب» .

ثم سأل «سمولت» قائلاً : «هل ولوا الأدبار جميعهم؟» .

فأجابه الطبيب قائلاً : «كن على يقين أن من استطاع ذلك فقد فعل ، إلاّ أن خمسة منهم لن ينهضوا أبداً من رقادهم» .

فصاح الكابتن : خمسة ! هذا جيد ، فإن خمسة مقابل ثلاثة تجعلنا نبقى أربعة مقابل تسعة ، إنها لحالة أحسن مما كنا في البداية ، فقد كنا سبعة مقابل تسعة عشر أو هذا كان اعتقادنا ، فما كان أشدها من وقعة .

القسم الخامس
الاقتحام
- ٢٢ -
القارب

بعد تلك الوقعة لم يكن ثمة رجعة للمتمردين ، ولم تطلق رصاصة واحدة من الغابات بعد ذلك ، فقد أخذوا أجر يومهم كما قال الكابتن ، وصارت ملكية البيت لنا وحدنا ، وخيم علينا السكون ، ولهذا تيسر لنا معالجة الجرحى وتحضير الغداء ، فطبخت أنا والسيد «ترلاوني» في الخارج رغم الأخطار التي كانت تتهددنا ، ورغم أننا لم نكن ندرك الحال التي كنا فيها في الخارج ، لهول ما كنا نسمعه من أنين الجرحى الذين كان يعالجهم الطبيب .

ولم يكن بقي من الرجال الثمانية الذين وقعوا في المعركة إلاّ ثلاثة يدب فيهم دبيب الحياة ، وكان أحدهم القرصان الذي قتل عند الفتحة و«هنتر» والكابتن «سمولت» . وكان الأولان من هؤلاء في حكم الموتى ، فقد زهقت روح القرصان الثائر وهو تحت مشرط الطبيب ، وأمّا «هنتر» فلم يعد إلى وعيه رغم ما بذلناه في معالجته ، فقد بقي طول النهار يعالج سكرات الموت بصوت عال كما كان يفعل القرصان القديم في نزلنا عندما انتابته صرعة الموت ، إلاّ أن هذا كان قد كسرت أضلعه من الضربة التي أصابته ، وتهشّمت جمجمة رأسه في أثناء سقوطه على الأرض ، ولم يمض من الليلة التالية إلا بعض الوقت حتى أسلم روحه إلى خالقه .

وأمّا الكابتن فقد كانت جراحه بليغة ، لكنها لم تكن خطرة ، فلم

يصب عضو منه إصابة خطرة ، بل كسرت قذيفة «أندرسن» ترقوته ـ وكان «جيب» هذا أول من أطلق عليه ـ ولمست رئته دون أن تحدث بها ضرراً كبيراً ، وقطعت الثانية بعض شرايين ساقه . وكان من المحقق شفاؤه حسب رأي الطبيب ، على أنه لم يسمح له أن يمشي أو يحرك ذراعه أو يتكلم أيضاً .

وأمّا أنا فما كان الجرح العرضي الذي أصابني في مفاصل أناملي إلاّ كقرصة برغوث ، وقد ضمده الطبيب بالجص وشد أذني فوق ذلك .

وبعد الغداء جلس السيد والطبيب بجانب الكابتن للمشاورة ، وبعد أن فرغوا جميعاً من الحديث ، وكان الوقت بعد الظهر بقليل ، أخذ الطبيب قبعته ومسدسه وشدّ على وسطه حمائل السيف ووضع الرسم البياني في جيبه وحمل بندقيته على كتفه ثم اقتحم السياج من الجهة الشمالية وسار مسرعاً بين الأشجار .

وكنت أنا و«غراي» جالسين إلى الطرف الآخر من الحصن حتى لا نكون على مسمع من رؤسائنا في مشاورتهم ، وما كاد «غراي» يخرج غليونه من فيه وينسى أن يعيده ثانية إلى فمه ، حتى اعترته دهشة نزلت عليه كالصاعقة لما رآه من فعل الطبيب فقال : «بحق الله ! خبرني هل اختبل الطبيب؟» .

فقلت : «لماذا ، إن الطبيب لآخر من يصاب بذلك من قومنا على ما أعتقد !» .

فقال : «حسن يا زميل البحر ، إذا لم يكن كذلك فأكون أنا المجنون وتذكر كلماتي هذه» .

فأجبته : «إني أعتقد أن الطبيب له رأي خاص ، فإذا صح ظني فإنه ذاهب ليرى «بن غن» . وقد ظهر فيما بعد صدق حدسي ، وفي

الوقت ذاته كان البيت يتقد من شدة الحر ، وكان الفناء الرملي الذي داخل السياج كالجمرة من شدة قيظ الظهيرة ، فابتدأت تختمر في ذهني فكرة أخرى ظهر لي بعدها أنها لم تكن مطابقة للواقع مطلقاً : فكانت بدايتها أني صرت أحسد الطبيب وهو يمشي بين ظلال الغابات الوارفة الباردة ومن حوله الطيور ، يستنشق رائحة الصنوبر الزكية ، بينما كنت ماكثاً هنا أتلظى بحرارة المكان ، وتلتصق ملابسي بصمغ الأشجار ، والدماء تحيط بي وأنا بين أجسام الموتى ، فسبب لي ذلك كراهية المكان إلى حد الخوف منه .

وكنت طوال المدة أنشغل بغسل البيت ثم غسل الأواني بعد الأكل ، فكان هذا داعياً لازدياد الاشمئزاز والحسد في نفسي ، وأخيراً ، بينما كنت بالقرب من كيس الخبز وبعيداً عن أعين المراقبين اتخذت أول التدابير لخلاصي حيث ملأت جيوب معطفي من الكعك .

سمّني مجنوناً إذا شئت ، فإني كنت على وشك الإقدام على مخاطرة سخيفة ، وكنت مصمّماً على التنفيذ بكل ما في وسعي من الحيطة ، فكان الكعك يكفي لإبعاد شبح الجوع عني على الأقل حتى اليوم الثاني إذا قدر وحدث حادث مفاجئ .

ومن ثم استحوذت على طقم من المسدسات ، وكان معي من قبل مجمع بارود وشيء من الرصاص ، جعلتني أعتقد أن السلاح الذي معي يكفيني .

وأمّا الخطة التي رسمتها في ذهني فكان لا بأس بها في حد ذاتها ، إذ عولت على الذهاب إلى اللسان الرملي الذي يفصل المرفأ من جهة الشرق عن عرض البحر باحثاً عن الصخرة البيضاء التي رأيتها مساء البارحة ، لأتحقق ما إذا كان «بن غن» خبأ قاربه هناك أم لا ، فإن ذلك عمل جدير بالبحث على ما أعتقد ، إلا أني كنت واثقاً أنه لن يسمح

لي أن أبرح الردهة ، لذلك كانت خطتي أن أتسلل دون إذن عندما تغفل عني العين . وهذه الطريقة السيئة هي التي قبّحت العمل وأظهرته بمظهر الخطإ الفادح ، ولكني كنت صبياً وقد صممت ، فلم يسعني إلاّ التنفيذ .

وقد هيأ مجرى الأحداث التي تلت سنوح الفرصة ، فكان السيد و«غراي» مشغولين في مساعدة الكابتن في شد أربطته ، وكان الشاطئ رائقاً ، فعدوت من فوق الدريئة حتى وصلت إلى داخل الأشجار الكثيفة الملتفة داخل الغابات . وقبل أن يعلموا بغيابي كنت قد بعدت عنهم حتى صرت لا أسمع صياحهم إذا هم نادوني .

وكانت هذه الغلطة ثانية أخطائي الدالة على الحمق ، وكانت أعظم ذنباً من الأولى ، إذ تركت رجلين مسلحين فقط لحراسة البيت . وإنما كان رائدي في ذلك توخي المساعدة لنجاة جماعتنا كما حاولت في المرة الأولى .

اتجهت إلى الشاطئ الشرقي للجزيرة لأني كنت أقصد الذهاب إلى شاطئ البحر من جهة اللسان متجنّباً رؤيتهم لي من جهة الميناء ، وكان ذلك وقت العصر ، إلاّ أن الجو كان لا يزال حاراً والشمس ما فتئت عالية . وبينما كنت أسير متخللاً الأشجار الطويلة لم أكن أسمع هدير موج البحر المستمر فقط ، بل كنت أسمع كذلك صوت حفيف أغصان الأشجار وتكسّر فروعها الذي دل على أن نسيم البحر ابتدأ يشتد ووصل إلى تموجات من الهواء البارد ، وبعد قليل دخلت إلى حافة الغابة المكشوفة ، فرأيت البحر منبطحاً أمامي حتى الأفق ، وضوء الشمس ينعكس على بساطه الأزرق ، والموج يتلاطم ويقذف بزبده على الشاطئ .

ولم يحصل في الأيام الماضية أن رأيت البحر هادئاً حول جزيرة

الكنز ، فقد كانت الشمس متقدة في السماء فوق الرؤوس ، وربما توقّفت حركة الهواء واستوى سطح البحر وازرق لونه ، ورغماً من كل ذلك فما كان ينقطع تحرك تلك الأسطوانات الأفقية جيئة وذهاباً بطول الشاطئ الداخلي وهي تتلاطم ليلاً نهاراً . ولم يكن في اعتقادي أن بقعة من الجزيرة لا يسمع فيها صوت تلاطم هذه الأمواج الهادرة .

رحت أمشي بجانب الأمواج وأنا ممتلئ سروراً ، حتى إذا ما أيقنت أني بلغت حداً كافياً في جهة الجنوب ، زحفت بحذر إلى قمة الرأس ؛ تحت ستر الأعشاب المتكاثفة ، فحولت ظهري نحو البحر ، ووليت وجهي شطر المرسى ، وقد انتهى هبوب الريح كأنه أنفذ كل ما فيه من قوة بعد اشتداد هبوبه خلاف المعتاد . ثم تتابع بعد ذلك هواء ضعيف ورياح أخرى تختلف درجة هبوبها من الجهة الجنوبية والجهة الجنوبية الشرقية ، مكتسحة جبلاً من الضباب أمامها . وكانت الميناء من الجهة التي يهب عليها الريح من جزيرة الهيكل العظمي هادئة ساكنة ، كما كانت عندما دخلناها أول مرة ، وقد انعكست صورة الهسپنيولا في الماء الساكن كالمرآة ، واضحة البكرة التي في طرف صاريها إلى خط الماء ، وقد جعل علم القرصان يخفق فوق صاريها .

وكان على مسافة غير بعيدة مني أحد القاربين ، وكان «سلفر» جالساً في المؤخرة ، وكنت أتبيّنه بوضوح ، بينما كان رجلان متكئين على حافة المؤخرة ، أحدهما كان لابساً قلنسوة حمراء ، وهو ذلك الوغد الذي رأيته منذ بضع ساعات متسلّقاً السياج ، وكان يبدو عليهم أنهم كانوا يتكلمون ويضحكون . على أني على هذا البعد ـ الذي يزيد قليلاً عن ميل ـ لم يكن في مقدوري أن أسمع كلمة ممّا يقولون ؛ وفي الحال ترامى إلى سمعي صوت إنسان بالغ أشد درجات القبح ، بيد أني تذكرت سريعاً صوت الكابتن «فلنت» ـ وهو اسم الببغاء

الذي آل إلى «سلفر» بعد أن كان ملكاً لفلنت الذي سمّي باسمه ـ إضافة إلى ذلك فإني موقن أني تبيّنت الطائر بريشه اللامع وهو واقف على رسغ سيده .

وبعد قليل انطلق «القارب الأول» في ذهابه إلى الشاطئ ونزل الرجل ذو القلنسوة الحمراء ورفيقاه من الفتحة إلى «عنبر الشركاء» .

في هذا الوقت كانت الشمس قد غابت وراء «المنظار» ، وكان كلما ازداد تجمع الضباب كلما اشتد الظلام حلكة ، فوجدت أنه ينبغي علي أن لا أضيع وقتاً قبل أن أعثر على المركب في هذا المساء .

كانت الصخرة البيضاء ظاهرة تماماً فوق الأعشاب ، إلاّ أنها كانت تبعد نحو ثمن ميل خلف اللسان ، ولذلك عانيت طويلاً حتى وصلت إليها دابّاً على أربع بين الأعشاب ، وما كاد يجن الليل حتى كنت وضعت يدي فعلاً على جوانبها الخشنة الملمس ، وكان تحتها تماماً هوة صغيرة نبت فيها عشب أخضر يحجبها عن الأنظار ما ارتفع حولها من الجوانب ، وما نبت فيها من الحشائش والأعشاب المتكاثفة ـ التي تنبت عادة تحت أشجار الغابات ـ لا يزيد ارتفاعها عن مستوى الركبة ، وقد كان في وسط هذا الوادي الصغير خيمة صغيرة من جلد الماعز كالتي يحملها النور معهم في بلاد الإنكليز .

فنزلت إلى هذا المكان ورفعت طرفاً من الخيمة فوجدت قارب «بن غن» المصنوع صناعة يدوية ، فهو عبارة عن تقفيصة صنعت جوانبها من أغصان شجر غير مشذب ، قد شد عليها جلد ماعز بحيث جُعل الشعر إلى جهة الداخل ، وهو صغير جداً حتى أنه يكاد لا يسعني . وما كنت أتصوّر أنه يطفو برجل متوسط الجسم . . وقد وضع في غوره لوح مستعرض واحد من الخشب ـ لجلوس المجذف ـ وله مجذاف مزدوج واحد لدفعه .

وبما أني قد عثرت على القارب الآن ، ربما تظن بي أني سأكتفي بالهروب هذه المرة ، غير أنَّ فكرة أخرى قامت بذهني ، وقد تمكنت مني أي تمكن ، حتى إني كنت مصمّماً على تنفيذها ولو بالتعارض مع الكابتن «سمولت» نفسه ، وهي أن أذهب خلسة تحت جنح الظلام وأقطع حبال الهسپنيولا وأجعلها تذهب حيث يشاء الهواء ، وقد تأكدت تماماً بأن الثائرين بعد انهزامهم هذا الصباح ليس أحب إليهم من أن يرفعوا مرساة السفينة ويقلعوا بها ، ورأيت أن الأفضل عدم تمكينهم من ذلك بتنفيذ هذه الفكرة . ولـمّا رأيت أنهم تركوا الحارس فوقها دون قارب ، فقد كان من الممكن القيام بهذا العمل دون أن أعرض نفسي لخطر كبير .

وجلست على الرمل حتى عم الظلام ، وتناولت كمية جيدة من البسكويت ، وكانت الفرصة في هذه الليلة سانحة لإنفاذ غرضي ، وقد عم الضباب بانتشاره جميع الأرجاء ، وما كادت أشعة الشمس تتضاءل وتختفي حتى أرخى الليل سدوله وعم الظلام الحالك «جزيرة الكنز» ، وأخيراً عندما حملت القارب على كتفي وأنا أنسلّ من الوادي أتعثر حيث كنت أخطو ، رأيت نقطتين فقط في المرفإ كانتا لا تزالان ظاهرتين : إحداهما البقعة التي كانت تضيء فيها النار العظيمة ، التي على الشاطئ ، حيث رقد حولها القرصان المهزومون يعاقرون الخمرة ، وكانت الأخرى يدل عليها بصيص ضئيل من النور في الظلام القاتم حيث ترسو السفينة ، وقد أدارها التيار الناشئ عن المد ـ فصار مؤخرها الآن إلى جهتنا ـ فيما كان العنبر هو المكان الوحيد المضيء فيها ، وكان كل ما يرى هو انعكاس أشعة الضوء القوية المنبعثة من الشباك الذي في مؤخر السفينة على الضباب .

ولـمّا كانت المياه قد تراجعت بفعل الجزر ، فقد اضطررت إلى أن

أخوض مسافة طويلة في الرمل الذي يعلوه الماء ، حيث كانت قدماي تغوصان فيه مراراً إلى الركبتين ، إلى حين تمكنت من الوصول إلى حافة الماء المتراجع ، وبعد أن خضت فيه قليلاً وضعت القارب على سطح الماء جاعلاً قعره إلى الأسفل .

- ٢٣ -
في عنبر الهسپنيولا

كان القارب صالحاً لركوب شخص واحد في مثل حجمي ووزني ، وكان ذا خفة في العوم ورشاقة في البحر ، بيد أنه كان مصنوعاً من جذوع أشجار غير مشذبة ولا منتظمة الأوضاع ، وجوانبها من العيدان الرخوة ، فصار بذلك من أصعب القوارب مراماً ، وكيفما فعلت به فإنه دائماً يتجه مع اتجاه الريح يلعب به الهواء كما يشاء ، فكانت أحسن مناورة له حيثما يكثر من اللف والدوران ، حتى إن «بن غن» نفسه أقر بأنه كان «غريباً في سيره حتى يعرف الإنسان طريقته» .

وكنت أنا على يقين أني لم أعرف طريقة تسييره ، فقد كان يتجه بي إلى كل جهة إلاّ الجهة التي كنت أقصدها ، وكنت في أكثر الأوقات مجدفاً بالعرض ، وإني لمتأكد أنه لولا تيار الجزر المتراجع لما تمكّنت مطلقاً من رؤية الهسپنيولا التي كانت راسية أمامي على مسافة ليست بعيدة ولا يحتمل أن أخطئها .

وأول ما بدت السفينة لي كانت كنقطة قاتمة السواد ، ثم بدأت صواريها تتبين لي ، وبعد ذلك أخذ شكلها الخارجي يتوضح ، وفي اللحظة الثانية لم أدر (لأنه كلما ابتعدت كلما زادت سرعة تيار الماء المتراجع بالجزر) إلاّ وأنا أمسك بالحبل الذي يشد السفينة .

كان الحبل مشدوداً كوتر القوس لأن السفينة كانت تجذبه بقوة ، وكان لتلاطم الأمواج صوت كخرير الغدير المنحدر من جبل ، وكانت السفينة معلقة على ضربة واحدة مني بسيفي البحري الكبير حتى تقلع مع تيار الماء المتراجع بالجزر .

وقد كان كل شيء على ما يرام حتى هذه اللحظة ، ولكن خطر على بالي أن الحبل الموثوق بالشد ، إذا قطع فجأة ، تكون خطورته شديدة ، فإذا بلغ مني الحمق هذه الدرجة وقطعت حبل الهسپنيولا وفصلته عن المرساة فسأعرض نفسي والقارب للخطر .

وهنا أصبحت في حالة ارتباك تام متحيراً فيما أفعل ، ولو لم يساعدني الحظ مرة أخرى لكنت تركت خطتي كلية ، ولكن هبوب النسيم الذي بدا من الجنوب الشرقي والجنوب كان قد تغيّر بعد أن أرخى الليل سدوله ، فتحوّل هبوبه إلى الجنوب الغربي . وبينما أنا شارد التفكير هبّ ريح ودفع الهسپنيولا إلى عكس سير التيار ، وقد سررت جداً عندما شعرت أن الحبل قد ارتخى حتى إن يدي التي كانت قابضة على الحبل انغمست في الماء .

وإذ ذاك عزمت ، فأخذت سكيني وفتحتها بأسناني وصرت أقطع الأمراس الواحد بعد الآخر ، حتى أصبحت السفينة مربوطة بحبلين فقط ، ثم ظللت ساكناً هنيهة أنتظر ارتخاء الحبل مرة ثانية بهبوب الريح حتى أقطع الحبلين الباقيين .

وفي أثناء هذا الوقت كنت أسمع صريخاً حاداً من العنبر . ولكن الحق يقال أن كل حواسي وتفكيري كانت منشغلة بأفكار أخرى مشتتة ، حتى أنني لم أسمع كثيراً ، ولكن لـمّا فرغت مما كان يشغلني أصبحت أنصت بانتباه .

وقد تبيّنت من الرجال واحداً وهو مراقب الحركة «هاندز» الذي كان ملقّم المدفع عند «فلنت» في سالف الأيام ، وكان الثاني طبعاً صاحبنا ذا القلنسوة الحمراء ، والاثنان رغم شدة ترنحهما من كثرة السكر مستمران في تعاطي الخمر ، بل إنه بينما كنت مصغياً فتح أحدهما شباك مؤخر السفينة وهو يصيح صياح السكارى ورمى شيئاً

أظنه كان زجاجة فارغة . ولم يكونا فقط في حالة سكر بل كانا في حالة غضب شديد أيضاً ، وكان السباب والشتائم تخرج من فميهما كعواصف البرد ، ومن آن إلى آخر كان يخيل إليّ من سماع أصواتهما التي كانت كالرعد أنها تكاد تنتهي بالملاكمة ، وكان الصوت عندما يصل إلى هذه الدرجة يتضاءل ويزول الشجار مدة ثم تأتي أزمة أخرى تجدده ثم تذهب دون نتيجة .

وكنت أرى على الشاطئ النور الساطع من النار العظيمة المتأجج لهيبها في المعسكر خلال الأشجار النابتة على الساحل ، وكان أحدهم يغني أغنية مملة عتيقة غير مشجية يغنيها البحارة عادة بمد وتلكؤ وارتعاش في الصوت ، وقد سمعتها مراراً في أثناء رحلتي وما زلت أذكر منها هذه الكلمات :

ولا يزال واحد من ملاحيها حياً

وقد كانوا عند نزولهم البحر خمسة وسبعيناً .

وقد كانت على ما أعتقد أغنية تناسب تماماً حالة جماعة قد عانوا مصائب مثل ما عانى هؤلاء في الصباح .

ثم هب الريح أخيراً ومالت السفينة ، واقتربت في الظلام فشعرت بتراخي الحبل مرة أخرى ، فانتهزت الفرصة وبضربة قوية قطعت آخر الأمراس .

ولم يكن تأثير الريح شديداً في القارب فاندفعت في الماء إلى مقدم الهسبنيولا ، وفي الوقت نفسه بدأت السفينة تدور ببطء حول مركزها معاكسة سير التيار المائي .

وأجهدت نفسي بالعمل لأني كنت منتظراً أن ينقلب بي القارب في كل لحظة ، ولـمّا وجدت أني لا شك عاجز عن السير إلى الأمام صرت أدفع بنفسي إلى الخلف حتى أصبحت بعيداً عن السفينة ،

وعندما كنت أدفع آخر دفعة اعترض يدي حبل رفيع كان متدلّياً من فوق سطح السفينة من الجهة التي تلي المؤخرة، فقبضت عليه في الحال. ولا يمكنني أن أعرف السبب الذي جعلني أفعل ذلك، لقد كان إلهاماً فقط في البدء، ولكن ما كدت أقبض بيدي عليه حتى وجدته قوياً فألجأني حب الاستطلاع الذي تملكني لاستكشف الأمر فعولت على أن أطل من شباك العنبر إلى الداخل.

وتسلّقت بيديّ الحبل، وعندما وجدت نفسي قد اقتربت صعدت رغم الخطر الكبير الذي كان يهددني، وبذلك تمكنت من رؤية السقف وجزء من داخل العنبر، وفي هذا الوقت كانت السفينة والقارب يسيران سيراً حثيثاً فوق الماء، وما كنت لأفهم سبب عدم التفات الحارس إلاّ بعد أن رفعت رأسي فوق حافة الشباك، فقد كانت نظرة واحدة كافية، ذلك أنني رأيت «هاندز» ورفيقه ممسكين الواحد بالآخر وهما يتصارعان مصارعة مميتة وكل واحد منهما ممسك بخناق الأخر.

ثم عدت إلى مقعدي ثانية، وما كان ذلك لعجلة مني، بل لأن القارب كان على وشك الانقلاب، وما تمكنت من رؤية أي شيء سوى هذين الوغدين وهما في حالة غضب شديد، وقد علت وجهيهما حمرة قاتمة وهما يتمايلان في ضوء السراج المدخن، وقد أغمضت عيني لأرى وجهيهما في الظلام مرة أخرى.

وأخيراً انتهت الأغنية التي لا آخر لها، وأنشد جميع من تبقى من القرصان بصوت عال تلك الأنشودة التي طالما سمعتها:

خمسة عشر رجلاً على صندوق الرجل الميت
يو هو هو وزجاجة روم
نشرب ونرتع ونكل الباقي للشيطان
يو هو هو وزجاجة روم.

وفي حين كنت أفكّر كيف كان حال الشراب في هذه اللحظة يؤثر تأثيراً سيئاً في الرجلين اللذين في عنبر السفينة الهسپنيولا ، إذ فوجئت على غرة بميل القارب ، وفي اللحظة نفسها انحرف كثيراً عن طريقه حتى خيل إليّ أنه غيّر طريقه وعجبت لزيادة سرعته الفجائية .

وفي الحال فتحت عينيّ فرأيت حولي أمواجاً خفيضة يعلوها زبد ، وهي ذات صوت ولمعان ظاهرين ، وقد كانت الهسپنيولا التي كنت أسير في إثرها تتعثر في سيرها ؛ وكنت أرى أطراف ساريتها في ظلام الليل ، ولمّا استمر نظري طويلاً تأكدت أنها كانت تسير نحو الجنوب .

ثم نظرت ورائي من فوق كتفي فقفز قلبي من حلقي ، فقد كان بريق النار ورائي ، وصار اتجاه التيار عمودياً بالنسبة إلى ما كان قبلاً ، وهو يسوق معه السفينة العالية والقارب الراقص الصغير بجانبها ، وكان البحر دائم الموج تطفو على وجهه فقاقيع عالية ، وكان مستمراً في زئيره حتى يدخل ماؤه المتموج فتحة العنبر .

وعلى حين غفلة مالت السفينة التي أمامي ميلة شديدة ، ربما بلغت عشرين درجة في انحرافها ، وفي تلك اللحظة تتابع الصراخ من على متنها ، وقد كنت أسمع صوت وقع الأقدام على سلم العنبر ، وعرفت أن المصيبة التي داهمت الرجلين اللذين لعبت برأسيهما الخمر قد شوشت على شجارهما وأفاقتهما من سكرهما .

فرقدت إذذاك في قاع ذلك القارب التعيس ، وأسلمت أمري إلى الخالق ، وفي نهاية ممر البحر تأكدت أن الأمواج المتلاطمة ستدفعني عند إحدى الصخور الناتئة في البحر حيث تضع حداً سريعاً لمتاعبي ، ومع أني كنت أتحمل فكرة الموت إلاّ أني كنت لا أحتمل أن أرى اقتراب حتفي بعيني .

وطال بقائي على هذا الحال كنت أرتطم باستمرار بالأمواج ذهاباً وإياباً يبللني الماء المتطاير ، ولم يفارقني شعوري بانتظاري الموت عند غشيان كل موجة مطلقاً ، ثم بعد ذلك اعتراني التعب تدريجيّاً ، وحصل لي خمود أفقدني إحساسي مدة رغماً عن شدة اضطرابي ، ثم تغلب عليّ النوم أخيراً ، ورقدت في القارب الذي كان يتجاذبه موج البحر وأنا أحلم بالنزل القديم لأمير البحر بنبو .

- ٢٤ -

في عرض البحر

كان اليوم قد طلع نهاره حين تنبّهت من النوم فوجدت نفسي في القارب تدفعني الأمواج المتلاطمة إلى طرف جزيرة الكنز الجنوبي الغربي ، وقد ارتفعت الشمس لكنها كانت لا تزال مستترة خلف تل «المنظار» العظيم الذي يكوّن من الجهة الموالية لي جرفاً هائلاً منحدراً إلى البحر ، وكان رأس «هولبولين» وتل «ميزنماست» إلى جهة يميني من الخلف ، وقد كان التل عارياً مظلماً ، وأمّا الرأس فكان محاطاً بصخور يبلغ ارتفاعها نحو ٤٠ أو ٥٠ قدماً ، تحتها كتل عظيمة من الصخور المهشّمة ، ولم أبعد عن الجزيرة إلى البحر أكثر من ربع الميل ، حتى خطر لي أول شيء أن أجذف حتى أصل أرض الجزيرة .

وما أسرع أن نزعت من رأسي هذه الفكرة حيث كانت الأمواج المتقطعة بارتطامها على تلك الصخور الهادئة من الجبل تجعل الماء يتطاير وينصب محدثاً هديراً عالياً ، وما كان دويّ تلاطم الأمواج بالصخور ورشه الدائم المتطاير ليهدأ لحظة واحدة ، فرأيت أنه لو خاطرت بالاقتراب منه فأكون مثل القاذف نفسه إلى الهلاك على الشاطئ المسنن الصخور ، أو المضيّع قوته عبثاً في تسلق الصخور الكثيرة النتوء .

ولم يكن هذا كل شيء فقد رأيت «وحوشاً» عظيمة الجرم ملساء كالحلزون ، تتدحرج من على الصخور المستوية ، أو تترك نفسها تنحدر إلى البحر بصوت عال ، وكان كل أربعين أو ستين منها تنبح معاً حتى تردد الصخور صدى نباحها .

ثم علمت بعد ذلك أن هذه الوحوش ، إنما هي أسود البحر ، وأنها غير مؤذية ، ولكن بشاعة منظرها ووعورة الشاطئ وسرعة انحدار الأمواج كانت كافية لإرهابي وزهدي في أن أرسو عليها ، حتى إنني كنت أفضل أن أموت جوعاً على أن أواجه أخطاراً كهذه .

ثم ظهر لي أن أمامي سبيلاً آخر للنجاة ، فإلى شمال رأس «هولبولين» نجد ميل الشاطئ نحو البحر قليلاً ، فإذا تراجع الماء بالجزر رأيت لساناً طويلاً من الرمل الأصفر ، وإلى شمال هذا نجد رأساً آخر هو رأس الغابات الذي يلوح أكثر أماناً وأدعى إلى الدعة من غيره .

وكان البحر متفخاً انتفاخاً هائلاً مع هدوء ، وقد جعل الهواء يهب باعتدال ولطف من الجنوب ، ولم يكن هناك تعاكس بين تياري الهواء والماء ، وكانت الأمواج ترتفع وتهبط بغير تكسر ولا إرغاء ، ولولا ذلك لأحصيت في عداد الهالكين منذ أمد بعيد ؛ وكان من المستغرب جداً ما حدث من قدرة قاربي الصغير من الاستمرار في هذا البحر بهذه السهولة وذلك الأمان ، وكثيراً ما كنت أرى الموجة العظيمة الزرقاء وهي تهدر بجواري ثم تصعد مرتفعة فوق رأسي ، بينما كنت راقداً في أسفل القارب أترقب بعين واحدة من فوق العارضة ، إلاّ أن القارب كان يقفز قليلاً ، ثم يرقص كأنه موضوع على لولب دائر حلزوني ، ثم يسقط من الجهة الأخرى في الحوض بخفة كما يفعل الطير .

وبعد قليل زادت شجاعتي كثيراً ، فجعلت أجرب مهارتي في التجذيف ، بيد أن أقل تغيير في وضع الثقل كان ليحدث تغييراً كبيراً في سير القارب ، فما كدت أتحرك حتى أمسك القارب عن حركة رقصه اللطيف ، وانحدر على ميل موجة شديد الانحدار حتى أصابني الدوار ، ثم ضربته الموجة الثانية فتناثر الماء من حوله متطايراً ، فتبللت

ملابسي واضطربت أعصابي ، ثم رجعت في الحال إلى مركزي الأول عندما اعتدل ثانياً في سيره ، وجعل يسير بي الهوينا بلطف بين الأمواج ، فأصبح واضحاً لي أنه ينبغي أن أتركه يسير كما يشاء ، وعلى أي حال فما دمت لا أملك قيادة لي فلا أمل بعد في الوصول إلى الشاطئ .

وانتابتني من ثمّ المخاوف ، ولكنني مع هذا كنت مالكاً لحواسي ، فتحركت بكل حذر ، وجعلت أنزح الماء الذي في القارب بقبعتي البحرية ، وبعد ذلك رفعت عيني فوق العارضة وصرت أفكر كيف تمكّن القارب من النجاة من بين هذه الأمواج الشبيهة بالأسطوانات الضخمة .

قلت لنفسي : حسن ! لقد أصبح واضحاً الآن أن أستمر في مكوني حيث أنا ، وأن لا أخل بتوازن القارب ، إلا أنه من الواضح أيضاً أنه في استطاعتي أن أضع المجذاف على أحد جانبيه ثم أدفعه مرة أو اثنين من وقت إلى آخر في المواضع الهينة الهادئة ابتغاء تحويله إلى اتجاه اليابسة ، وما حلت بذهني هذه الفكرة حتى ألقيت فيه عصا التسيار ، وكنت راقداً فيه على ذراعي في وضع متعب جداً ، كما كنت أدفعه من لحظة إلى أخرى بلطف حتى أجعله يتجه نحو الشاطئ .

وعلى رغم مشقة هذا العمل وبطئه ، فقد كانت نتيجته ظاهرة حين قربت من طرف الغابات ، ولو أني رأيت أني دون شك سأتجاوزه . كنت قد سرت نحو الثلاثمائة قدم إلى الشرق ، وقد كنت قريباً منه بالتحقيق ، فأخذت أرى رؤوس الأشجار الخضراء ينبعث منها النسيم المنعش ويدفعها الهواء فتتعانق ، ثم شعرت أنه ينبغي لي أن أقصد الرأس الثاني من غير تردد .

كانت الشمس في كبد السماء فاشتد بي العطش ، واشتركت

عوامل تأثير حرارة الشمس من فوق ، وضوء الآلاف من خيوط أشعتها المنعكسة من الأمواج ، وماء البحر الذي كان يغمرني ثم يجف عني تاركاً طبقة من الملح على شفتي ، اشتركت كل هذه في إحراق حلقي وجلب الألم إلى رأسي . وقد سبب منظر الأشجار وهي بالقرب مني الألم لشدة الأمل ؛ إلاّ أني وجدت التيار قد أبعدني عن هذه النقطة ، وما إن بلغت متسع البحر أمامي ، حتى رأيت منظراً غيَّر ما بي من الأفكار .

رأيت الهسپنيولا أمامي مباشرة على مسافة لا تزيد على نصف ميل مني ، وقد نشرت شراعها ، فأيقنت أنها لا محالة مُدركتي ، إلاّ أنني كنت مكتئباً لشدة احتياجي إلى الماء ، إلى حد لم أتمكن معه أن أجزم ما إذا كان ينبغي لي أن أسر أو أتكدر لذلك ، وقبل أن أصل إلى نتيجة كان قد تمكن مني الاستغراب الشديد ، فم أستطع أن أعمل شيئاً إلاّ السكوت ، والنظر إليها من شدة العجب .

كان شراع سارية الهسپنيولا الكبير وشراعان صغيران والقماش الأبيض الجميل جميعها تبرق في ضوء الشمس كالثلج أو صفائح الفضة . ولـمّا بصرت بها ، كانت جميع أشرعتها منتفخة بالريح ، وكانت متجهة نحو الشمال الغربي ، فظننت أن الرجال الذين عليها كانوا ينوون أن يدوروا حول الجزيرة ذاهبين بها إلى الميناء ثانية . وفي الحال سارت متجهة نحو الغرب حتى إنني ظننت أنهم رأوني وأرادوا أن يقتفوا إثري ، ثم أصبحت أخيراً هدفاً للريح ، فوقفت مدة حيث كانت ، وأشرعتها تلاطم الريح .

وقلت في نفسي إنهم لقوم بلداء ، ويغلب على ظني أنهم ما زالوا نائمين من شدة السكر ، وتعجبت كيف تمكن الكابتن «سمولت» بشدته أن يجعلهم يشتغلون بخفة ومهارة .

وكانت السفينة في أثناء ذلك قد مالت عن مهب الريح ، ثم ملأ الريح أشرعتها ثانية ، وسارت مسرعة مدة دقيقة أو أكثر ثم ترنحت مع الريح وتوقّفت ، وتكرّر هذا مراراً ، فكانت تسير إلى الأمام والخلف ، وترتفع وتنخفض وتتجه إلى الجنوب والشرق والغرب ، تارة تنقض وتارة تهجم ، وعقب كل مرة تنتهي حيث ابتدأت ، وقد بلغ صوت قرقعة قماش أشرعتها السماء وهي ثابتة في محلها . فاتضح لي من ذلك أن ليس فيها أحد يدير سكانها ، فإذا كان الأمر كذلك فأين الرجلان؟ فإما أن يكون بلغ بهما السكر حداً جعلهما لا يفقهان شيئاً ، أو أنهما فرّا من على ظهرها ، فخيل إليّ أنه لو أنني استطعت الصعود إلى متنها لاقتدتها سالمة إلى ربانها .

وكان التيار يدفع السفينة والقارب بسرعة واحدة ، وأمّا سير القارب فكان غير منتظم ، حتى إنه كان يستقر طويلاً فوق الموجة كأنما هو معلق بسلاسل تربطه بها ، فإذا تمكنت من الجلوس فيه والتجديف لكان من المؤكد لي أن ألحق السفينة ، إلاّ أن العمل كان فيه نوع من المخاطرة المشجعة ، وزادت الشجاعة فكرة وجود تلك الأمواج العظيمة بحذاء عنبر الملاحين الأمامي .

انتصبت واقفاً ، وفي الحال رحبت بي موجة نثرت عليّ رشاشاً من السحابة التي أحدثتها فوقي ، إلاّ أن هذا ما كان ليثني عزمي ، فجعلت أجذف بكل قوتي بغاية الاحتراس ، متتبعاً الهسبنيولا التي كانت تسير بغير هدى ، فغرف القارب مرة مقداراً كبيراً من الماء فاضطررت إلى أن أتوقف لإخراج الماء منه ، بينما كان قلبي يرتجف ، ولكن بعد هذا خبرت طريقته ، فصرت قادراً على قيادته حيث أشاء بين الأمواج ، إلاّ أن هذه الأخيرة صارت تعترض مقدمه ، وتضرب بزبدها في وجهي .

وقد أصبح قاربي الآن أسرع في تحركه من السفينة ، فكنت أرى الشراع الآخر يلمع في الشمس في أثناء تلاطم الدفة في الماء ، ومع ذلك ما كان يظهر أحد فوق سطحها ، وما كنت أرجح فقط ، بل كنت أفترض أنهم قد تركوها . فإذا لم يكن أحد فيها من كثرة السكر فربما تمكنت من عمل ما شئت بها .

واستمرت السفينة مدة في أسوإ مراكزها بالنسبة إليّ ـ من حيث وقوفها ثابتة ـ وكان رأسها متجهاً نحو الجنوب ، مستمرة في تعرجها في السير ، وكلّما انحدرت عن الريح كلما عاودها الهواء فملأ أشرعتها ثانية وجعلها في لحظة مستهدفة للريح ، وكما قلت كان هذا أسوأ مراكزها لدي ، لأنها كانت في هذه الحالة تظهر بلا حول ولا قوة بينما كان قماش شراعها يفرق كالمدفع ، وكتل الخشب تتخبط وتتدحرج فوق سطحها ، واستمرت تجري أمامي بدفع الريح العظيم بالإضافة إلى سرعة التيار في البحر .

وأخيراً نلت مبتغاي ، فقد خفّ الهواء بضع ثوان ، وكان التيار يديرها تدريجيّاً ، فكانت تدور حول محورها فقط ، فتمكّنت من مؤخرها ، وكان شباك العنبر لا يزال مفتوحاً والسراج ما فتئ موضوعاً فوق المنضدة ، وهو يضيء في رابعة النهار ، وكان شراع ساريتها الكبرى متدلياً كالراية ، فلولا التيار لكان سكونها عظيماً ، وكنت قد أرهقت تعباً في اللحظة الأخيرة ، إلاّ أني ضاعفت جهودي وابتدأت أنشط للحاق بها .

وما كادت المسافة تصل بيني وبينها نحو الثلاثمائة قدم ، حتى هب الريح ثانية فدفعها في اتجاه الميناء ، فابتعدت ثانية ، وجعلت ترتفع وتنخفض فوق الماء كالخطاف . فأدركني اليأس في البدء ، ولكن السرور عاودني ثانية ، حيث ارتدت راجعة حتى صارت محاذية لي ،

وما زالت تدور حتى قطعت نصف المسافة التي بيننا ، ثم ثلثها ، ثم ثلاثة أرباعها ، فكنت أرى الأمواج تضطرب تحت الجزء الأمامي منها ، فظهرت أمامي ذات ارتفاع شاهق من مركزي وأنا منخفض عنها في القارب .

ولم يكن لديّ وقت للتفكير ، حتى للقيام بأي عمل ينجيني ، فقد كنت فوق قمة موجة ، بينما كانت السفينة تقترب مني وهي معلقة فوق موجة أخرى ، فصار العود الخشبي الذي في مقدم السفينة فوق رأسي ، فانتصبت قائماً على قدميّ وقفزت إلى سطحها دافعاً القارب بقدمي في الماء ، وأمسكت بيدي الخشبة الممدودة في مقدم السفينة واضعاً قدمي بين دعامة الخشبة الممتدة والحبل الذي يشد الشراع ، وبينما كنت قابضاً بيدي ، وقد نال مني الإعياء ، سمعت صدمة خفيفة أنبأتني أن السفينة قد أغرقت القارب بتلك اللطمة ، فإذا بي فوق الهسبنيولا ، وقد قطع عليّ خط الرجعة .

- ٢٥ -
إنزال راية القرصان

ما كدت أستقرّ على تلك الخشبة الممدودة من مقدم السفينة حتى ملأ الهواء الشراع الأمامي الصغير فكان يلوح في الهواء، ثم خبط واندفع إلى الجهة الأخرى محدثاً صوتاً شديداً وقرقعة عظيمة كصوت المدفع، فعم الاهتزاز جميع أنحاء السفينة حتى أسفلها، وفي اللحظة الثانية كانت الأشرعة الأخرى لا تزال مملوءة بالريح بينما عاد الشراع الأمامي الصغير إلى حالته الأولى من السكون.

وقد أوشك هذا الأمر أن يوقعني في البحر، ولم أتردد لحظة واحدة في الزحف إلى مكاني الأول فوق الخشبة الممتدة عند مقدم السفينة حيث رميت بنفسي على سطح السفينة مندفعاً برأسي.

كنت إلى جانب الشراع الأمامي الأكبر الذي كان الريح يضرب فيه، وكان جزء من السطح الخلفي مختفياً عن بصري وما كان أحد يُرى على السطح، وكانت آثار أقدام كثيرة ظاهرة على الألواح التي لوثها البحارة المتمردون، بينما كانت زجاجة فارغة مكسورة رقبتها تنحدر من ناحية إلى أخرى.

ثم أصبحت الهسپنيولا هدفاً للريح، وقرقعت الأشرعة الصغيرة خلفي، وصارت الدفة تتحرك ذات اليمين وذات اليسار، ثم اهتزت السفينة هزة شديدة. وفي الوقت ذاته تحرك الشراع الأكبر إلى الداخل، وكان القماش يضرب بالأخشاب ويحدث ذلك صوتاً قوياً، ثم تبيّن لي بعد ذلك الجزء الخلفي من سطح السفينة، على أنني تأكدت في تلك اللحظة من وجود الحارسين، فكان ذو القلنسوة الحمراء ملقى على ظهره وقد تصلبت أعضاؤه وامتد ذراعاه فبدا

كالمصلوب ، وقد فتح شفتيه فظهرت أسنانه ، بينما استند «هاندز» إلى حافة السفينة ، واضعاً ذقنه على صدره ، وكانت يداه مفتوحتين بجانبه ، وقد ابيض لون وجهه الذي لوّحه تأثير الجو فصار لونه كالشمعة .

وبقيت السفينة مدة وهي تخب في سيرها طوراً وطوراً تميل ذات اليمين وذات اليسار كالجواد الجموح ، كما كانت أشرعتها تمتلئ بالريح ساعة فتسير في طريقها السوي برهة ، ثم تعود فتغيّره مرة أخرى وشراعها مستمر في تأرجحه إلى الأمام والخلف ، حتى صارت السارية تقرقع من شدة الضغط عليها ، ومن آن إلى آخر كانت تغمرنا سحابة مطر من الموج المتناثر على حافة السفينة ، أو يعبث بمقدم السفينة تلاطم الأمواج الزاخرة ، فبدا الجو ، وأنا في هذه السفينة الثابتة ، أشد تأثيراً مما كنت أشعر به وأنا في القارب المصنوع باليد ذي الجوانب الرخوة والذي صار مستقره قاع البحر .

كان ذو القلنسوة الحمراء يتدحرج إلى الأمام والخلف كلّما تحرّكت السفينة ، ولكن منظره كان بالغ القبح ، ولم يكن تغير شيء من وضعه وقد كشر عن أنيابه ، وجعل يهتز اهتزازاً شديداً . ويظهر أن «هاندز» كان ينكمش عند كل قفزة ثم يستقر على سطح السفينة ، وكانت رجلاه تبتعدان عن الحافة تدريجياً ، فكان كل جسمه مستمراً في تحوله إلى مؤخرة السفينة ، حتى إن وجهه أخذ في الابتعاد حتى اختفى عني ، وأخيراً ما كنت أرى منه إلاّ أذنه وخصلة من شعر أحد عارضيه والهواء يلعب بها .

وفي الوقت ذاته رأيت حولهما على ألواح أرض السفينة بقعاً من دم داكن ، فتأكدت عندها أنهما تطاحنا وهما غاضبان من تأثير السكر .

وبينما كنت مستغرقاً في التفكير بسكون ، وكانت السفينة ثابتة ، دار «هاندز» بجسمه قليلاً ورجع إلى مكانه الأول وهو يئن بصوت منخفض ، وقد أثر في قلبي أنينه الدال على شدة ألمه وضعفه المتناهي ، الذي جعله يفتح فاه ، بيد أنني ما ذكرت الكلام الذي سمعته في برميل التفاح حتى ذهبت مني كل شفقة ورحمة . فسرت متجهاً نحو مؤخرة السفينة حتى وصلت إلى السارية الكبرى ، فناديت متهكّماً : «تعال إليّ يا سيد هاندز» .

فأدار الرجل مقلتيه بجهد ، إلاّ أن حالته كانت سيئة إلى درجة أنه لم يكن في مقدوره أن يلفظ بكلمة تدل على الاستغراب ، فكان كل ما نطقه هو لفظة براندي . ثم خطر ببالي ألاّ أضيّع الفرصة ، فرفعت طرف قماش الشراع المدلى على سطح السفينة وذهبت إلى الخلف ثم نزلت إلى عنبر الملاحين الخلفي .

كان منظر العنبر بالغاً حد الفوضى والاستهتار ، فقد فتحت الصناديق المغلقة ، وكسرت الخزائن الموصدة ابتغاء البحث عن الرسم البياني ، وقد انتشر الوحل على أديم أرض السفينة ، حيث كان الأوغاد يجلسون للشرب والمداولة فيما بينهم بعد انقلابهم من تجوالهم ، وخوضهم المستنقعات والأدغال التي تكتنف معسكرهم ، كما تلوثت الحواجز المنقوشة بالطلاء الناصع البياض من قذارة أيديهم الملطخة ، وتشوهت حوافيها المذهبة ، وكانت عشرات من الزجاجات الفارغة تتخبط في القعر وهي تهتز ، وكان كتاب من كتب الطبيب الطبية مفتوحاً فوق منضدة ، وقد مزق على ما أظن لاستعماله في إيقاد غلايينهم ، كل هذا والسراج لا يزال موقداً وقد امتزج ضوؤه بدخان قاتم اللون .

ونزلت من ثم إلى خزانة المؤن فوجدت أن جميع البراميل قد

حُملت كما أنهم شربوا عدداً كبيراً من الزجاجات ورموا بها بعيداً ، ولا ريب عندي في أنه لم يفق أحد منهم من سكره ساعة واحدة منذ كان بدء تمردهم .

وبينما أنا ماض في بحثي إذ عثرت بزجاجة فيها بقية من البراندي فأخذتها لأجل «هاندز» وأخذت شيئاً من الكعك لنفسي ، ومقداراً من الفاكهة المحفوظة وعنقوداً كبيراً من العنب المجفف وقطعة من الجبن . ثم جمعت هذه الأشياء وصعدت بها إلى سطح السفينة ووضعتها خلف مقبض الدفة على بعد من «هاندز» بحيث أصبح بمأمن منه ، ثم ذهبت إلى مكان الماء وشربت حتى ارتويت ، ثم بعد ذلك أعطيت «هاندز» البراندي .

ولا بد أن يكون شرب نحو جدول من البراندي قبل أن يرفع الزجاجة عن فيه . ثم قال : «أي والله ، ما كان يعوزني إلا شيء من هذا!» .

وكنت قد جلست في أحد الأركان وأخذت في تناول الطعام ، ثم سألته ما إذا كانت إصابته خطيرة ، فدمدم ، أو بالأحرى نبح كالكلب ، وقال : «لو أن الطبيب هنا على سطح السفينة لتم لي الشفاء من الصدمة العصبية المزدوجة ، ولكني سيئ الحظ كما ترى وهذا هو الذي أشكوه ؛ وأما ذلك الوغد فلا بأس عليه فهو اليوم ميت بلا شك» . ثم أضاف إلى ذلك وهو يشير إلى الرجل ذي القلنسوة الحمراء قائلاً : «إنه لم يكن بحاراً مطلقاً على أي حال ، ولكن من أين أتيت أنت؟» .

فقلت له : «حسن لقد أتيت لأستلم السفينة يا سيد «هاندز» ، فاعتبرني من الآن رئيسك إلى حين صدور أوامر أخرى» .

فنظر إليّ شذراً ولم ينطق ببنت شفة ، وقد عاود وجهَه شيء من

الاحمرار مع كون مظاهر المرض الشديد كانت لا تزال بادية عليه ، وكان لا يزال مستمراً في دفع نفسه وإسنادها كلّما اهتزت السفينة .

ثم قلت بهذه المناسبة : «إني لا أسمح برفع العلم الأسود يا سيد «هاندز» ، وإني مستميحك عذراً في أن أنزل ذلك العلم ، فإن إنزاله خير من بقائه» .

ثم رفعت طرف الشراع وأسرعت إلى حبل العلم الأسود المقوت فأنزلته وقذفت به إلى اليم ، وقلت وأنا ألوّح بقبعتي في الهواء : «فليحي الملك ! وهذه نهاية الربان سلفر» .

فجعل «هاندز» يرمقني بمكر واهتمام وهو معتمد بذقنه على صدره ، ثم قال أخيراً : «أظن أيها الربان «هوكنز» أن الذي تريده هو أن تذهب بالسفينة لترسو على الشاطئ الآن ؛ فهلم بنا نتكلم في الموضوع» .

فقلت : «نعم يا سيد «هاندز» تكلم بكل ارتياح» . ثم ذهبت لإتمام بقية طعامي بشهية زائدة .

فابتدأ يقول وهو يخبط بخفة وضعف على الجثة الهامدة : «هذا الرجل اسمه «أوبريان» وهو إيرلندي ، وقد رفعنا أنا وهو الشراع قاصدين الإقلاع بها والرجوع إلى حيث ابتدأنا . حسن ، هو الآن ميت ، إنه ميت كالكرش ، ولا أعرف من الذي سيبحر بالسفينة ، ولست أرى أنك قادر على ذلك بغير إرشادي ومعاونتي ، فعليك إذاً أن تعطيني خبزاً وشراباً وقطعة قماش أو منديلاً قديماً لأضمد به جراحي ، وإني مرشدك كيف تسيّرها وهذا كل ما أريد قوله لك بصراحة» .

فقلت له : «سأخبرك بشيء واحد وهو أني لست ذاهباً إلى ميناء الربان «كيد» ، وإنما أقصد الذهاب إلى المدخل الشمالي لأرسو بها

بهدوء هناك» .

فصاح قائلاً : «حقاً ! لقد نطقت بالصدق ، وإني لست بذلك الغبي اللئيم بعد ذلك ، فإنه يمكنني أن أفهم ، أليس كذلك ، فقد بلوت حظي ، وها أنا راجع بصفقة المغبون ، وأنت الذي في يدك قيادتي ، فهل نذهب إلى المدخل الشمالي؟ لمَ لا ، لا خيار لي مطلقاً ! فإني سأعاونك لتسير إلى قفص الإعدام وبِالله إني لفاعل ذلك» .

وكان الأمر على ما ذكر ، فقد كان معقولاً ، واتفقنا على ذلك في الحال ، وفي غضون ثلاث دقائق كنا قد أقلعنا بالسفينة وسرنا مع الريح حول شاطئ جزيرة الكنز بسهولة تامة يحدونا أمل في الوصول إلى الجهة الشمالية قبل الظهر فنعبر إلى المدخل الشمالي قبل ارتفاع الماء حتى نرسو بسلام وننتظر حتى يذهب الجزر بالماء ليتيسر لنا النزول إلى اليابسة .

وربطت بعد ذلك ذراع الدفة ، ونزلت إلى صندوقي وأخرجت منه منديلاً حريرياً ناعماً كان لأمي ، وقد ساعدته في تضميد فخذه المجروح ، وبعد أن أكل قليلاً وشرب جرعتين من البراندي ، دب فيه دبيب الحياة ، وجلس معتدلاً وصار صوته عالياً واضحاً ، وأضحى على العموم شخصاً آخر .

وساعدنا الريح كثيراً ، فكنا نندفع معه كالطير ، وشاطئ الجزيرة يمر بنا كلمح البصر ، والمنظر يتغير أمامنا كل دقيقة ، وسُرعان ما غادرنا الأرض العالية وسرنا بجوار أرض سهلة رملية تتخللها أشجار قليلة قصيرة من الصنوبر ، وبعد قليل ابتعدنا أيضاً ودرنا حول التل الصخري في شمالي الجزيرة .

وقد سرّتني رئاستي الجديدة للسفينة كثيراً ، وطاب لي الاستمتاع بالجو الرائق ذي الشمس المشرقة ومناظر الشاطئ المختلفة ، وصار في

حوزتي أشياء كثيرة ، وقد ارتاح ضميري الذي كان يؤنبني على تركي رفاقي بفضل ما أحرزته من نصر باهر ، وأمسيت لا ينقصني شيء أرغب فيه ، لولا نظرات مراقب الحركة التي كانت ترسم أثري بابتسام أينما ذهبت على سطح السفينة ، وكانت تلك الابتسامات التي لا طائل تحتها تدل على الألم والضعف ، فهي ابتسامة رجل هرم أنهكه التعب ، وكان تصرفه ينمُّ عن خيانة وسخرية ، وكان أوضح دليل على ذلك ما كان من شدة مراقبته لي وأنا ماضٍ في عملي .

- ٢٦ -
هاندز وأوبريان

اتجه هبوب الريح إلى ناحية الغرب ، فكان ملائماً تماماً لهدفنا ، إذ كان مسيرنا من ركن الجزيرة الشمالي الشرقي إلى زاوية المدخل الشمالي ، وكذلك الأمر عندما لا يكون باستطاعتنا الرسو ، ولم نكن لنجسر على الوصول بالسفينة إلى الساحل حتى يرتفع الماء بالمد ، وقد أعلمني مراقب الحركة «هاندز» كيف أرسو بها ، فتمّ لي ذلك بعد أن حاولت مراراً ، ثم جلسنا سوياً لتناول الطعام مرة أخرى ، وقال أخيراً وهو يبتسم ابتسامته المريبة : «أيها الربان ، هذا «أوبريان» رفيقنا القديم ، وأظن أنه ينبغي لك أن تقذفه من على سطح السفينة ، وما اعتدت أنا الاهتمام بمثل هذا ، بيد أنني غير مسؤول عن موته ، ولكنني لست أرى الخير في بقائه هنا ، تزيناً للمكان ، ولا أحسب سيدي إلاّ معي في ذلك؟» .

فأجبته : «إنني لا أقوى على قذفه ، وإني كاره كذلك القيام بهذه المهمة ، وأرى شخصياً أن يظل راقداً في مكانه كما هو» .

ثم مضى في حديثه وهو يغمز بطرفه قائلاً : «إن الهسبنيولا سفينة منحوسة الطالع ، فقد أدى حظها العاثر إلى مقتل عدد وفير من بحارتها ، فقضى أكثر ملاحيها ضحية شؤمها مذ ركبنا البحر في «برستول» ، حتى إنني ما شهدت سفينة أسوأ منها حظاً ، فهذا «أوبريان» جثة هامدة ، أليس كذلك؟ بيد أنني لست من أهل العلم ، أمّا أنت ففتى قد أخذت بنصيب من القراءة والكتابة والحساب ، فهل لك أن تخبرني صراحة ما إذا كنت تعتقد بأن الرجل إذا مات أدركه

الفناء إلى الأبد ، أم إنك ترى بأنه سوف يُبعث خلقاً جديداً» .

فأجبته : «يمكنك أن تقتل الجسد ، أمّا الروح فلا سلطان لك على مسّها بسوء يا سيد «هاندز» ، وتابعت القول : «إن «أوبريان» هناك في العالم الآخر وربما هو يتوقعنا» .

فقال : «آه ، تعساً لهذا ، فلا فائدة لنا اليوم إذا ما قتلت جماعات ، حيث أن ذلك مجرد ضياع للوقت ما داموا سيبعثون مرة أخرى ، بيد أن اختياري يدلني على أنه لا قيمة للأرواح وأني منتظر ما عساه أن يصيبني من هذه الأرواح يا «جيم» ، وها أنت قد حدثتني بمزيد الحرية فهل لك بأن تشفق عليّ وتنزل إلى العنبر فتحضر لي زجاجة من النبيذ ، فإن تأثير البراندي شديد فيّ» .

ثم بدا لي بأنّ تردد مراقب الحركة لم يكن بالأمر العادي ، وتبيّنت بأن لا صحة مطلقاً لما زعمه من إيثار النبيذ على البراندي ، فلا بد أن يكون المقصود غرضاً آخر ، إذ كان من الواضح أنه أراد أن أغادر سطح السفينة ، غير أنني ما عرفت لذلك سبباً ، ثم إن عينيّ الرجل ما كانتا لتقويا مطلقاً على التحديق بي ، فكانتا تختلجان أماماً وخلفاً وصعوداً وهبوطاً ، فتارة يقلّب بصره في السماء ، وطوراً يحدق بجثة «أوبريان» الهامدة ، وكان لا ينفك ساعة عن الابتسام ، ثم يخرج لسانه بشكل يدل دلالة واضحة على شدة قلقه وعظيم اضطرابه ، حتى أن الطفل الصغير ما كان ليشك في عزمه على الغدر ، بيد أنني كنت سريع الجواب ، ثقة مني بما ينجم عن ذلك من عظيم الفائدة حتى يمكنني بغاية السهولة أن أخفي ما يتنازع قلبي من خلجات الشك في أمره .

فسألته ما إذا كان يريد مقداراً من النبيذ ، وقلت بأن هذا خير له وأبقى ، ثم استفهمت منه عمّا إذا كان يريد أن يشرب من النبيذ الأحمر أم الأبيض .

فأجاب : «كلاهما عندي سواء ما دمت توافيني بكمية كبيرة ، وما الفرق؟» .

فأجبته : «حسن يا سيد «هاندز» سأوافيك بها حالاً ، مع أني سأجشم نفسي كثيراً حتى أحصل عليها» .

ثم هرولت بعد ذلك إلى السلم الذي يصل إلى العنبر ، متعمّداً أن أحدث ضوضاء عالياً بقدر ما أستطيع ، حيث خلعت نعلي ، وانسللت بخفة مسرعاً دون أن يسمعني على سلم العنبر الأمامي فتسلقته ، وأطللت برأسي من عنبر الملاحين وأنا موقن أنه لا يتوقع أن يجدني هناك ، ومع ذلك فقد أخذت بأسباب الحذر ، وما لبثت أن تحقّقت كل شكوكي .

كان «هاندز» يزحف من موضعه على يديه ، ورغم أنّ ساقه كان يؤلمه كثيراً عندما كان يتحرك فإني كنت أسمعه يئن وهو يجر نفسه بسرعة فوق سطح السفينة ؛ وفي نصف دقيقة كان قد وصل إلى مكان تصريف الماء وأخرج سكيناً كبيراً ، أو بالأحرى سيفاً قصيراً من وسط حبل مطوي ، وكان ملوّثاً بالدماء حتى مقبضه ، فجعل ينظر إليه لحظة ، وهو يصرف بأنيابه ثم اختبر حدّه براحة يده ومن ثم أخفاه تحت معطفه القصير ، ورجع إلى مكانه في جوار حافة السفينة .

وقد كان هذا كل ما أردت معرفته ، فقد أضحى «هاندز» قادراً على التحرك من مكان إلى آخر ، وصار الآن مسلحاً ، أما وقد وقفت حجر عثرة في سبيله فلا بد أنه عزم الآن على التخلص مني ، وعوّل على قتلي . ولست أدري ماذا عساه كان يقصد بعد القضاء علي ، ولعله كان يريد محاولة الزحف إلى طرف الجزيرة الآخر ، من المدخل الشمالي إلى المعكسر بين المستنقعات ، أو لعله قصد أن يطلق المدفع حتى يسمعه رفاقه ويأتوا لمعاونته .

ولكني شعرت بأنه يمكنني الاعتماد عليه في شيء واحد تشترك فيه مصلحتانا معاً ، وذلك بشأن إرساء السفينة ، فكل منا كان يروم أن تصل سالمة إلى مكان أمين ، حتى إذا ما أتى الوقت أمكن إخراجها منه بسهولة تامة وبأقل المخاطر ، وأيقنت بأني لن أُستهدف للخطر قبل إتمام هذا العمل .

وما كان التفكير في ذلك ليكف يدي عن العمل وجسمي عن الحركة ، فقد ذهبت خلسة إلى العنبر ولبست حذائي ، ثم أخذت أول زجاجة نبيذ وقعت في يدي ، وظهرتُ أمامه فوق سطح السفينة وهي في يدي ، وما أدركته حتى رأيته طريحاً كما تركته ، منكمشاً في موضعه ، مسبلاً عينيه ، وكأن بصره لا يقوى على الضوء ، فرفع عينيه إليّ عندما أتيت ، ثم كسر رقبة الزجاجة بمهارة خبير ، وشرب جرعة كبيرة ، ثم ردد النخب المعتاد وهو يشرب «حظ الجميع» وسكت برهة وأخرج عوداً من التبغ ورجاني أن أقطع له منه قطعة ليمضغها ، وقال : «اقطع لي قطعة من هذا فليس معي سكين ، وليس فيّ قوة كما كنت ، آه يا جيم ، يا جيم ، يا جيم إني سئمت المكث هنا فاقطع لي قطعة ، فإني من المشتاقين للرجوع إلى داري البعيدة» .

فقلت له : «حسن ، سأقطع لك جزءاً من التبغ ، ولو أنني في مكانك وشعرت بضعف في جسمي لأكثرت من الصلاة والدعاء» .

فقال : «لماذا؟ خبّرني الآن لماذا» .

فأجبته مستنكراً : «تقول لماذا ! وقد كنت تسألني منذ قليل عن الأموات ، فأنت رجل خائن عشت في الضلال وفعل المحرمات والكذب وسفك الدماء ، فهذا رجل قتلته وهو ملقى تحت قدميك حتى هذه اللحظة ، ثم تسألني لماذا؟ الرحمة عليك يا هاندز» .

وكان في كلامي شيء من الحمية لأني كنت أفكر في السيف

الملوث بالدم الذي أخفاه تحت معطفه ، وأتأمل نواياه السيئة حيث أراد أن يقضي عليّ ، أمّا هو فقد شرب جرعة كبيرة من النبيذ ، وصار يتكلم بتؤدة غير اعتيادية قائلاً : «جُبتُ البحار منذ ثلاثين عاماً رأيت خلالها الطيب والخبيث والخير والشر ، وشهدت الجو المعتدل والجو المضطرب ، ونفاذ المؤن ، وأشرفت على الطعان والنزال وغير ذلك ، وبناء عليه أخبرك أني ما رأيت قط خيراً ينتج خيراً ، فالفائز البادئ بالشر والأذى ، وأن لا خوف من الأموات . هذه مُثُلي وهي لا تزال كذلك» ، ثم قال وقد غيّر صوته فجأة : «والآن أصغ إليّ ، كفانا هذا الهذيان ، إن المد قد أصلح لنا الحال ، فافعل ما آمرك به أيها الربان «هوكنز» ونحن ندخل الشاطئ بسلام وننتهي» .

فما انتهى من كلامه حتى كان قد بقي لنا مسافة لا تتجاوز الميلين ، إلاّ أن الملاحة صارت في غاية الدقة ، فالدخول إلى هذا الميناء الشمالي ، بالإضافة إلى كونه قليل العمق وضيّقاً ، كان متعرّجاً إلى الشرق والغرب ، حتى إنه يتوجب على السفينة أن تُسيَّر باعتناء ومهارة حتى تدخل إليه ، وأعتقد أني كنت مساعداً ماهراً وسريعاً في الحركة ، وأني متأكد أن «هاندز» كان مرشد قناة حاذقاً ، فإننا صرنا نسير من هنا إلى هنا ونحن نلامس السواحل ، إلاّ أننا مع هذا كنا في غاية الاحتراز والدقة .

وما كدنا نجتاز قمم التلال التي على القناة ، حتى انطبقت الأرض وراءنا ، وقد كانت شواطئ المدخل الشمالي كثيرة الأشجار مثل شواطئ الميناء الجنوبية ، إلاّ أن المسافة بين جانبي المدخل كانت أطول وأكثر ضيقاً ، فهي أشبه بمصب النهر المتسع ، وقد رأينا أمامنا في الطرف الجنوبي بقايا سفينة غارقة وهي بحالة يرثى لها ، ويظهر أنها كانت سفينة عظيمة ذات ثلاثة صواري ، وقد تعرضت لتقلبات الجو

مدة طويلة حتى نبتت على جوانبها الحشائش البحرية وغطت سطحها النباتات والأعشاب التي تنمو على الشواطئ، ثم هي أينعت فيها وأزهرت ، فما كان أشد تأثير هذا المنظر فينا ، إلاّ أنه كان دليلاً على سكون المرفأ الدائم .

قال «هاندز» : «انظر هناك الآن ، فإن هذه نقطة جميلة لإرساء السفينة فيها ، فهي بقعة رملية مسطحة وليس فيها أثر مشي للقطة ، وحولها الأشجار من كل جانب ، والزهر نابت على سطح تلك السفينة القديمة فكأنها حديقة غناء» .

ثم سألته : «وكيف نخرجها بعد أن ترسو في هذا المكان؟» .

فأجاب : «وهل في ذلك صعوبة؟ ما عليك إذا أردت إخراجها إلاّ أن تربط حبلاً إلى شجرة صنوبر على الشاطئ الثاني عندما يهبط الماء ، وتربط طرفه الآخر على السحاب ، ثم تنتظر حتى يأتي المد ، فعندما يرتفع الماء تشد الحبل بغاية السهولة . والآن قف هنا يا «جيم» ، فقد اقتربنا من البقعة الآن ، فقلل من سرعة السفينة ، فهي مسرعة إلى اليمين» . وكان يقول : «هكذا ، اعتدل ، إلى اليمين ، إلى اليسار قليلاً ، اعتدل ، اعتدل» .

وراح يصدر الأوامر على هذا النحو ، وجعلت أطيعه طاعة عمياء ، حتى صاح أخيراً قائلاً إلى اليسار ، فأمسكت بيد الدفة وقد دارت السفينة مسرعة ، ودخلت في الشاطئ القليل الماء .

وقد شغلني سروري بهذه المناورة حتى نسيت مراقبتي الشديدة لمراقب الحركة ، وحتى في تلك اللحظة كنت مهتماً ومنتظراً رسو السفينة فنسيت الخطر المحدق بي ، ووقفت أنظر من فوق اللوحة التي تلي يد الدفة ، وأراقب الأمواج التي تتطاير من مقدم السفينة ؛ وكنت على وشك الوقوع في يده بلا عناء ، لولا حدوث اضطراب جعلني

ألتفت برأسي ، فربما كان هذا بسبب سماعي أزيزاً ، أو أني رأيت بطرف عيني خيالاً ، وربما كان مجرد إلهام ؛ ولكن على أي حال ، رأيت عندما التفت خلفي أن «هاندز» قد قطع نصف الطريق وهو آت إلي والسيف القصير في يده اليمنى .

ولا بد أن نكون قد صرخنا نحن الاثنين معاً عندما تقابلت أعيننا ، إلاّ أن صوتي كان صوت خائف ، وكان صوته خواراً كخوار الثور المهاجم ، وفي اللحظة ذاتها قذف بنفسه إلى الأمام وقفزت إلى جنب متجهاً نحو المؤخرة ، وبينا أنا أفعل ذلك تركت يد الدفة فاتجهت بسرعة مع الريح ، وأظن أن هذا كان سبباً في نجاة حياتي ، فقد ضربت يد الدفة «هاندز» في صدره وطرحته لحظة فاقد الوعي .

وقبل أن يفيق من أثر الصدمة ، كنت قد خرجت سالماً من الركن الذي دُفعت إليه ، فصار جميع السطح خالياً أمامي ، فوقفت إزاء السارية الكبرى تماماً وأخرجت مسدسي من جيبي ثم أحكمت التصويب نحوه ، مع أنه قد اعتدل وصار يتبعني ، ثم أنزلت الزناد ، فوقع إلاّ أنني لم أر ضوءاً للطلق ، ولا سمعت له صوتاً ، فقد أفسد ماء البحر حشوه ، فلعنت نفسي لإهمالي ، ولو أنني أعدت تعبئة سلاحي الوحيد وأتممت إعداده لما وقعت في هذا المحظور ولا صرت كشاة تجري أمام جزارها .

ومع كونه كان جريحاً إلاّ أنني استغربت سرعة حركته ، فكان شعره الأشعث يتدلى على وجهه ، وكان وجهه أحمر كالدم لفرط عجلته وحدة غيظه ، وما كان الوقت ليساعدني لأجرب مسدسي الثاني ، أو بالأحرى لم أكن راغباً في ذلك ، حيث اعتقدت بأن ذلك لن يجدي نفعاً . وقد كان واضحاً لي أن هناك شيئاً واحداً ، وهو أنه لا ينبغي لي أن أتقهقر أمامه لئلا يصدمني بلكمة في مقدمة السفينة

كما كاد يفعل عند المؤخرة منذ لحظة ، فإذا تمكن مني وأنا كذلك فهو لا بد مدخل ثمانية أو تسعة إنشات من السكين الملطخ بالدماء في جسمي ، فيفرّق بيني وبين الحياة ، فوضعت راحتي على السارية الكبرى ، التي كانت عظيمة الحجم مائلة إلى الضخامة وانتظرت ، وكانت أعصابي في غاية التوتر من شدة الاضطراب .

فلمّا رآني قاصداً الصعود وقف هو أيضاً ، ثم مرت لحظة أو اثنتان وهو يتظاهر بالحركة وأنا أهم فوق السلم في كل دفعة ، وقد كان ذلك كاللعب الذي كنت ألعبه كثيراً في منزلنا على صخور ملجإ التل الأسود ، بيد أنه لا ريب عندي في أن قلبي لم يسبق له أن خفق بهذه الشدة ، ومع ذلك فكل ما يمكنني قوله إنها لعبة خطرة ، وقد ظننت أنه يمكنني الثبات فيها أمام بحار طاعن في السن مجروح الفخذ كهذا ، الأمر الذي زادني شجاعة بلا ريب ، حتى صرت أفكر في الخاتمة التي تنتهي بها هذه المناورة ، غير أنني كنت أرى أنه في استطاعتي تطويل المناورة ، إلاّ أنه ما كان لي أمل في النجاة أخيراً .

هذا ، وبينما كنا على هذه الحال ، إذ لطمت الهسبنيولا اليابسة ، وتمايلت وهي فوق الرمل ، ثم استدارت ومالت إلى ناحية بلغت درجة الميل فيها ٤٥ درجة ، ودخلها الماء ، وصار في داخلها كأنه بركة بين السطح والحافة .

فانقلبنا كلانا وتدحرجنا نحو مجرى الماء ، وكانت جثة ذي القلنسوة الحمراء تنحدر وراءنا وقد امتد ذراعاه كما كانا ، وكنا متقاربين إلى درجة أن رأسي أتت تحت قدمي مراقب الحركة الذي لكزها بقدمه لكزة جعلت أسناني تقرقع . ورغماً من اللطمة وغيرها فإني كنت أول من انتصب قائماً على قدميه ، وأمّا هو فقد اختبل من الجثة الهامدة ، وميل السفينة الفجائي الذي جعل سطحها غير صالح

له ، فكان ينبغي لي أن أبحث عن مكان أنجو منه ، وأن يكون ذلك في الحال لأن خصمي يكاد يلامسني . وفي أسرع من رجع الصدى كنت قد نفذت ما خطر لي وتسلقت فوق الأمراس التي تدعم السارية الأمامية ، وجعلت أبدل يداً فوق أخرى دون أن أحرّك شفة أو أردد نفساً حتى استويت عند التقاطع الضيق .

ولقد أنجتني السرعة في اتخاذ الحيطة للنجاة ، حيث ضرب «هاندز» السكين تحت قدمي بنحو نصف قدم ، وأنا مجدّ في تسلقي ، ثم وقف باهتاً ، وفمه مفتوح ووجهه مرفوع إليّ ، فكان تمثالاً متقناً للاستغراب وخيبة الأمل .

فلمّا اتسع الوقت أمامي ، انتهزت الفرصة لأعيد تعبئة مسدسي وأعد الآخر للعمل حتى أستوثق الأمان ، فابتدأت في إخراج حشو الآخر وإعداده من جديد .

وقد أزعجت «هاندز» عمليتي هذه ، وجعلته يضطرب دفعة واحدة ، فابتدأ يرى أنه أبدل من حظه نحساً ، وبعد أن تردد تردداً ظاهراً أمسك بأمراس السارية ببطء متألماً وصار يتسلقها بجهد واضعاً السكين في فيه ، وكان ذلك بغاية البطء وهو يجهد نفسه في رفع ساقه المجروحة ، فما كاد يصل ثلث الطريق حتى كنت قد أتممت استعدادي ، ثم خاطبته وأنا ممسك في كل يد مسدس وقلت : «إذا صعدت درجة أخرى يا سيد «هاندز» فإني جاعل مخك يطير في الهواء !» . وأردفت القول : «إن الأموات لا تعض» .

فجمد في الحال ، وقد رأيت من حركات وجهه أنه كان يفكر ، وكانت عمليته في غاية البطء والإجهاد ، حتى إني صرت أسخر منه وأنا متمكّن بملاذي الجديد ، ثم تكلم أخيراً بعد جهد ، وكان وجهه ما زال ينم عن شدة الاضطراب ، وكان قد تحتم عليه إخراج السكين من

فيه ليتمكن من الحديث ، إلاّ أنه لم يتحرك منه شيء عدا ذلك ، قال : «يا جيم ، أعتقد أن كلاًّ منّا غدر بزميله ، فهلم بنا نتعاقد على عهد ، إني كنت على وشك التغلب عليك لولا رشاقتك ، ولكنني عاثر الجد لا حظّ لي ، وإني مخبرك أني سأضرب ضربة بحار ماهر وهي لا بد مودية بصبي مثلك يا جيم» .

فكنت أسمع كلامه وأنا أبتسم غير مكترث كأني أشرب الماء ، وأنا في غروري كالديك الذي صعد فوق الجدار ، وإذا بيده اليمنى قد ارتفعت فوق كتفه ، ثم سمعت صوتاً كالسهم خرج يرنّ في الهواء ، فشعرت على حين غرة بضربة ثم ألم حاد ، وإذا بي قد اشتبك كتفي بالصارية ، وفي أثناء شعوري بالألم الشديد والمفاجأة الغريبة التي حصلت في تلك اللحظة ـ ولا يمكنني أن أقول إن هذا كان بوعيي لأني متأكد أن الإصابة كانت دون عمد ـ فإن مسدسيّ الاثنين أفلتا مني ووقعا من يدي ولكنهما لم يقعا وحدهما ، فقد تملصت قبضة الرجل من الحبل وهو يصيح صياح مختنق ، ثم سقط في الماء ورأسه إلى أسفل .

- ٢٧ -

ببغاء فلنت

ارتفعت الصواري فوق الماء بسبب ميل السفينة ، وكنت وأنا في مقعدي فوق التقاطع الضيق لا أرى شيئاً سوى الخليج من تحتي ، وأما «هاندز» الذي لم يكن مرتفعاً حيث أنا ، فكان أقرب مني بالضرورة إلى السفينة ، وقد سقط بيني وبين الحافة ، ثم طفا مرة على سطح الماء وقد علا شدقيه زبد من الماء والدم ، ثم غطس إلى الأبد . فلمّا هدأت الأمواج كنت أراه مستقراً مكوّماً في قاع البحر الصافي اللامع المنعكس في ظل جوانب السفينة ، وقد أحاطت بجسمه سمكة أو اثنتان ، وكان في بعض الأوقات يظهر كأنه يتحفز للقيام نظراً لاهتزاز الماء ، ولكنه كان ميتاً بلا شك ، فقد أصيب بالرصاص ، ثم غرق فصار طعمة للأسماك في المكان نفسه الذي أراد أن يقتلني فيه .

وما إن تحققت من ذلك حتى بدأت أشعر بدوار وغثيان وخوف ، وكان الدم الساخن يجري في ظهري وصدري ، وقد شعرت بوخز السكين في المكان الذي ألصقتني به إلى الصارية كأنها قطعة من الحديد المحمى بالنار في سخونته ، وليس هذا كل ما أزعجني ، فقد كان في وسعي تحمل هذه الآلام بلا تذمر ، وإنما كان خوفي الأكبر من وقوعي من فوق التقاطع الضيق في الماء الأخضر الراكد بجانب «هاندز» . فتمسكت بيديّ حتى آلمتني أظفاري ، وكنت أطبق عيني كأني أُبعد الأخطار بذلك ، ثم رجعت إلى صوابي ، وقد هدأ روعي وخف نبضي ، فصرت مالكاً لحواسي .

خطر لي في البدء أن أخرج السكين ، ولكني خفت أن تكون قد

نفذت إلى غور بعيد في جسمي ، أو أن أعصابي لم تكن تساعدني على ذلك ، ثم خُيّل إليّ أني أخرجتها بشدة ، إلاّ أنها كانت بسيطة بحيث تمكّنت من إخراجها ، وبالفعل كانت السكين قد أصابتني في أبعد مكان يمكن إصابتي فيه ؛ فقد كانت عالقة بجزء بسيط من جلدي ، فلمّا أخرجتها قُطع ذلك الجزء ، فجرى الدم متدفّقاً ، ولكني تمالكت نفسي ثانية وبقيت معلقاً من معطفي وقميصي فقط .

ثم عُدت وتخلصت من معطفي وقميصي أيضاً ، ثم نزلت إلى السطح بوساطة أمراس الجانب الأيمن من السفينة ، فلم يكن ثمة ما يحملني على المخاطرة وأنا في هذا الاضطراب من النزول على الأمراس المعلقة في الهواء التي تلي الجهة الأخرى التي سقط منها «هاندز» منذ قليل . ونزلت إلى العنبر وعملت كل ما في وسعي لتضميد جرحي ، فكان يؤلمني جداً ويتدفق دمه كثيراً ، إلاّ أنه لم يكن عميقاً وما كان ليسبب لي أذىً عندما أستعمل ذراعي ، ثم نظرت حولي ، وبما أن السفينة أصبحت ملكي بكل معنى الكلمة ، فقد صرت أفكر في تخليصها من آخر ركابها وهو «أوبريان» الميت .

كان مُلقىً بجوار حافة السفينة كما ذكرت ، حيث كان راقداً مثل الدمية البشعة غير المستظرفة ، فكان جسمه في الحجم كجسم الأحياء بالفعل ولكن ما أبعد الفرق بين لونه ولون الأحياء وحسن منظرهم ، فكان وهو في هذا الوضع يسهل عليّ فعل ما أريد به ، وبما أن المخاطر المحزنة التي مرت بي قد أبعدت عني كل وجل من الأموات ، فقد جذبته من صدريته كما يُحملُ كيس النخالة وألقيته بدفعة قوية في اليم من على سطح السفينة ، فسمع له صوت عندما اصطدم بالماء ، وأما قلنسوته الحمراء فقد اقتلعت وبقيت طافية فوق سطح الماء ، وبعد أن هدأ اضطراب البحر رأيته هو و«هاندز» راقدين وكلاهما يتموج مع

حركة الماء ، وكان «أوبريان» أصلع الرأس مع كونه شاباً ، فكان راقداً ورأسه الصلعاء متقاطعة مع ركبتي قاتله بينما كانت الأسماك السريعة الحركة تجري من فوقهما .

ها قد صرت وحدي فوق السفينة ، وكان المد قد بدأ في الرجوع ، والشمس على وشك الغروب ، حتى إن الظلال المنبعثة من أشجار الصنوبر كانت ظاهرة على سطح الماء في المرفإ ، وكانت آثارها تُرى متقطعة على سطح السفينة ، وقد نشطت حركة نسيم الليل ، ومع أن التلال وقممها كانت تحجزه من الشرق ، إلاّ أن مجموع الأمراس التي في القلوع والصواري كانت تهتز بأزيز ضئيل وكذلك كانت الأشرعة تلوح في الهواء .

بعد ذلك بدأت أرى أن السفينة ما برحت في خطر ، فأنزلت الشراع الصغير على السطح ، ولكن إنزال الشراع الأكبر لم يكن بالأمر الهين ، وكان من الطبيعي تدلي الشراع الكبير إلى الخارج جهة البحر عندما مالت السفينة ، وقد غطس طرفه نحو قدم أو قدمين في الماء . وكان هذا في نظري أكثر خطراً ، حيث كان الضغط شديداً حتى لم أتجاسر على إصلاحه ، وأخيراً قطعت أمراس الشراع بسكين ، فوقع الجزء الأعلى منه في الحال ، وصار جسماً عظيماً منتفخاً من القماش يسبح في الماء ، ورغم معاناتي في شدّها فما كان في استطاعتي إنقاذها من ميلها ، ولذا فوّضت فيما عدا هذا أمر السفينة للحظ كما أسلمت له أمري .

وفي هذه اللحظة عم الظلام كل المرفإ ، وكان آخر شعاع على ما أذكر يضيء من بين الألواح الخشبية ويتلألأ كالجواهر على سطح السفينة الغارقة . وكنت قد ابتدأت أشعر بالبرد ، وكان الماء يتراجع بسرعة بتأثير الجزر إلى جهة البحر ، وكانت السفينة مائلة على أحد جانبيها .

ولم ألبث أن زحفت إلى الأمام وتطلعت ، فظهر لي الماء غير ضحل ؛ ثم أمسكت الحبل المقطوع كآخر ضمان لي وتدليت من فوق سطح السفينة بهدوء ، فلم يبلغ الماء أكثر من خصري ، وكان الرمل ثابتاً تعلوه آثار التموج ، فخضت حتى وصلت إلى الشاطئ جذلاً وقد تركت الهسبنيولا مائلة على جنب ، وشراعها الأكبر منشور على سطح الماء في الخليج .

كانت الشمس ساعتئذ قد اختفت خلف الأفق تقريباً ، وكان النسيم عليلاً وهو يتخلل أشجار الصنوبر المتمايلة في الغسق .

وقد تركت البحر بعد طول هذا العناء ، بيد أنني لم أنقلب صفر اليدين وإنما رجعت بالسفينة سالمة بعد أن طهرت سطحها من القرصان وأعددتها ليركب جماعتنا لتقلع بهم ، فلم أكن لأستطيب شيئاً مثل عودتي ثانياً إلى الدريئة لأفاخر بما أصبته من الظفر . صحيح أنهم سيوجّهون إليّ سهام اللوم ؛ بيد أن استرداد الهسبنيولا سيكون أفضل رد لإسكاتهم جميعاً ، وكان يطربني أن يعرف الكابتن «سمولت» أني لم أضيّع وقتي سدى .

وقد كان السرور يغمرني إذا ما فكّرت في ذلك ، فاتجهت نحو الدريئة حيث كان رفاقي ، وكنت أذكر جيّداً أن النهر الذي يلي الشرق ، والذي يصب في مرفإ الربان «كيد» ، يجري من التل ذي القمتين الذي على يساري ، فاتجهت إلى تلك الجهة حتى أتمكن من عبور المجرى قبل أن يتسع ، وكانت الغابة مفتوحة أمامي ، وبعد أن سرت في أسفل التل درت حول زاويته الأخيرة ، وخضت بعد ذلك بمسافة قصيرة في الماء حتى نصف ساقي .

وقد وصلت بعد ذلك إلى قرب المكان الذي قابلت فيه «بن غن» ؛ ثم جعلت أسير حذراً محترساً ملتفتاً إلى كل جهة ، وكان الليل ينشر

ذوائبه بسرعة ، وما تمكنت من العبور بين الرأسين حتى بَصُرت بشعاع نار تتقد منعكسة في السماء القاتمة الظلام ، فظننت أن رجلاً يطهو عشاءه ، ومع ذلك فقد استغربت في نفسي كيف ساغ له أن يظهر نفسه بهذه الكيفية من غير احتراس ، فما دام قد تسنّى لي أن أراه على هذا البعد ، فلا ريب في أن «سلفر» لا بد أن يراه من مكمنه على الشاطئ بين المستنقعات .

ثم جعل الليل يمد على الأرض ظلاله ، فكان كل ما أستطيعه هو أن أسير متلمّساً سبيلي على قدر الاستطاعة إلى المكان الذي أقصده ، وكانت التلال من خلفي و«المنظار» على يميني وكأنما ضؤلت في نظري ، وكانت النجوم قليلة العدد ، غير متألقة البريق ، فكنت أسير وسط الأعشاب ، وأنحدر في وهاد رملية في أثناء تنقّلي في تلك المنطقة .

وقد لمحت ضوءاً بدّد حجب الظلام من حولي ، فرفعت بصري ، وشهدت القمر يطلع على قمة المنظار ، وقد ساعدني هذا الضوء على الإسراع بقطع المسافة المتبقية من رحلتي ، فتارة كنت اتئد في السير ، وطوراً أعدو مسرعاً ، حتى قربت من الدريئة ، وقد عيل صبري ، ولكنني ما إن انتهيت إلى أول الأجمة التي أمامه حتى دلتني فطنتي على وجوب التؤدة والاحتراس أكثر من قبل مخافة أن تنتهي بي خاتمة المطاف ويقتلني أحد رفاقي برصاصة على غير علم منه .

وكان البدر لا يزال مستمرّاً في ارتفاعه إلى كبد السماء ، حتى أمسى ضوؤه الساطع يشمل الأجزاء المنبسطة من الغابة ، وقد رأيت أمامي تماماً ضوءاً أحمر يتلألأ بين الأشجار ، وكان أحمر نارياً وهو يقتم من لحظة إلى أخرى كأنه نار موقدة ، وقد بدأ سعيرها يخبو من الجمر ، على أنني ما استطعت أن أدرك كنه هذا الشيء وقد كانت

حياتي متوقفة عليه .

ولـمّـا انتـهيت إلى الموضع أخيراً ، كـان القـمـر قـد أضاء طرفه الغربي ، أما بقية جهاته ، والمنزل المحصن ، فكانت لا تزال محتجبة تحت أستار الظلام الذي تتخلله خيوط من ضوء فضي ، وقد أوقدت نار عظيمة إلى الجانب الآخر من الحصن ، وقد تحول وقودها جمراً كان يخالف في منظره ضوء القمر الباهت الساكن ، وما كنت لتسمع صوتاً ولا حركة سوى هبوب النسيم .

تريّثت برهة وقد تملكتني الدهشة المشوبة بالخوف . فما كنّا اعتدنا أن نوقد مثل هذه النيران المتأججة ، حرصاً منا على اتباع أوامر الكابتن ، وكان يحب الاقتصاد في الوقود ، وأشفقت أن يكون دهم صحبي خطب في أثناء غيابي ، فسرت وأنا على أشد ما أكون خوفاً وحذراً .

ثم اقتحمت السياج من مكان مناسب ، حيث كان الظلام شديداً ، وحبوت على يدي وركبتي دون أن أجعل أحداً يشعر بي ، متجهاً إلى زاوية البيت ، وكنت كلّما اقتربت منه كلما زال الاضطراب عن قلبي ، ولم يكن الصوت الذي سمعته ساراً ، فقد شكوت منه مراراً ، إلاّ أنني في هذا الوقت حُبّب إلي سماع أصوات رفاقي وهم يغطون بصوت عال ، وهم آمنون في نومهم ، وكان وقع صوت الحارس وهو يقول «كل شيء حسن» أحب إليّ من أي صوت .

وفي الوقت نفسه كنت متأكداً من أمر واحد ، وهو أنهم لم يكونوا يحسنون الحراسة مطلقاً ، فلو كان «سلفر» وجماعته هم الذين كانوا يزحفون إليهم ، لما بقي واحد منهم حيّاً حتى الصباح ! فخطر في ذهني أن هذا الإهمال كان نتيجة الجرح الذي ألمّ بالطبيب ، وقد لمت نفسي كثيراً لتركي إياهم وهم قلّة بحيث لا يمكنهم تأمين الحراسة .

وفي هذا الوقت كنت قد وصلت إلى الباب ووقفت ، فكان كل المكان مظلماً في الداخل ، حتى إنه ما كان يمكنني تمييز أي شيء بالعين ، وأما الأصوات فكان لا يسمع منها إلا غطيط النائمين المستمر ، وأحياناً حركات تقلّبهم وتحريك شفاههم بصوت خافت .

دخلت بتأن وأنا رافع يديّ إلى الأمام ، والحقّ أنني فكرت في نفسي وأنا أبتسم أنه ينبغي لي أن أرقد في موضعي وأتمتع بمفاجأتي إياهم عندما يجدونني في الصباح ، ولكنّ قدمي اختبطت بجسم لين ، وكانت ساق رجل نائم ، فانقلب وزمجر إلاّ أنه لم يستيقظ من نومه .

وفجأة سمعت صراخاً في وسط الظلام «قطع ذات الثمانية ! قطع ذات الثمانية ! قطع ذات الثمانية ! قطع ذات الثمانية ! قطع ذات الثمانية !» . واستمر تكرار هذه الكلمات دون انقطاع ولا تغير كصوت الطاحون الصغير الرتيب .

وكان ذلك الصوت صوت ببغاء «سلفر» الأخضر اللون المسمّى كابتن فلنت ! كان الصوت الذي سمعته صوت هذا الببغاء وهو ينقر قطعة من قشر الشجر ، فقد كان حارساً أكثر يقظة من الآدميين إذ أعلن عن حضوري بذلك التكرار الممل .

ولم يكن لدي متسع من الوقت لتدبير أمري ، فقد استيقظ النائمون لسماع صوت الببغاء الحاد ، فصاح «سلفر» ساخطاً : «من هناك؟» ، فأدبرت وهممت بالهرب فصدمت شخصاً بقوة ثم رجعت إلى الخلف فإذا أنا قد وقعت بين أحضان رجل آخر ضم عليّ ذراعيه وأمسكني بقوة .

فقال «سلفر» : «أحضر لي مشعلاً يا ديك» ، قال هذا عندما استوثق من وجودي في قبضتهم .

وقد رجع «ديك» وكان قد خرج من ردهة البيت وفي يده مشعل .

القسم السادس
في معسكر الأعداء
- ٢٨ -
الخطأ الكبير

مضت لحظات وأضاءت نار المشعل داخل البيت المحصّن فتحققت أسوأ مخاوفي ، فقد وقع البيت وما فيه من المؤن في حوزة لصوص البحر ، فكان فيه برميل الكونياك ولحم الخنزير والخبز ، وقد ضاعف حزني ما رأيته من عدم وجود أي أسير لديهم ، فحكمت أن أصحابي هلكوا جميعاً واشتد خفقان قلبي شجىً وأسىً لأني لم أكن موجوداً لأستشهد معهم .

كان كل ما بقي من القرصان ستة لم يبق أحد سواهم حيّاً ، وأجاب خمسة منهم نداء «سلفر» ، وقد علت وجوههم الحمرة والانتفاخ من تأثير نومهم المبكر من شدة السكر ، وأمّا سادسهم فقد عجز عن القيام فاستند على مرفقه فقط ، وكان مصفرّ الوجه وقد شد حول رأسه رباطاً ملوّثاً بالدماء يدل على أن به جرحاً حديثاً لم يضمد إلاّ أخيراً ؛ ولا زلت أذكر الرجل الذي أُصيب برصاصة وفرّ هارباً داخل الغابات يوم الهجوم العظيم ، ويغلب على ظني أنه كان هذا الذي رأيته .

وكان الببغاء يجثو على كتف «جون» ، وقد علت «سلفر» صفرة وارتسمت على محياه سيماء التعب أكثر من المعتاد ، وكان لا يزال مرتدياً بذلته التي كان يلبسها عندما أدى رسالته ، إلاّ أنها صارت أكثر اتساخاً مما كانت عليه فقد تلوثت بالطين ومزقتها العيدان الحادة المدببة .

وأخيراً قال : «عجب ! هذا هو «جيم هوكنز» وقد انسل بيننا ، آه ، حسن ، لقد أقبل إلينا آمناً» .

وبعد ذلك جلس فوق برميل الكونياك وأخذ يملأ غليونه بالتبغ .

وقال : «أعطني المشعل يا ديك» ، ولـمّا فرغ من إيقاده قال : «يكفيني هذا يا ولدي ، ضع الشعلة بين كومة الحطب ، وتعالوا أيها المحترمون أيضاً فلا داعي لوقوفكم لأجل السيد «هوكنز» فقد سامحكم دون شك» ، ثم أردف وهو يضغط التبغ في غليونه : «لقد أتيت إلينا يا جيم وصرت بيننا ، إن ذلك ليدهش «جون» الهرم المسكين ، ويسره مسرة عظيمة ، لقد كنت يا بني بالغاً الغاية من الرشاقة عندما وقع بصري عليك لأول مرة ، بيد أنني لا أراك كذلك الآن» .

فلم أجبه على شيء من كلامه كما هو المفروض ، فقد جعلوني مستنداً بظهري إلى الحائط ، فتماسكت في موضعي ، وجعلت أحدق في وجه «سلفر» متظاهراً بالشجاعة ، والحقيقة أن مقراض اليأس كان قد قرض حبات قلبي .

ثم أخذ «سلفر» نفساً أو نفسين من غليونه ، وهو في شدة الارتياح ، وبعد ذلك استأنف حديثه قائلاً : «التفت إليّ يا جيم . . إنك الآن بين يديّ ، وإني كاشف لك عن شيء من ضميري ، فلا أكتمك يا بني أني كنت أشعر نحوك بشيء من الميل والعطف ، لأن هناك شبهاً بيني وبينك يوم كنت فتى غضاً نضر الإهاب ، وكنت أريد أن تشترك معنا وتأخذ نصيبك مثلنا ثم تموت سيداً محترماً ، والآن يا فتاي لا بد لك من ذلك ، إن الكابتن «سمولت» بحار ماهر كما أقر وأعترف إلى الأبد ، إلاّ أنه شديد المعاملة دقيق في نظامه ، فهو يقول دائماً «إن الواجب هو الواجب» وإنه لمحق في ذلك ، هذا ما كان من شأن الكابتن فافهمه جيداً ، أما الطبيب نفسه فقد طار لبه عليك حتى

إنه قال «إنك لغلام جاحد» وخلاصة القول إنه لا يمكنك اللحاق بأصحابك كما أخبرتك لأنهم لن يقبلوك بينهم ، وإنه إن لم تكوّن بنفسك وحدك بحارة لسفينة فلا مفر من انضمامك إلى الربان «سلفر» .

فسرّني ما سمعته من الأخبار إلى الآن ، حيث عرفت أن صحبي لا يزالون أحياء ، بيد أنني لم أصدق ما ذهب إليه «سلفر» من أن جماعة «الحجرة» ـ الدريشة ـ قد أهاج سخطهم تركي لهم فسررت بما سمعته .

ثم استمر «سلفر» في كلامه حيث قال : «لن أقول شيئاً عن وجودك بين أيدينا بكل تأكيد ، ولـمّا كنت على ثقة من أن التهديد لا يجدي ، فإني تارك لك حرية التفكير والتدبير ، فإن شئت العمل معنا فأهلاً بك بيننا ، وإلاّ فأنت حر في الرفض ، ونحن مع ذلك نرحب بك يا صاح ، ولست أحسب أنّ في العالمين أحداً يقول خيراً مما قلت لك !» .

فسألت بصوت الخائف المضطرب ما إذا كان يسمح لي أن أجيب بإذا . . وفي أثناء ذلك كنت أشعر أني مهدد بالقتل في كل لحظة ؛ فقد علت وجهي الحمرة وصار قلبي يدق في صدري بشدة .

فقال «سلفر» : لا أحد يستحثك يا بني ، فهوّن عليك ، فإنه ليلذ لي اجتماعك بنا» .

فقلت وقد زادت شجاعتي نوعاً ما : «حسن ، إذا كان لي حق الخيار فينبغي لي أن أعرف ماذا حدث ، ولماذا أنتم هنا الآن وأين أصحابي» .

فكرّر أحد القرصان وهو يردّد هذه الجملة بقوة : «ماذا وماذا !» ؛ «آه إن من يعرف هذا سيكون ذا حظ جيد» .

فصاح «سلفر» في وجه القرصان بغضب وقال : «ألا فلتلزم الصمت حتى تُسأل يا صاح» ، ثم التفت إليّ وأجابني بلطف واحترام قائلاً : «لقد جاء البارحة صباحاً الطبيب «ليفزي» ومعه علم الهدنة في أثناء الحراسة الأولى وقال : «أيها الربان «سلفر» . . لقد هلكتم ، فقد ذهبت السفينة ، وقد يكون ذلك قد حدث ونحن نشرب شيئاً من الخمر ونردد أغنية ، فأنا لا أنكر ذلك ، وأقل الأمور أننا لم نرقب شيئاً ، ثم نظرنا فوجدنا أن السفينة قد ذهبت فعلاً ، وإني مؤكد لك بأني ما رأيت في حياتي جماعة أكثر منا سخافة ، ولو أني مراهن أنكم أقل الجميع سخافة» . وتابع الطبيب «حسن دعنا نتساوم» ، فتساومنا وها نحن الآن كما ترى : عندنا المؤن والكونياك والبيت المحصن والحطب الذي جمعتم ، وبعبارة أخرى جميع محتويات السفينة من السارية إلى أسفل السفينة ، أمّا هم فقد خرجوا إلى الخلاء ، ولا أعرف لهم مقرّاً» .

ثم سحب بعض أنفاس من غليونه بهدوء ، وقال متمّماً حديثه : «ولكي تتأكد بأن شرطاً خاصّاً قد وضع بشأنك في المعاهدة ، فإني مخبرك بنص آخر بما ورد بها من كلمات ، ذلك أني عندما سألتهم عن عدد من تبقى من رجالهم ، أجابوني بقولهم أربعة وواحد منهم جريح ، أمّا الغلام فلا علم لنا بمقره «لعنة الله عليه» ، ونحن لا نهتم بشأنه فقد مللنا سوء تصرّفه ، وهذه يا بني هي كلمات الطبيب بشأنك» .

فسألته : «هل كان هذا كل ما في الأمر؟» .

فقال «سلفر» : «هذا كل ما يهمك يا بني» .

ثم عدت فسألته ما إذا كان لي الخيار في تقرير مصيري بنفسي .

فأجاب «سلفر» بقوله : «لك أن تختار ما تشاء يا بني وكن واثقاً من كلامي» .

فقلت بكل حماسة : «حسن أنا لست غبيّاً ، فأنا أعرف جيداً ما ينبغي عليّ أن أفعل فدع المكاره يستطير شرها ، فما كان هذا ليهمني ، فقد رأيت قوماً كثيرين يموتون من وقت أن صرت بينكم ، إلاّ أنه ينبغي لي أن أذكر لكم مسألة أو مسألتين ، أولاً : إن مركزكم اليوم لشديد الخطر ، فقد فقدتم السفينة وفقدتم الكنز وفقدتم الرجال ، وبالإجمال لقد أضعتم كل شيء ، وإذا أردتم أن تعرفوا من فعل هذا فهو أنا ! فقد كنت في برميل التفاح في الليلة التي رأينا فيها اليابسة ، وقد سمعتكم أنت يا «جون» و«ديك جونسون» و«هاندز» الذي صار قاع البحر مقره الآن ، وقد أخبرت أصحابي بكل كلمة قبل فوات الفرصة ، وأمّا السفينة فإني أنا الذي قطعت أمراسها ، وأنا الذي قتلت الرجلين اللذين تركتموهما فوق سطحها ، وأنا الذي أتيت بها إلى مكان لا تعرفونه مطلقاً ، ولن يستطيع أحد منكم ذلك ، أنتم تضحكون مني ، بيد أنني قد قمت بأهم الأعمال منذ البدء ، وإني لا أخافكم أكثر مما أخاف الذباب ، فسواء أقتلتموني أم أطلقتموني ، فهناك شيء واحد أريد أن أقوله لكم ولا أزيد عنه ، ما فات مات وما هو آت آت ، فأنتم لا بد يوماً واقفون بين يدي القضاء لتعطوا حساباً عمّا فعلتموه من القرصنة ، فإذا أنتم قتلتموني ، فأي فائدة تجنونها من قتل نفس أكثر مما قتلتم؟ فالأولى لكم أن تبقوا عليّ ليكون لكم مني شاهد ينجيكم من الشنق» .

ثم أمسكت عن الحديث لأن تنفسي كاد يُحتبس من كثرة الكلام ، وقد دهشت حين رأيتهم كالأنعام لا ينطقون ، وقد سمّروا أبصارهم عليّ ، وبينما هم لا يزالون محدقين بي ، عدت إلى استئناف الحديث مرة أخرى ، فقلت : «والآن يا سيد «سلفر» أعتقد أنك أفضل هؤلاء القوم ، فإذا حصل شيء غير محمود أرجو أن تخبر الطبيب كيف

كانت حالتي في أثناء ذلك» .

فقال «سلفر» : «سأحفظ هذا في ذهني» . غير أنه قال ذلك بشكل غريب أعجزني إدراك حقيقة مرماه ، فلم أعرف إذا كان قوله هذا على سبيل السخرية مني ، أو أن الرجل كان قد أعجب بشجاعتي .

فصاح «مورغان» البحار الهرم ذو الوجه القاتم ، الذي كنت رأيته في حانة «الونغ جون» في ميناء «برستول» قائلاً : «وإني أضيف إلى ذلك أنه هو الذي أهلك الكلب الأسود» .

فقال «سلفر» : «حسن ، اسمع ، والله لأزيدنّ على ذلك مسألة أخرى ، فإنه هو الصبي الذي استحوذ على الرسم البياني من «بيلي بونز» ، وخلاصة الأمر أننا قد اختلفنا في الرأي بالنسبة إلى «جيم هوكنز»؟

فصاح «مورغان» مقسماً وهو يقول : «لا! أيفعل ما فعل ثم ينجو سالماً من بيننا !؟» .

ثم قفز منتصباً وامتشق مديته كأنه شاب في العشرين من عمره .

فصاح به «سلفر» : «كفى يا هذا! فمن أنت؟ ألست «توم مورغان»؟ هل ذهب بك الغرور لأن تتوهم أنك الرئيس هنا؟ فوالله لأرهقنك من أمرك عسراً ، فما عليك إلاّ أن تمضي في مقاطعتي حتى يصيبك ما أصاب أول الذاهبين قبلك وآخرهم في الثلاثين عاماً الماضية ، فلقد دفن بعضهم في المقابر ومات بعضهم ورب السماء قتيلاً ، ومعظمهم أمسى للأسماك طعاماً سائغاً ، فما واجهني أحد أو جبهني بسوء ثم طابت له الحياة بعد ذلك ، فخذ نفسك بهذا يا «توم مورغان» ممسياً ومصبحاً» .

وكان «مورغان» صامتاً في تلك الأثناء ، بيد أنني سمعت تمتمة بصوت أجش ، إذ صاح أحدهم : «إن توم لمحق» .

وصاح آخر : «إني انتظرت طويلاً حتى عيل صبري» . وقال ثالث : «إني أفضل الشنق عن منعك إياي يا جون سلفر» .

ثم هدّدهم «سلفر» وقد انحنى إلى الأمام ؛ واستقام على ساقه ، وأمسك غليونه المتقد في يمناه وقال : «هل يريد أحد منكم ، أيها الأفاضل ، أن ينازعني رئاستي؟ اذكروا لي اسم الرجل الذي تريدون أن يخلفني ، فإني متنازل عنها لمن يريدها ، فما أنا بمحتمل أكثر من ذلك ، وقد عمَّرت دون أن يعترضني غلام حانة في وجهي في آخر أيامي ، وقد أمال قبعته على رأسه؟ كلكم يعرف الواجب وكلكم رجال محترمون بالنسبة إلى المهنة ، وأنا مستعد لذلك ، فليتناول من شاء منكم سكيناً ، وليجرب ما إذا كنت لا أبقر بها بطنه قبل نفاذ ما في هذا الغليون من التبغ» .

فلم يتحرك أحد ، ولا جرؤ قرصان على جواب .

ثم أردف وهو يدخل غليونه في فمه قائلاً : «أهذا دينكم؟ أنتم قوم لا نصيب لكم في الخير ، ولا أنتم بأهل قتال ! هل تفهمون إنكليزية الملك جورج؟ أنا الرئيس هنا بالانتخاب لأني أكثركم كفاءة بما لا يقاس ، فأنتم لا قدرة لكم على القتال ، كما يفعل الرجال المحترمون ، إذاً يتحتم عليكم وأيم الحق أن تطيعوني . إني أحب هذا الصبي ، فما رأيت صبياً أحسن منه مطلقاً ، فهو أكثر رجولية من أي رجلين من الموجودين منكم في هذا البيت المحصّن ، وإياكم أعني بقولي ، فدعوني بعد الساعة أرى من منكم يجسر على مسه بسوء ، وأنا أعني ما أقول» .

وأعقب ذلك صمت طويل ، وقد ظللت مستنداً إلى الحائط وقلبي يخفق بشدة ، إلا أن شعاعاً من الأمل كان قد نفذ إلى صدري ، واستند «سلفر» أيضاً إلى الجدار مكتوف الساعدين وغليونه في جانب

من فيه ، وهو صامت مطرق ، إلاّ أن عينيه كانتا سريعتي الاختلاج ، وكان ينظر من طرف خفي إلى أتباعه عسيري القياد العنيدين ، الكثيري الإزعاج ، وقد أخذوا في الابتعاد تدريجيّاً إلى طرف المنزل الآخر ، وكنت لا أنفك أسمع صوت همسهم المستمر الذي يشبه خرير النهر الجاري ، فكانوا يحدجون بأبصارهم نحونا تباعاً ، وكان ضوء الشعلة إذا وقع على وجوههم المضطربة دلني على أنهم إنّما يوجهون نظراتهم إلى «سلفر» لا إليّ .

فلاحظ «سلفر» ذلك منهم وقال : «يلوح لي بأن عندكم حديثاً طويلاً تتكلمون فيه ، فارفعوا أصواتكم لأسمع ما تقولون ، وإلاّ فأنتم وحدكم الملومون» .

فأجاب أحدهم قائلاً : «معذرة يا سيدي ، يجب أن تتساهل قليلاً في بعض القواعد وتتشدد في الأخرى ، إن القوم غير مرتاحين ، وإنهم لا يوافقون على هذا التهديد ، وهم محقون في ذلك كالجماعات الأخرى كما أقول لك بكل حرية ، وإني أستميحك عذراً يا سيدي في أننا لا ننكر عليك رئاستك الآن ، إلاّ أنني أقول مع رفاقي بأن لنا الحق في عقد مجلس» .

ثم حيّا هذا الرجل بتحية عسكرية نظامية ومشى ببرود إلى جهة الباب وغادر المنزل ، وكان هذا الرجل طويلاً قبيح المنظر أصفر العينين يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً ، ثم تبعه الآخرون الواحد بعد الآخر ، وكان كل منهم يسلم ويخرج معتذراً ، فقال أحدهم : «حسب القواعد» ، وقال «مورغان» : «مجلس البحارة العاديين» ، وهكذا كان كل يقول عبارة حتى تركوني أنا و«سلفر» وحيدين .

فنزع طاهي البحر في الحال غليونه من فمه وقال وهو يهمس بغاية التأني والسكون بصوت لا يكاد يُسمع : «انظر هنا الآن يا «جيم

هوكنز» ، إنك على شفا جُرف هار وما أقبح المشهد الذي رأيته ؛ إنهم يريدون خلعي . ولكن افهم أني سأقف بجانبك في السراء والضراء ، وما عولت على ذلك إلاّ بعد أن قلت ما قلت ، فأنا على وشك أن أخسر كل شيء وينتهي الأمر بشنقي ، وأرى أنك الشخص الذي يعتمد عليه ، فأنا اليوم أناجي نفسي قائلاً : ينبغي لك يا نفس أن تحرصي على مؤازرة «هوكنز» ، وإني واقف بجانبك يا «هوكنز» فأنت آخر ورقة بيدي ، وسأكون لك ظهيراً فنج شاهدك ينجك من الموت» .

وبعد أن صرت أفهم من الأمر قليلاً سألته : «هل تقصد أن كل شيء قد ضاع؟» .

فأجاب قائلاً : «نعم ، أقصد ذلك ، فقد ذهبت السفينة ففقدنا بفقدها كل شيء ، فلمّا نظرت إلى الخليج يا «جيم هوكنز» ورأيت أن السفينة قد ذهبت ، مع أني شديد المراس ، فإني يئست ، أما هؤلاء فإنهم جبناء ضعفاء العقول ، وإني باذل غاية جهدي في إنقاذ حياتك من الموت ، ولكن انظر يا جيم يجب عليك أن تعمل على إنقاذ «جون» من الشنق» .

احترت في أمري ، لأن الأمر الذي يطلبه مني لم يكن فيه شيء من المنطق ، فهو رئيس العصابة وشيخ القرصان !

فقلت : «سأعمل كل ما أستطيع» .

فصاح «جون» الطويل قائلاً : «هذا وعد ، عدني بصراحة وشجاعة فبالله سيكون لي منها مخرج» .

وجعل يقفز حتى وصل الباب الذي كان ظاهراً من بين حزم الحطب المكومة ثم أوقد غليونه ، وقال : «افهم حديثي يا جيم ، إن لي رأساً فوق كتفي ، وإني في جانب السيد «ترلاوني» الآن ، وأراني واثق من أنك قد أتيت بالسفينة إلى الشاطئ سالمة الآن ، إلا أني لا أعرف

كيف فعلت ذلك ولكنني متأكد من سلامتها ، وأظن أن «هاندز» و«أوبريان» قد انقلبا وديعين ، وإني ما كنت أعتقد فيهما سيئاً ، وافهم هذا ، إني لا أريد أن أسألك أسئلة ، ولن أسمح لهم بسؤالك ، فأنا أعرف الرأي الحصيف وأعرف الصبي الناضج ، فأنا وإياك مع صغر سنك يمكننا أن نعمل أشياء كبيرة إذا نحن تحالفنا معاً» .

ثم ملأ قدحاً صغيراً من الكونياك الذي في البرميل وقال : «ألا تتذوّق شيئاً من هذا يا صاح؟ . . فلمّا امتنعت قال : «حسن ، سأشرب قليلاً يا «جيم» فإني أحتاج إليه نظراً لهذا الاضطراب الذي عمّ رجالي ، وبمناسبة كلامي عن الاضطراب تُرى لماذا أعطاني الطبيب الرسم البياني يا جيم؟» .

فظهرت على وجهي أمارات الاستغراب غير المتصنع حتى إنه لم ير داعياً لأن يسألني أسئلة أخرى ، وقال : «حسن ، لقد فعل ذلك ، مع أن عمله هذا لا يمكن أن يكون دون سبب ، ولا شك عندي في ذلك ، ولا بد أن يكون وراء الأكمة ما وراءها» .

- ٢٩ -
سلفر والرقعة

طال انعقاد مجلس القرصان ، ثم دخل أحدهم البيت مكرراً تحيته العسكرية التي كانت تدل على شيء من التهكّم ، وطلب السماح له بأن يأخذ الشعلة ، فأجابه «سلفر» إلى طلبه ، فأخذها وتركنا في ظلام دامس .

ثم خاطبني «سلفر» بقوله : «لقد بدأ النسيم يشتد قوة يا جيم» . وكان الرجل قد بدأ يعاملني بكل مودة ، ومن دون كلفة .

اتجهت إلى الفتحة القريبة مني ونظرت منها ، فإذا بحزم الحطب قد احترقت تماماً وخفتت نيرانها وخبا ضوؤها ، فكان هذا هو الباعث للمتآمرين على طلب شعلة نار ، حيث كانوا مجتمعين على بعد نصف ميل من الدريئة ، وكان أحدهم رافعاً الشعلة في يده ، وقد ركع آخر على ركبتيه في وسطهم ، ورأيت نصل سكين مسلولاً وهو يتألق بألوان مختلفة وقد انعكس عليه ضوء القمر والشعلة ، بينما أطرق الباقون برؤوسهم إلى الأمام ، وكأنهم يراقبون هذه المناورة الأخيرة ، وقد أمكنني بعد عناء كبير أن أرى معه كتاباً بجانب السكين ، فاستغربت وجود مثل هذا الكتاب معهم ، لعدم اتفاقه مع طبيعتهم ، وإذ بي أرى ذلك الجاثم قد استقام على قدميه ، ثم أخذ سائر الجماعة يتقدمون نحو البيت .

صحت : «ها هم آتون» . ثم رجعت إلى مكاني الأول ، حيث فطنت إلى أن رؤيتهم لي وأنا أراقبهم إنما هي مزرية بحقي .

فقال «سلفر» وهو منشرح الصدر : «حسن ، دعهم يأتون يا بني ، دعهم يأتون ، فلا يزال في القوس منزع بعد» .

ثم فُتح الباب ودخل الرجال الخمسة ، ودفعوا واحداً منهم للتقدّم ، فكان منظره مدعاة للضحك في غير هذا الظرف ، حينما تراه يتقدم بغاية البطء وهو يتردد في كل خطوة يخطوها إلى الأمام ، إلاّ أنه كان رافعا يده اليمنى التي مدها أمامه وكفّه منقبضة .

فصاح «سلفر» قائلاً : «تقدم يا بني ، فإني لن آكلك ، أعطني ما عندك يا رجل ، فأنا حافظ للقواعد دون شك ، وإني لا أؤذي رسولاً» .

فلمّا رأى القرصان هذا التشجيع تقدّم بنشاط ، وسلّم بيده شيئاً إلى «سلفر» ثم انسحب إلى الوراء بين رفاقه بسرعة ورشاقة .

فحدّق طاهي البحر فيما وضعه الرجل بين يديه .

ثم قال : «الرقعة السوداء ! هذا ما توقعت ، فمن أين لكم هذه الورقة؟ لقد انتزعتموها من الإنجيل ! فيا لفرط غباوتكم ! أتمزقون ورق الإنجيل !؟» .

فقال «مورغان» : «آه ، هكذا ، هكذا ! أما أخبرتكم من قبل؟ ألم أقل لكم بأن لا فائدة من عملكم» .

بيد أن «سلفر» مضى في حديثه قائلاً : «حسن ، لقد قررتم الأمر إذاً فيما بينكم ، وإني واثق من أنكم ستشنقون . ومَن ذاك الغبي الذي كان معه الإنجيل؟» .

فأجابه واحد منهم : «إنه ديك» .

فقال «سلفر» : «هل هو ديك حقّاً؟ إن كان هو فعليه أن يستغفر ويصلي ، فإنه بالتحقيق قد تبيّن له شيء من حظه» .

وهنا اشترك الرجل الطويل الأصفر العينين في الحديث ، قال : «دع عنك هذا الكلام يا «جون سلفر» ، إن هؤلاء القوم قد أعطوك الإنذار ، وهم مجتمعون في مجلس رسمي ؛ فما عليك إلاّ أن تفتحه

كما يقضي الواجب وترى ما كُتب فيه ثم تتكلم بعد ذلك» .

فأجاب طاهي البحر قائلاً : «شكراً لك يا «جورج» ، فلقد عرفتك محبّاً للإسراع في عملك ، مستظهراً للقواعد على ما أحب ، هذا حسن ، فماذا تريدون الآن على أي حال؟ آه ! مخلوع ! هل هذا خطك يا «جورج»؟ بالطبع ، فأنت على وشك أن تخلفني في ترؤس هذه الجماعة ، ثم بعد ذلك تصبح رباناً ، فلا شيء من الغرابة في مظهرك ، ألا أعطني الشعلة فقد خبت نار غليوني» .

فقال «جورج» : «هلم نناقشك الحساب وكفاك هذراً ، أنت رجل غريب الأطوار وعملك أقوى دليل على ذلك ، أمّا الآن فقد دالت دولتك ، فلا محيص لك اليوم من النزول عن هذا البرميل لتشترك معنا في انتخاب رئيس جديد» .

فأجابه «سلفر» باحتقار : «ظننتك على علم بالقواعد كما ادعيت ! وعلى كل حال ، إذا جهلتم أنتم القوانين فإني أعرفها ، وإني ثابت في مكاني ، وأنا لا أزال ربانكم ، ويجب أن تفهموا ذلك تماماً ، وسأظل رئيسكم حتى تذكروا شكواكم أمامي ، ثم إني أجيبكم وأناقشكم ، وبعد ذلك نرى ، وعليه فإن رقعتكم السوداء لا تساوي في نظري قطعة من الكعك» .

فأجاب «جورج» قائلاً : «آه ، يجب ألاّ يتبادر إلى ذهنك شيء من ذلك ، فقد أجمعنا على أنك قد خربت هذه الرحلة ، ولسنا نحسب أن لك من الشجاعة ما تجسر معه على نفي هذه الحقيقة ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى فقد سرحت العدو من هذا الشرك دون مقابل ، ولا قبل لي على معرفة السر في ذلك ، بيد أنه يخيل إليّ بالتأكيد أنهم كانوا يريدون ذلك ، ثالثاً ، لقد منعتنا من الذهاب إليهم وهم سائرون ، وإني عارف بما تنطوي عليه نفسك يا «سلفر» ، فأنت

ترمي إلى الاستئثار بالغنيمة ، وهذا هو خطؤك الكبير ، أما الأمر الرابع فهو مسألة هذا الصبي» .

وهنا سألهم جون «سلفر» ما إذا كان هذا كل ما في جعبتهم .

فأجاب جورج قائلاً : «حسبنا هذا ، فإن عبثك لا بد سيؤدي بنا إلى الشنق والموت» .

فقال «سلفر» : «حسن ، التفتوا إليّ ، فإني مجيبكم على هذه النقط الأربع الواحدة بعد الأخرى ؛ فأنتم تزعمون أني خربت أمور الرحلة ، فهل أنا السبب فيما حدث؟ لا بأس ، أنتم تعلمون جميعاً ماذا كنت أريد ، وتعرفون ما إذا كان قد تحقق ذلك أم لا . ألم نكن جميعاً أحياء أصحاء على سطح السفينة ومعنا الكنز في المطمور؟ حسن ، من الذي أغضبني؟ من الذي قيّد يدي وأنا الرئيس حقاً؟ ومَن الذي أعطاني الرقعة السوداء ـ أي الإنذار ـ في اليوم الذي نزلنا فيه إلى البر وابتدأ هذا الرقص؟ آه ، إنه لرقص جميل ـ وإني معكم كما ترون ـ وتراني قوياً كالمزمار القرني في طرف حبل في مكان الشنق بمدينة لندن ، فمن إذاً هو الذي فعل ذلك؟ لماذا كان «أندرسن» و«هاندز» وأنت يا «جورج مري» !؟ وأنت رئيس ذلك المجلس الذي كان يتداول ؛ وقد ذهبت بك الوقاحة لأن ترشح نفسك رئيساً بدلاً مني ، فأنت الذي غررت بنا ، وإن هذا ليكفي لهدم جميع ما بنيته من الترهات» .

ثم توقّف «سلفر» قليلاً ، فتبيّنت على وجوه «جورج» وأصحابه أثر كلمات «سلفر» التي فاه بها .

ثم أردف «سلفر» قائلاً : «هذا ما كان من شأن التهمة الأولى» . وجعل يمسح العرق عن جبينه ، حيث كان يتكلم باهتمام وشدة ، حتى إن أركان المنزل كانت تهتز في أثناء حديثه ، ثم قال : «عجباً ، إنه ليؤلمني أن أصرح لكم بكل الحقيقة ، ليس لكم عقل ولا ذاكرة ،

وإني لأتعجب كيف جسرتم على ترك أمهاتكم والتغرير بأنفسكم في سفر البحر، البحر! أيها الرجال المحترمون، لقد كان الأولى لكم أن تكونوا خياطين».

فقاطعه «مورغان» بالقول: «ألا امضِ في حديثك يا «جون» وأجبنا على بقية الأسئلة».

فأجاب «جون»: «هل تريدون جواباً على المسائل الأخرى، إنها لمجموعة طيبة أليس كذلك؟ أنتم تقولون بأن هذه الرحلة أفسدت عليكم، ولو أنكم عرفتم كيف فسدت لأدرككم العجب، فقد كنا قريبين من المشنقة حتى إن عنقي كانت تجمد في مكانها عندما أتذكر ذلك المنظر، فأنتم قد رأيتموه، والمشنوقون المغللون بالسلاسل تحوم حولهم الطيور، والبحارة يشيرون إليهم وهم سائرون مع تيار المد، فيقول أحدهم من هذا؟ إنه «جون سلفر» كنت أعرفه جيداً، هكذا يجيبه الآخر، وكنتم تسمعون السلاسل وهي تشنشن وأنتم تمرون بجانبها، هذا هو مركزنا الآن، فإن كل امرئ منا عليه أن يشكر نفسه ويشكر «هاندز» و«أندرسن» وأولئك الأوغاد الذين أفسدوا علينا الأمر، وأما إذا أردتم أن تعرفوا الجواب على المسألة الرابعة بشأن هذا الغلام، فإني سائلكم: أليس هو كالوديعة المرهونة بين أيدينا؟ وهل يجمل بنا أن نضيع رهينة كهذه؟ بلى، ما كنا لنفعل شيئاً من ذلك، فلعله آخر أمل لنا، ولست بمستغرب ذلك! فهل نقتل هذا الغلام؟ لست بفاعل هذا أيها الرفاق، آه، نسيت، هناك المسألة الثالثة، إنها تحتاج إلى حديث طويل، ولست أحسبكم مقدرين تلك النعمة الجزيلة، وهي أن يتردد عليكم طبيب متخرج من الكلية لعيادتكم يوميّاً، وأنت يا «جورج» مهشم الرأس، أو أنت يا «مري» وقد كنت تنتفض من قشعريرة الحمى التي كنت مصاباً بها منذ ست ساعات فقط، ولا

تزال عيناك مصفرتين كالليمونة حتى الساعة . فما قولكم في هذه النعمة؟ لعلكم كنتم لا تتوقعون أن شخصاً آخر سيأتي إلينا ، ولم يكن قد مضى زمن طويل ، وسوف نرى مَن الذي يسر عندما يجد رهينة بين يديه . أمّا المسألة الثانية من حيث قبولي المساومة ـ فأنتم الذين طلبتم قبولها بإلحاح وتوسّل ، وقد تملككم اليأس ـ وكنتم على وشك الموت جوعاً ، وأنا معكم ، ولكن كل هذا غير مهم عندكم ، فانظروا وتدبّروا ، فهذه هي الأسباب» .

ثم ألقى على الأرض بقطعة ورق صفراء عرفت في الحال أنها هي الرسم بعينه ، وقد رسمت عليها ثلاثة صلبان بالمداد الأحمر ، وهي نفسها التي وجدتها في قاع صندوق القبطان البحري مطوية في قطعة من المشمع ، ولقد أعجزني إدراك السر الذي حدا بالطبيب لأن يعطيها لـ«سلفر» .

وإذا كان أعجزني فهم السر في وجودها مع «سلفر» ، بيد أن ظهورها كان كالحلم عند من بقي حياً من القراصنة ، فقد قفزوا عليها كما تقفز القطة على الجرذ ، فظلوا يتخاطفونها تباعاً ، وهم يقسمون ويصيحون ، ويضحكون كالأطفال وهم يتفحصونها ، فكنت إذا رأيتهم لم تتوهم بأنهم قد ظفروا بالذهب فقط ، بل كنت تحسب أنهم نقلوه إلى السفينة وأقلعوا به في اليم سالمين .

ثم قال أحدهم : «أجل لا ريب في أن هذا هو خط «فلنت» نفسه ، فهذا توقيعه ، وعلى مسافة منه تجد علامته التي كان يضعها دائماً» .

وقال «جورج» : «ما أجملها ! ولكن كيف نذهب بها وليس معنا سفينة؟» .

وقفز «سلفر» فجأة وهو يستند إلى الحائط وصاح : «إني أنذرك يا «جورج» الآن ، فإذا نطقت بكلمة أخرى فإني سأدعوك لمبارزتي ،

عجباً ، وأنا لي معرفة ذلك ، فهل لك في إجابتي على هذا السؤال ، أنت ومن معك ، الذين سبَّب تداخلكم ضياع السفينة ، لعنة الله عليكم ! ولا نزاع عندي أنك اليوم عاجز عن إجابتي إلى سؤالي ، فلا أقل من أن تتأدّب في حديثك يا «جورج» .

وقال «مورغان» الهرم : «هذا معقول ومقبول» .

ثم قال طاهي البحر : «أظنه حسناً إن أضعتم السفينة ، وأنا وجدت الكنز ، فأيهما أفضل؟ إني لأستقيل الآن ولتنتخبوا من تشاؤون ليكون رئيساً عليكم ، أما أنا فقد انتهى أمري» .

فصاحوا جميعاً : «يا سلفر ! نريد الطاهي إلى الأبد ! الطاهي رئيسنا وربائنا !» .

وصاح الطاهي قائلاً : «إذاً ، هذا هو رأي الجميع يا «جورج» ، وأظن أنه ينبغي لك أن تنتظر فرصة أخرى حتى يأتي لك الدور يا صاح ، ومن حسن حظك أني لست ممن يتقمون لأنفسهم ، فإني لا أحب هذا مطلقاً ، والآن أيها الرفاق ما لكم ولهذه الرقعة السوداء ، أليست هي الآن عديمة الجدوى؟ إن «ديك» قد أساء إلى نفسه ومزّق الإنجيل ، وهذا كل ما فعل» .

فأجاب «ديك» وهو مقطّب ، وكانت تظهر عليه علامة الاضطراب من سوء عمله ، قائلاً : «يكفي أن أقبّل الكتاب الآن أليس كذلك؟» .

فأجاب «سلفر» مستهزئاً : «وماذا بقي من هذا الإنجيل بعد التمزيق الذي حصل له؟ لا أظن ذلك ، فهو الآن لا يمتاز عن أي كتاب من كتب الأغاني» .

فصاح «ديك» فرحاً : «أليس هو كذلك؟ حسن إنه يستحق الاحتفاظ به على أي حال» .

ثم قال «سلفر» : «خذ هذه لتتفكّه بها» . ورمى بالورقة إليّ .

كانت ورقة مستديرة في حجم «الكورون» أحد وجهيها أبيض دون كتابة ، وكانت هذه آخر صحائف الكتاب ، والوجه الأخر كان فيه سطر أو سطران من «سفر الرؤيا» ، وكان بين هذه الكلمات الألفاظ التالية ـ وقد علقت بذهني جيداً ـ (وفي الخارج كلاب وقتلة) ، وكان الوجه المطبوع قد سُوِّد بهباب الخشب المحروق وصار على وشك الزوال ولوّث يدي ، وأمّا الوجه الأبيض فقد كتب عليه بنوع المداد نفسه كلمة (مخلوع) . وإني أحتفظ بهذه الورقة حتى هذه اللحظة ، إلاّ أنه لم يبق فيها أثر كتابة أو خدوش صغيرة كالتي تحدث من تأثير حك الظفر .

وكان هذا آخر أعمال الليلة ، وبعد أن شربنا دوراً من الخمر ، أوينا إلى الفراش ، ثم عيّن «سلفر» «جورج مري» حارساً تلك الليلة ، وكان هذا كل ما أظهره من الانتقام ، وهدده بالموت إذا شك في أمانته .

ولم أنم إلاّ بعد ساعات ، لأن فكري كان منشغلاً بالرجل الذي قتلته بعد ظهر هذا اليوم بينما كنت في أشد الأخطار ، إضافة إلى الدور الذي لعبته مع «سلفر» حتى صرت قريباً منه ، فمن جهة كان يلم شعث المتمردين ، ومن جهة أخرى يعمل لصالحنا ، الأمر الذي يقرب من المستحيل لكي ينجي حياته بذلك ، أمّا هو فقد نام نوماً هادئاً ، إلا أنني كنت أشفق عليه عندما كنت أتخيل الأهوال التي تحيق به والمشنقة التي تنتظر عنقه .

- ٣٠ -
الوفاء بالعهد

استيقظت ـ أو بالأحرى استيقظنا جميعاً ، لأني كنت أرى الحارس نفسه قائماً يتمطّى وينفض عن نفسه غبار النوم في مكان حراسته بجوار الباب ـ حيث سمعنا صوتاً متلطّفاً ينادي من طرف الغابة قائلاً :

«يا أهل البيت المحصّن ، اسمعوني ، هذا أنا الطبيب» .

ولقد كان هو الطبيب نفسه ، ومع أنني كنت في غاية الطرب لسماع هذا الصوت ، بيد أن سروري كان مشوباً بشيء آخر ، حيث تذكرت ما كان من عدم طاعتي ، وانسلالي من بين أصحابي على غير علم منهم ، فلمّا عرفت بأن نتيجة عملي هي التي ساقتني إلى هذا المكان ، بين هؤلاء القوم ، تكتنفني تلك الأخطار ، خُيِّل إلي بأني غير قادر على لقائه لشدة ما انتابني من عوامل الخجل .

ولا بد أن يكون الطبيب قد استيقظ والليل والصبح خيطان ، حيث كان الفجر على وشك البزوغ ، فلمّا أسرعت وذهبت إلى الثغرة لأبصره ألفيته واقفاً ، كما وقف «سلفر» من قبل ، يحفه حجاب من الضباب الممتد حتى منتصف الطريق .

فصاح «سلفر» ، وقد أفاق من نومه تماماً ، ولاحت عليه علائم الإنسانية وقال : «ألا عِم صباحاً أيها الطبيب ، لقد بكّرت بكور الغراب في هذا الصباح الجميل ، والطيور المبكرة هي التي تحظى برزقها ، فانشط يا «جورج» وساعد الطبيب «ليفزي» في العبور إلى هنا ، أما حالة مرضاك أيها الطبيب فهي مرضية ، وصحتهم جيدة وسرورهم عظيم» .

وهكذا كان «سلفر» مستمراً في حديثه وهو يقف فوق قمة التل وعكازه تحت إبطه ، وقد استند بيده إلى كتلة حطب البيت ، فكان في هذا الموقف كما كان من قبل في صوته وحركاته وطريقة كلامه .

واستطرد في حديثه قائلاً : «عندنا ما يدهشك أيها الطبيب ، فإن عندنا شخصاً غريباً ، هو ! هو ! نزل بنا ضيفاً ، وإنه لفي صحة جيدة ، وقد نام نوماً هادئاً مطمئناً ، وقد كان نومه إلى جواري ، فبتنا متلاصقين طوال الليل» .

وكان الطبيب «ليفزي» قد عبر الدريئة وصار قريباً من «سلفر» ، وقد لاحظت نبرة صوته تتغيّر وهو يسأل مستفسراً ما إذا كنت أنا المقصود بالحديث .

فأجابه «سلفر» قائلاً : «إنه جيم بلا ريب» .

فجمد الطبيب في مكانه لساعته ، ولم ينبس ببنت شفة ولم يتحرك إلاّ بعد مضي بضع ثوان .

ثم قال بعد ذلك : «حسن ، حسن ، الواجب أولاً ثم المباسطة بعد ذلك على رأيك يا «سلفر» ، فهلم نعالج مرضاك أولاً» .

وبعد لحظة من دخوله الحصن ابتسم لي ابتسامة قصيرة ، وأخذ يعالج مرضاه ، وما كان يظهر عليه أي وجل منهم ، مع أنه كان ينبغي له أن يتأكد من أن حياته كانت مهددة في كل لحظة من هؤلاء المكرة الغادرين ، بيد أنه جعل يتفقدهم كما لو كان يعود مرضى أسرة إنكليزية مهذبة هادئة ، ولا شك عندي في أن حسن معاملته كان لها كبير أثر في أولئك الرجال ، فقد كانوا يعاملونه بلطف واحترام ، وكأنما الطبيب لا يزال طبيب السفينة ، وكأنهم لا يزالون مخلدين إلى السكينة ، منتظمين في عملهم .

ثم قال الطبيب للذي كان رابطاً رأسه : «إن حالتك في تحسن يا

صاح ، ولو أن امرأً كان قاب قوسين أو أدنى من الموت ، فكان يجب أن يكون أنت ذلك الرجل ولا بد أن رأسك صلبة كالفولاذ . ثم عطف على «جورج» وسأل عن حاله ، وقال : «إن لونك ليدل على تقدم صحتك بلا نزاع ، ولا عجب فقد كان كبدك مقلوباً يا رجل ، فهل تعاطيت ذلك الدواء؟ هل تعاطاه يا رجال؟» .

فأجاب «مورغان» قائلاً : «نعم يا سيدي ، لقد تناوله بكل تأكيد» .

فقال الطبيب «ليفزي» بطريقته الطريفة : «بما أني طبيب القراصنة ، أو طبيب السجن ، لأني أفضل هذه التسمية ، فقد حتّم عليّ شرفي ألا أضيع منكم شخصاً لأجل الملك جورج (بارك الله فيه) ولأجل المشنقة» .

فجعل الأوغاد ينظرون إلى بعضهم ، بيد أنهم تلقّفوا كلمته التي وقعت موقعها وهم صامتون .

ثم قال واحد منهم : «إن «ديك» منحرف المزاج» .

فأجاب الطبيب : «هل هو حقّاً منحرف المزاج؟ ألا تقدّم مني يا «ديك» وأرني لسانك ، لا ، إني مستغرب ذلك ، فإن لسانه يصلح لإرهاب الفرنسيين ، إنه حمى ثانية» .

قال «مورغان» : «آه ، هكذا إذاً ! إن هذا نتيجة إتلاف الإنجيل» .

فأجاب الطبيب : «هذا نتيجة غبائكم ، وعدم تمييزكم بين الهواء الصالح والهواء الفاسد ، والأرض الجافة من المستنقع المملوء بالضرر ، وإني أعتقد أنكم ستدفعون ثمناً غالياً قبل شفائكم من هذه الملاريا ، ولو أن هذا رأي فقط ، فهل تعسكرون في مستنقع؟ إني أستغرب منك هذا يا «سلفر» ! فإنك أقل منهم حمقاً على العموم ، بيد أنه يظهر أنك لا تفهم قواعد مبادئ حفظ الصحة» .

وبعد أن أتم الطبيب دورته عليهم جميعاً ، ووصف لهم العلاج اللازم ، وهم خاضعون خضوعاً مضحكاً أشبه بخضوع الأطفال الذين

يتعلمون مجّاناً ، أردف بقوله : «حسن ، يكفي ما تمَّ هذا اليوم ، والآن أريد أن أتكلم مع هذا الغلام» .

قال ذلك وهزّ رأسه مشيراً إلى جهتي بغير اكتراث .

كان «جورج مري» بجوار الباب يبصق ويقيء من أثر الدواء الكريه الطعم الذي تعاطاه ؛ فلمّا سمع أول كلمة من طلب الطبيب التفت إلى الخلف محمر الوجه وصاح : «لا» ، وأتبع ذلك بقسم .

فضرب «سلفر» البرميل براحة كفه وصاح : «سكوت» ، ثم نظر إليه نظرة مخيفة ، واستمر يقول بطريقته المعهودة : «كنت أفكر في ذلك أيها الطبيب لأني أعلم مقدار حبك لهذا الصبي ؛ وإننا جميعاً لشاكرون لك فضلك وشفقتك بكل احترام ، وإننا واضعون بك ثقتنا ، فنحن نتعاطى دواءك كأنه السحر ، وقد فكرت في طريقة تناسبنا جميعاً ، وأنت يا «هوكنز» أعطني كلمة الشرف أن لا تهرب لكونك شاباً محترماً ، إنك شاب محترم رغم كونك ولدت فقيراً» .

وقد أعطيته ذلك العهد المطلوب في الحال .

ثم أردف «سلفر» بعد ذلك قائلاً : «انطلق أيها الطبيب إلى خارج الدريئة ، فإذا انتهيت إلى هناك وافيتك بالغلام ، وأعتقد أنه في مقدوركما الكلام من بين خلل السياج ، ولك السلام يا سيدي ، وبلّغ احترامي للسيد وللكابتن «سمولت»» .

وما كاد الطبيب يخرج من المنزل حتى امتلأ المكان بعلامات الاشمئزاز وعدم الموافقة التي ما كان ليحجبها إلاّ نظرات «سلفر» المخيفة ، وقد كان «سلفر» معتبراً بينهم علناً بأنه ذو وجهين ـ أي أنه يسعى ليعقد صلحاً خاصّاً لنفسه ـ ليضحي فيه بمصالح رفاقه الذين يصبحون ضحية لغدره ، وبالاختصار فقد كان هذا الأمر الحاصل واضحاً لديّ تماماً في هذه الحالة ، حتى إني ما كنت أتصور كيف كان

يتجنّب غضبهم ، إلاّ أنه كان أكثر كفاءة منهم ، وقد جعله انتصاره في الليلة الماضية يسيطر على عقولهم بشدة ، وكان يسميهم بلهاء وأغبياء قائلاً بأنه ينبغي له أن يحادث الطبيب ، ورمى الرسم في وجوههم ، وسألهم إذا كانوا يستطيعون فسخ المعاهدة في اليوم الذي كانوا مزمعين فيه على أن يبحثوا عن الكنز» .

وصاح فيهم مقسماً : «لا وأيم الحق ، إننا سنفسخ المعاهدة عند سنوح الفرصة ، ولأستمرن في مخادعة هذا الطبيب حتى ذلك الوقت ، ولو ألجأني الأمر إلى أن أمسح نعليه بالبراندي» .

ثم أمر بإشعال النار ، وسار إلى الخارج متكئاً على عصاه ، واضعاً يده الأخرى فوق كتفي ، تاركاً رفاقه في حالة اضطراب ، وكان قد أسكتهم بالكلام لا بالحجّة .

ثم قال لي : «تمهل يا بني ، فإنهم لا بد محيطون بنا في لمح البصر إذا رأونا مسرعين» .

فسرنا فوق الرمل حتى انتهينا إلى حيث كان الطبيب ينتظرنا في الجانب الآخر من الدريشة ، وعندما صرنا قريبين منه بحيث يمكنه سماع حديثنا ، توقّف «سلفر» ، وقال : «أيها الطبيب ، يجب أن تلاحظ هؤلاء الذين هنا أيضاً ، وسيخبرك الصبي بكل شيء ، وكيف أنني أنقذت حياته ، وقد أوشك القوم أن يخلعوني من أجل ذلك . إن الإنسان إذا كان ربّان سفينة ـ وكان الريح قريباً منه مثلي ـ وهو يلعب بآخر رمق من حياته ، فلا أحسب بأنه كثير عليك والحالة هذه أن ترفّه عنه بكلمة طيبة ، وكن واثقاً أنهم لا يبغون سفك دمي وحدي الآن ، بل يريدون رأس هذا الغلام أيضاً ، فأرجو أن تحسن الكلام في حقي حتى يكون ليَ شيء من الأمل لأستمر في هذا وذلك رحمة منكم» .

وقد تحوّل «سلفر» الآن رجلاً آخر بعد أن أدار ظهره إلى رفاقه في

البيت المحصن ؛ وقد ظهر لي أن صدغيه غارا في وجهه ، وأن صوته صار مضطرباً ، ولم يكن هنالك من هو أشد منه حسرة .

فسأل الطبيب «ليفزي» : «ألست خائفاً يا جون؟» . فأجاب وهو يفرقع أصابعه قائلاً : «أنا لست جباناً ، لست كذلك ، لست بهذه الدرجة ، ولو أنني كذلك ما كنت أقول إلاّ أني أقر بأني أخشى المشنقة ؛ إنك رجل طيب وصادق وما رأيت رجلاً أحسن منك ! بيد أنك لن تنسى ما فعلت معك من الخير ، كما أنك لن تنسى الشر كما أعتقد ؛ وإني سأبتعد وأتركك والغلام وحدكما ؛ وإنك لتذكرها حسنة لي أيضاً ، فإنها مسألة خطيرة» .

وبعد أن انتهى من كلامه ابتعد إلى الخلف قليلاً حتى صار لا يستطيع سماع حديثنا وجلس على جذع شجرة وجعل يصفر ، وصار يلتفت تارة إلينا وطوراً ينظر إلى الأوغاد المضطربين وهم يروحون ويغدون فوق الرمال بجوار النار ـ التي كانوا يزيدونها لهباً ـ وقرب البيت الذي كانوا يأتون منه بلحم الخنزير المملح والخبز لفطورهم .

قال الطبيب بنبرة حزينة : «ها أنت ذا يا جيم ، وإنك يا بني لا بد جاني ثمرة غرسك ، فوالله إن قلبي لا يهاودني في لومك ، إلاّ أني سأقول هذا سواء أكان حلواً أو مرّاً : «حين كان الكابتن «سمولت» في صحة وعافية لم تتجاسر على الهروب ، ولـمّا مرض لم تمنعك نفسك من ارتكاب هذه المخزاة ، إن هذا والله إلاّ الجبن بعينه» .

وإني أعترف بأني عندما سمعت هذا الكلام بكيت وقلت : «أرجوك أيها الطبيب أن تخفّف عني ، فكفاني لومي لنفسي ، إن حياتي ذاهبة لا محالة ، ولولا «سلفر» لكنت الآن في عداد الأموات ، ولتتأكد بأني أقبل الموت ـ بل أقول إني أستحقه ـ ولكن الذي أخشاه هو التعذيب ، فإذا وصل الأمر إلى أن يعذبوني . . .» .

فقاطعني الطبيب وقد تغيّر صوته قائلاً : «يا جيم ! يا جيم ! إني لأكره لك هذا ! هلمّ إلي لنهرب من وجوههم» .

فقلت : «لقد عاهدتهم» .

فصاح بي قائلاً : «أعرف ذلك ، ولكن ليس أمامنا الآن إلاّ هذا ، واني محتمل عنك عار هذا اللوم يا بني ، فما أنا بتاركك لتبقى هنا ، فما عليك إلاّ أن تقفز قفزة واحدة فتصبح في الخارج ، ثم بعد ذلك نعدو كالغزلان» .

فأجبت : «لا ، لن أهرب ، أنت تعرف جيّداً أنك لا ترضى بهذا ، لا أنت ولا السيد ولا الكابتن ، ولست أنا الذي يفعل ذلك ، إن «سلفر» قد ائتمنني وأنا قد عاهدته ، واني لا محالة راجع إليه . غير أنك لم تدعني أتمم أيها الطبيب ، فإذا صار الأمر إلى تعذيبي فإني مخبرك بمقر السفينة ، فقد استحوذت عليها بمساعدة الحظ وعظيم المخاطرة ، وإنك لتجدها راسية في المدخل الشمالي على الشاطئ الجنوبي تحت علامة الماء تماماً . وعندما يكون المد في منتصفه ستجدها في الأرض اليابسة» .

فصاح متعجّباً : «السفينة !» .

فشرحت له خبر مخاطرتي بسرعة ، فكان يصغي إليّ حتى انتهيت وهو صامت لا ينطق .

فلمّا فرغت من القصة قال : «إن في ذلك لآيةً من آيات القدر ، فأنت تنقذنا في كل خطوة ، وهل تظن أننا سندعك تخسر صفقتك؟ إن هذا ليكون جزاء سيئاً يا بني ، فأنت الذي كشفت المؤامرة ، وأنت الذي عثرت على «بن غن» ، وهذا خير ما فعلت وما ستفعل في حياتك حتى لو عمّرت إلى التسعين» . ثم قال مخاطباً «سلفر» : «إني أنصحك يا «سلفر» بألاّ تكثر من الإسراع في بحثك عن الكنز» .

فقال «سلفر» : «لماذا يا سيدي؟ أليس لي أن أبذل جهدي في هذا

السبيل؟ إني إن فعلت أكن عاملاً على إنقاذ حياة هذا الصبي وحياتي أيضاً بلا ريب» .

فأجاب الطبيب : «حسن يا «سلفر» ، إذا كان الأمر كذلك فإني مخبرك بشيء آخر فوق هذا ، وهو أنكم ستلاقون الهلاك قبل العثور عليه» .

فقال «سلفر» : «إن حديثك ليجمع بين عظم المعنى وصغره في آن واحد ، فعمّ كنت تبحث عندما تركت المنزل المحصن؟ وما الذي حدا بك لأن تعطيني الرسم؟ إنه لا علم لي بشيء من ذلك حتى الساعة ، ومع كل ذلك فأنا لا أزال عاملاً بأوامرك ، منقاداً لها انقياداً أعمى من غير أن أحظى من فمك بكلمة تُذهب عني مرارة اليأس ، وأغلب ظني أن وراء الأكمة ما وراءها ، فإن لم تُفصح لي عن مكنون صدرك ؛ فلا أقل من أن تصرح لي بذلك حتى أترك دفة الأمور» .

فأجاب الطبيب مازحاً : «ليس لي الحق في أن أصرح لك بأكثر مما صرحت ، لأن السر ليس سري كما تعلم ، ولو أنه كان كذلك لما ضننت عليك به وشرفي ، بيد أنني مُظاهرك على قدر استطاعتي ، لأني أشفق أن يظنني الكابتن خائناً ، وإني أعدك أولاً بشيء من الأمل ، فإذا نجونا سالمين من هذا المأزق فإني باذل جهدي في نجاتك ما دام ذلك لا يكلفني ارتكاب جريرة الكذب والتزوير» .

فطفح وجه «سلفر» بالأمل ، وقال : «ما كنت يا سيدي لتقدر على أكثر من ذلك حتى ولو كنت والدي» .

ثم أردف الطبيب قائلاً : «هذه إحدى المنح ، أمّا الثانية فهي نصيحة مني إليك ، وهي أن أحتفظ بالغلام ، ونحن مستعدون لمساعدتك ، وإني ذاهب للسعي في مصلحتك ، وأنت تعلم إن كنت أُلقي الكلام على عواهنه أم لا . والآن أستودعك الله يا «جيم» . ثم صافحني من بين خلل السياج وأومأ إلى «سلفر» برأسه وانطلق نحو الغابات .

- ٣١ -

البحث عن الكنز

حين عدت وانفردت بـ«سلفر» خاطبني قائلاً : «إن نحن تعاونا على الخلاص فلن أنسى لك هذا ، لقد رأيت الطبيب يحرضك على الهرب بطرف عينه ، ورأيتك وأنت ترفض بوضوح ، وإن هذا لمّا يزيد في مركزك رفعة في نظري ، وهو أول بريق من الأمل ينزل بقلبي منذ فشل الهجوم ، وإني مقر لك به ، والآن يا «جيم» سنذهب للبحث عن الكنز دون معرفة التفاصيل على الرغم مني ، ولهذا يجب أن يعضد أحدنا الآخر حتى نتمكّن من النجاة» .

وفي هذه اللحظة نادانا رجل من جهة النار قائلاً : «الفطور قد أُعد» . فجلسنا دون انتظام على الرمل نأكل من الكعك واللحم القديد المشوي ، وكان الرجال قد أوقدوا ناراً تكفي لشواء ثور ، وكان اشتد سعيرها إلى حدّ أنه صار يتعذر الاقتراب منها إلا من جهة هبوب الريح ، وحتى من تلك الجهة كان يجب أن يكون الإنسان في غاية الاحتراس ، كما أنهم أسرفوا كل الإسراف كعادتهم فطهوا طعاماً يبلغ ثلاثة أمثال ما يمكننا أكله ، وقد رمى واحد منهم ما تبقى من طعامه في النار وهو يضحك بغير داع ، ثم زاد ضحكاً عندما زاد التهاب النار جراء ذلك ، وما رأيت في خيالي قوماً أكثر تبذيراً من هؤلاء ، فهم لا يدخرون لغدهم شيئاً ، وأحسن ما يوصفون به أنهم يعيشون من يدهم إلى فمهم ، ومع أنهم كانوا يسرفون في طعامهم وينامون في أثناء خفرتهم ، فقد كانوا شجعاناً في المعارك ، إلا أنهم ما كانوا ليصلحوا في موقعة إذا طال عليهم الأمد .

وحتى «سلفر» ما كان ليجرؤ على أن يلوم واحداً منهم على فرط

تبذيرهم ، وقد جعل يزدرد طعامهم وعلى كتفه الببغاء «كابتن فلنت» ، وقد أعجبت لهذا كثيراً لأني ما رأيته قط أكثر مخادعة ممّا كان عليه في تلك اللحظة . ثم إنه خاطبهم بقوله :

«إخواني ، إنه لمن حسن حظكم وجود رجل مثلي بينكم ليرشدكم بحصيف رأيه ، فها أنا قد ظفرت بما أريد ، ولا ريب عندي في أن مجموعة الطبيب قد استحوذت على السفينة ، ولكن لا علم لي بمكانها ، فإذا نحن وجدنا الكنز وجب علينا أن نبحث عنها بهمة ، واعلموا يا إخواني أن الكفة الراجحة إنما هي للجماعة التي تحوز على السفينة» . وكان يتحدث وفمه مملوء بلحم الخنزير المملح الساخن ، فأعاد إليهم ثقتهم به ، ثم أصلح ذات البين بينه وبينهم ، حتى أدركتني خلجات من الشك في أمره .

واستمر قائلاً : «أمّا بالنسبة إلى هذا الغلام فإن هذا هو آخر حديث له معهم على ما أظن ، وإني قد وقفت على ما أردته من الأخبار ، فشكراً له على ذلك ، وقد قضي الأمر ، وإني سأربطه معي عندما نذهب في سبيل البحث عن الكنز ، ونحن لا بد محتفظون به احتفاظنا بالذهب ، ولسوف ينفعنا في وقت الحاجة لا محالة ، وعندما نستحوذ على السفينة والكنز معاً ، ونقلع بهما إلى اليم وقد ملأ الفرح قلوبنا ، فسنبحث في مسألة السيد «هوكنز» وسنعطيه نصيبه من الكنز بكل تأكيد جزاء معروفه» .

ولا غرو أن القوم صاروا في غاية الانشراح ، أمّا أنا فقد اكتأبت ، فلو نجح المشروع الذي رسمه «سلفر» ، الذي مثل دوره جيّداً مع الفريقين ، فهو لا بد منفّذه بلا تردد ، فقد كان محتفظاً بعلاقاته مع الطرفين ، وهو لا بد مفضل المال والحرية مع القرصنة على نجاته من الشنق ، وهي أكثر مما يرجوه ، إذا هو انضم إلينا .

وحتى لو أنه قُدِّر له واضطر إلى الانضمام إلى جهة الطبيب «ليفزي» ، فما أشد الخطر الذي يصبح فيه كلانا ! وما أفظع تلك اللحظة ! ساعة ينقلب رفاقه ضدنا فنضطر بالضرورة إلى أن نقف كلانا منفردين للدفاع عن حياتنا العزيزة ، وإن هو إلاّ رجل ذو ساق واحدة ، وما أنا إلاّ صبي ، أمّا أعداؤنا فخمسة من أشدّاء البحارة .

أضف إلى هذا الخوف المزدوج تصرف جماعتي المبهم ، من تركهم الدريئة ، الذي أعياني إدراك سببه ، وتنازلهم عن الرسم ، بالإضافة إلى ما كان من إنذار الطبيب الغامض إذ قال : «إنكم ستلاقون الهلاك قبل العثور عليه» ، ولك أن تدرك كيف أنني لم أجد للفطور لذة ، ولا سيما أنني كنت على أهبة الذهاب مع سجّاني في ذهابهم للبحث عن الكنز .

وكان منظرنا غريباً لمن يرانا في ذلك الوقت ، فكانت جميع ملابسنا ملابس بحارة قذرة ، وهم جميعاً ، إلاّ أنا ، مدججون بالسلاح ، فكان مع «سلفر» بندقيتان إحداهما في يده والأخرى وراء ظهره ، بالإضافة إلى السكين الكبير الذي كان معلقاً في وسطه ، ومسدس في كل جيب من جيوب معطفه الكبير المربّع الذيل ، أضف إلى هذا رؤية «كابتن فلنت» جاثماً على كتفه وهو يردّد ألفاظاً بحرية دون معنى ، وقد شد «سلفر» حبلاً إلى وسطي فجعلت أتبعه مطيعاً ، وكان يقبض على الطرف الآخر من الحبل مرة بيده ومرة بأسنانه الحادة ، فكنت بذلك مسحوباً كالدبّ الذي يرقص .

وأمّا الرجال الآخرون فكانوا يحملون أشياء مختلفة ، فبعضهم كان يحمل معاول وجواريف ، وكانت هذه أولى الضروريات التي أنزلوها معهم إلى البحر من الهسبنيولا ؛ وبعضهم كان يحمل لحم خنزير وخبزاً وبراندي لأجل الغداء ، وكانت كل المؤن ممّا خزناه ، وقد

أخذت ألاحظ تحقق ما ذهب إليه «سلفر» في حديثه مع رفاقه القراصنة بالأمس ، فلو أنه لم يتفاوض مع الطبيب لعاش وأصحابه على الماء والخبز ، وعلى ما عساهم يتصيدونه بعد تركهم السفينة ، أمّا الماء فلم يكن بالغذاء الشهي عندهم ، والبحارة لا يحسنون الصيد عادة ، أضف إلى هذا أنه إذا قلّت مؤونتهم من الطعام ، فمن المرجح أن يتلاشى ما لديهم من البارود .

ثم إنّه وبعد أن أخذنا أهبتنا على ما ذكرت ، ذهبنا جميعاً ، ويرفقتنا الرجل المهشم الرأس ، مع أنه كان ينبغي له أن يلوذ بالظل ، وسرنا حتى وصلنا الشاطئ ، حيث كان القاربان في انتظارنا ، وقد ظهرت على القاربين نتائج سكر البحارة ، فكان أحدهما مهشّم العارضة ، وقد امتلأ كلاهما بالأوحال بعد أن جف عنهما أثر الماء ، وكان ينبغي لنا أن نركبهما طمعاً في النجاة ، فوزعنا الرجال عليهما واتجهنا إلى قلب الميناء .

وبينما كنا نجذف دارت المناقشة حول الرسم ، حيث إن الصليب الذي بالمداد الأحمر كان كبيراً جداً إلى درجة يصبح معها عديم الفائدة ، أمّا الألفاظ التي في ظاهر الورقة فقد كانت مضللة ، كما يتذكر القارئ بيانها .

شجرة طويلة ، كتف «المنظار» ، الاتجاه الشمالي للجهة الشمالية الشرقية .

جزيرة الهيكل العظمي شرق الجنوب الشرقي في الجهة الشرقية .

عشرة أقدام .

فكانت الشجرة الطويلة هي العلامة المميّزة ، وكان الميناء أمامنا محدوداً بهضبة يبلغ ارتفاعها من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قدم ، تتصل من جهة الشمال بكتف «المنظار» المتدرج الانحدار من الجهة الجنوبية ، ثم

يرتفع ثانياً من الجهة الجنوبية حتى يكوّن قمة التل العالية المسماة «سارية ميزّن» ، وقد نبتت فوق الهضبة أشجار كثيفة من الصنوبر مختلفة الطول ، وكان يتخلل هذه الأشجار أشجار أخرى من فصائل مختلفة تزيد في الطول عمّا جاورها بنحو الأربعين أو الخمسين قدماً ، فأي هذه الأشجار كان يقصد الكابتن «فلنت» بقوله (الشجرة الطويلة) وهذا لا يمكن تعيينه بالضرورة إلاّ في النقطة نفسها بالبوصلة؟ !

وعلى هذا الحال كان كل رجل من الذين فوق القاربين قد اتخذ لنفسه رفيقاً قبل أن نصل إلى منتصف الطريق ، وأمّا «جون» الطويل فكان يهز كتفيه وحده ويأمرهم بالانتظار حتى يصلوا إلى المكان .

كنّا نجذف على مهل حسب أوامر «سلفر» ، حتى لا يرهقنا العناء قبل الأوان ، وبعد أن قطعنا مسافة طويلة ، رسونا عند مصب النهر الثاني الذي يجري بين منحدر علوه بالأشجار متصل «بالمنظار» ، ثم انعطفنا إلى يسارنا ، وابتدأنا نصعد الميل المؤدي إلى الهضبة .

وقد عاق سيرنا في أول الطريق ليونة الأرض ذات المستنقعات النابتة فيها الأعشاب ، ثم صار التل يرتفع تدريجيّاً ، حتى أصبحت الأرض صخرية تحت أقدامنا ، وتغيّر منظر الغابات وشكلها فصار متسعاً أمامنا ، فكان الجزء الذي بلغناه من أجمل بقاع الجزيرة ، حيث تبدل الحشيش بأغصان أشجار ذات عَرف فوّاح ، وأعشاب مزهرة يانعة ، وكانت آجام من أشجار جوزة الطيب الخضراء ، وخطوط من أشجار الصنوبر الحمراء ذات الظل الوارف ، منتشرة هنا وهناك ، وكانت رائحة أثمار الأشجار تمتزج برائحة زهر الثانية ، والهواء إلى كل ذلك كان منعشاً .

ومن ثمَّ انتشرت الجماعة على شكل مروحة وهم يصرخون ويطفرون في كل مكان وناحية ، وقد تبعهم على مسافة بعيدة منهم

«سلفر» (وأنا وهو يسحبني بحبل) ، وقد جعل ينكت الأرض بعكازه ، وهو يجاهد في سيره فوق مزلج شديد الانزلاق ، ولولا مساعدتي إياه من آن إلى آخر لزلت به القدم وسقط إلى الخلف في انحدار التل .

وما إن قطعنا نصف ميل وأشرفنا على الوصول إلى جهة الهضبة ، حتى صاح رجل بصوت مرتفع كمن مسه سوء ، وكان مصدره من أقصى موضع على يسارنا ، وقد جعل صراخه يقرع أسماعنا باستمرار ، فأسرع الباقون نحوه وهم يركضون .

قال «مورغان» الهرم وهو ماض في عدوه : «لا يمكن أن يكون قد وجد الكنز ! فإن هذا على القمة تماماً» وقد تحققنا من صحة قوله لما وصلنا المكان .

كان الرجل قد عثر بهيكل عظمي لإنسان ، وبعض آثار من الملابس البالية ملقاة على أديم الأرض عند جذع شجرة صنوبر ضخمة ، وكانت بعض النباتات المتسلقة قد اختلطت بالهيكل ، ورفعت بعض العظام الصغيرة ، ولا ريب عندي في أن قشعريرة سرت إلى سائر قلوبنا من هول هذا المشهد .

فقال «جورج مري» وهو أكثر الجميع إقداماً ، وكان قد اقترب منه وجعل يمتحن الملابس البالية : «كان بحاراً ، وعلى أي حال فإن هذا قماش بحارة جيد النوع» .

وعقّب «سلفر» : «إن قولك محقّ تماماً ، لعلك لا تنتظر أن تجد هنا مطراناً على ما أعتقد . ولكن كيف وجدتم حالة وضع العظام؟ هل كان طبيعياً؟» .

وبالفعل ، فإنك لا تكاد تلقي نظرة أخرى على حالة وضع الجثة حتى تتحقق بأنه ليس طبيعياً ، ولولا بعض تغيّرات موضعية حوله (نتيجة انقضاض الطيور التي كانت تأكل من لحمه أو جراء نموّ

النباتات المتسلقة) كان الرجل مطروحاً وممدّداً على طول قامته وقد اتجهت قدماه إلى جهة ، وارتفعت يداه فوق رأسه كالغواص ، وهما يتجهان في الجهة المقابلة لاتجاه قدميه تماماً .

ثم قال «سلفر» : «إني لن أهتم بهذا الغبي ، فهذا بيت الإبرة ، وها هي قمة جزيرة الهيكل العظمي بارزة كالسن ، وما عليكم إلا أن تمدوا خطاً يمر بطول هذه العظام» .

ولمّا صدعوا بأوامره ، وجدوا أن الجسم كان يتجه نحو الجزيرة تماماً ، وكان اتجاه الإبرة إلى جنوب الجنوب الشرقي بانحراف إلى الشرق ؛ فصاح «سلفر» قائلاً : «هذا ما فكرت فيه ، فإن هذا هو المؤشر ، وفوقه تماماً تجدون النجمة القطبية والنقود اللطيفة ، وأيضاً الكنز . ولكن يا الله ! فإن قلبي ليثلج عندما أذكر «فلنت» ، فإن هذا الشيء من مداعبته بلا شك ، وإني مراهن بحياتي أنه كان هنا وحده مع هؤلاء الستة ، ثم قتلهم جميعاً ، وسحب جثة هذا الرجل إلى هنا ووضعه بإحكام وعيَّن اتجاهه بالبوصلة ، فإن صاحب هذه العظام الطويلة ، وذلك الشعر الأصفر ، لا بد أن يكون «اللاّرديس» فهل تذكر «اللاّرديس» يا «توم مورغان»؟» .

فأجاب «مورغان» : «نعم ، نعم إني لأذكره ، فإنه مدين لي ببعض النقود بكل تأكيد ، وقد أخذ معه سكينتي عندما نزل إلى الشاطئ» .

وقال آخر : «وبمناسبة ذكر السكاكين ، فلماذا لم نجد سكينة بجواره؟ فما كان «فلنت» بالرجل الذي يأخذ الأسلاب من جيوب البحارة ، ولا أحسب الطيور حملتها» .

فصاح «سلفر» : «إن هذا منطقي» .

ثم قال «جورج مري» وهو يبحث بين العظام : «إني لا أرى شيئاً باقياً حتى ولا قطعة من العملة النحاسية ولا علبة دخان ، وهذا غير

عادي ولا مستحسن ، فورب السماء يا إخوان لو أن «فلنت» لا يزال حيّاً لأرانا يوماً عبوساً مخيفاً ، فقد كان البحارة الذين فتك بهم ستة ، بيد أنه أحالهم رفاتاً» .

فقال «مورغان» : «إني رأيته ميتاً بعيني هاتين ، فإن «بيلي بونز» أدخلني عليه ، فكان راقداً وفي عينيه فُتات من النبات» .

ثم قال الرجل الذي كان رابطاً رأسه : «لقد مات بلا شك ودُفن ، ولكن إذا كان في استطاعة الأرواح أن تسير ، فإن روح «فلنت» أول روح تفعل هذا ! يا لهفي فإن «فلنت» قد مات ميتة رديئة !» .

وصاح آخر : «لقد كان «فلنت» لحظة موته يصيح تارة في شدة من الغضب ، وكان طوراً يزمجر طالباً الروم ، وكان يغني أغنية (الخمسة عشر رجلاً) ، وكانت هذه أغنيته الوحيدة التي لا يترنم بغيرها يا إخوان ، وإني مُصدقكم القول بأني أمسيتُ كارهاً لسماع تلك الأغنية مذ ذلك العهد ، فقد كان الحر شديداً ساعتئذ ، وكانت النافذة مفتوحة ، فكانت ألفاظها تطن واضحة في مسمعي ، مع أن «فلنت» كان يعالج سكرات الموت» .

ثم قال «سلفر» : «هلموا ، هلموا ودعوا عنكم هذا الحديث ، فقد مات «فلنت» ولا ظنة عندي اليوم في أنه يستطيع المشي ، وهذا ما أعرفه جيداً ، وعلى الأقل فهو لا يمشي في النهار ، وتأكدوا بأن القطة تموت من كثرة التفكير مع طول عمرها ، فأولى لكم أن تبحثوا عن الدبلون(*)» .

وبدأنا البحث بكل همة ، رغم حرارة الشمس وشدة حرّ النهار ، وصار القرصان لا يسيرون منفردين في الغابة ، بل مجتمعين ، وكانوا لا يتكلمون إلا همساً ، فقد أزعجهم الوهم وأقلق راحتهم الذعر من القرصان الميت .

(*) عملة إسبانية .

- ٣٢ -

الحيلة

عندما وطئت المجموعة قمة المرتفع جلسوا جميعاً على الأرض لفرط ما أصابهم من الهول ، ولكي يستريح «سلفر» والضعاف منهم من مشقة المسير .

كانت الهضبة ذات ميل وانخفاض من جهة الغرب ، وكان في استطاعتنا أن نرى متسعاً كبيراً من خلال المكان الذي وقفنا فيه ، فكنا نرى أمامنا من خلال قمم الأشجار «رأس الغابات» وتحته الأمواج من جميع الجهات ، وكنا لا نرى خلفنا الميناء وجزيرة الهيكل العظمي فقط بل كنا نرى أيضاً ـ بكل وضوح ـ اللسان والأرض المنخفضة التي من الجهة الشرقية ومتسعاً عظيماً من البحر من جهة الشرق ، وكنا نرى «المنظار» مرتفعاً عالياً فوقنا تماماً ، ثم إنك ترى بعض أشجار الصنوبر المنتصبة في تلك الناحية ، ومن الجهة الأخرى كنت ترى سواد الأرض ذات المنحدرات السحيقة ، وما كنت تسمع سوى هدير الأمواج وصوت ارتطامها على الشاطئ ، وهي تظهر عالية في جميع أنحاء الجزيرة ، وطنين الحشرات التي لا حصر لها بين الأعشاب ، وما كنت ترى إنساناً ولا سفينة فوق سطح اليم ، ولقد زاد اتساع المنظر المنبسط أمامنا من أثر الوحشة في نفوسنا . وقد استند «سلفر» إلى بعض قراءات البوصلة للجهات في أثناء جلوسه وقال : «إني أرى ثلاث شجرات طوال على خط مستقيم من جزيرة الهيكل العظمي ، وإني لا أظن أن المقصود بلفظة كتف «المنظار» هو تلك النقطة السفلى التي هناك ، وإلاّ فقد صار العثور بالكنز في غاية السهولة ، حتى على

الطفل ، والآن لنتناول الغداء أولاً» .

فهمهم «مورغان» وقال : «لست على رأيك في ذلك ، إن التفكير في «فلنت» أزعجني» . .

فقال «سلفر» : «حسن ، إني أشكر حسن طالعك يا بني ، فإن «فلنت» قد مات» .

وقال قرصان ثالث وهو يهز كتفيه : «كان عفريتاً قبيح المنظر ، أزرق اللون» .

ثم أضاف «جورج مري» قائلاً : «وهذا يبيّن كيف أهلكه شرب الروم ، كان أزرق ! هذا صحيح فإنه كان أزرق» .

وقد جعلوا يخفضون من أصواتهم تدريجياً مذ شهدوا الهيكل العظمي بحيث أخذ منهم الفكر كل مأخذ ، حتى أمسوا لا يتكلمون إلاّ همساً ، فكان صوت حديثهم يؤثر في سكون الغابات . وإنّا لكذلك إذ نزل بسمعنا على حين غرة صوت رفيع عالٍ متهدج رفع صاحبه عقيرته مغنّياً تلك الأغنية المعروفة بنغمتها المتداولةَ :

خمسة عشر رجلاً على صدر الميت

يو هو هو وزجاجة روم !

ولم أرَ في حياتي قوماً أصابهم الخوف والفزع أكثر من هؤلاء القرصان في تلك اللحظة ، فقد فرّ الدم من وجوههم بسرعة السحر ، ونهض بعضهم على قدميه ، وأمسك بعضهم بعضاً بقوة ، وأمّا «مورغان» فخر طريحاً على الأرض .

فصاح «جورج مري» : «فلنت مات» .

ثم توقّف الغناء فجأة كما بدأ ، وقد انقطع في وسط النغمة كما لو كان قد وضع أحد يده فوق فم المغني وكتمه .

قال «سلفر» وهو يزمّ شفتيه الصلبتين : «إن هذا لا يُطاق ، استعدوا

للمسير ، إن هذا ابتداء تأثير شرب الروم ، وإنه لا يمكنني تسمية هذا الشخص الذي يغني إلا أنّه إنسان يريد أن يرفع صوته بالتدريج ، وهو شخص له لحم ودم بلا شك .

وقد عاودته شجاعته عندما تكلم ، وكذلك ارتد إليه دم وجهه ، ثم ثاب الباقون إلى رشدهم قليلاً وأنصتوا إلى تشجيعه ، وإذ بذلك الصوت قد صدح ثانية ، ولم يكن غناء في هذه المرة بل كان ينادي على بعض بصوت خافض ، إذ كان له صدى أقل ضآلة رددته صخور وشقوق «المنظار» .

كان الصوت ينادي «داربي ماغراو» ـ هذه هي الألفاظ التي تضعف الصوت ـ «داربي ماغراو» ! وكان هذا يتكرر مراراً عديدة ، ثم يرتفع قليلاً ثم يقسم قسماً لم أذكره ويقول «أحضر الروم يا داربي» .

فوقف القراصنة وكأنهم قد ثبتوا في أديم الثرى ، وكادت عيونهم تطير من رؤوسهم ، وقد ظلوا يحدقون إلى الأمام بعد مضي مدة على سماعهم الصوت ، وقد علتهم أمارات الوجل والاضطراب .

ثم صاح الصوت قائلاً : «إن في هذا لدليلاً واضحاً على ما ذهبنا إليه ، فهلموا بالرحيل» .

فناح «مورغان» قائلاً : «أجل ، لقد كانت هذه آخر كلمات «فلنت» فوق ظهر السفينة» .

وكان «ديك» قد أخرج الإنجيل وصار يصلّي وهو يتعوّذ مسرعاً بصوت غير فصيح ، وكان الشاب قد تربى تربية حسنة لو لم يتخذ البحر مهنة ويقع بين رفاق سوء كهؤلاء .

ولم تكن بوادر الهزيمة قد ظهرت على «سلفر» بعد ، بيد أني كنت أسمع أسنانه تصطك في فمه ، إلاّ أنه لم يكن قد استسلم .

ثم قال بصوت منخفض : «ليس في هذه الجزيرة أحد قد سمع

بـ«داربي» أبداً ، وليس أحد من زملاء البحر موجود سوانا!» .

ثم صـاح قـائلاً : «يا رفاقي ، إني أتيت للبـحث عن الكنز وليس ليهزمني إنسـان أو عـفريت ، إني لم أكن أخشى «فلنت» في حياته ، وبالله القوي لأواجهنّه ميتاً ، إن هنا لسبعمائة ألف جنيه ، على مسافة لا تتجاوز ربع الميل من هذا المكان ، فمتى كان الرجل المحترم منا ليولي ظهره ولو إلى مقدار من المال كـهـذا خوفاً من بحـار هرم ، أزرق الوجه ، عدا عن كونه ميتاً أيضاً؟» .

على أنه لم تبـد عـلامـة من عـلامـات الارتياح على أتباعـه ، بل بالعكس كان خوفهم ينمو ويزداد مع تردد ألفاظه التي ما كانت لتدل على الاحترام للأرواح .

كان الخوف مـلأ قلوب الباقين حتى ألجمهم عن الجواب ، فلو أنهم تجاسـروا على الهـرب أفـراداً لفـعلوا ، إلاّ أن الخـوف جـعلهم يظلون مـجتمعين ، وهم أشـد ما يكونون ملاصقة لـ«جون» ، كما لو كانوا يحتمون بجرأته ، أمّا هو فقد أحسن مجالدة ضعفه حتى حظي بالنصر عليه .

قـال : «أروح هي؟ قـد يكون الأمـر كـذلك ، بيـد أنني لا أعـرف إلاّ أمـراً واحـداً وهو وجـود صـدى للصـوت ، ولا يعـرف أحـد رجـلاً رأى روحـاً ذات صـدى ، أمـا وقـد كـان الأمـر كـذلك ، فـمـا مـعنى وجـود صـدى لصـوته؟ هـذا مـا أريد أن أعـرفه ، وإني لواثق كـل الثـقة من أن الأمر ليس طبيعياً دون ريب» .

ولقد كـانت حجته هذه واهـية جداً في نظري ، إلاّ أنك لا تسـتطيع أن تعرف ما يؤثر في الذين يعـتقدون في الخرافات ، وقد عجبت كثيراً عندما رأيت أن هذا قد هوّن على «جورج مري» .

فقـال «جـورج» : «حـسن ، إن الأمـر لكذلك ، فـإن لك رأسـاً فـوق

كتفيك يا «جون» ، ولا شك في ذلك يا رفاق ! وإن هؤلاء القوم لمضللون على ما أعتقد ، وإذا فكرنا فإن الصوت يشبه صوت «فلنت» ، وهذا ما أنا مُسلم به ، بيد أنه لم يبلغ في وضوحه صوت «فلنت» ، وبعد ، فإنه يشبه صوت شخص آخر ، أشبه بصوت شخص آخر» .

ثم صاح «سلفر» قائلاً : «بالله عليكم . . إنه بن غن !» .

فقال «مورغان» وهو ينتصب على ركبتيه : «أجل ، إن قولك لشبيه بالحق ، فهو لا بد أن يكون بن غن» .

ثم اعترض «ديك» قائلاً : «لا يغلظن عليكم حديثي ، فإني أقول بأن «بن غن» و«فلنت» ليسا موجودين هنا بجسميهما» .

ولكن البحارة الكبار السن قابلوا ملاحظته بازدراء .

فصاح «جورج مري» : «لماذا ، فما كان أحدنا ليهتمّ بـ«بن غن» سواء أكان حياً أم ميتاً» .

فأدركني العجب لما رأيته من عودة الشجاعة إلى قلوبهم وعودة دم الحياة إلى الانتشار في وجوههم ، فسرعان ما صاروا يتحادثون مع بعض من غير أن يصمتوا إلاّ في أثناء إصغائهم للكلام ، وبعد هذا بقليل وعندما لم يسمعوا صوتاً بعد ذلك ، حملوا أدواتهم على أكتافهم واستأنفوا المسيرة ثانية ، فكان «جورج مري» سائراً في المقدمة ومعه بوصلة «سلفر» حتى يجعلهم يسيرون في خط مستقيم من جزيرة الهيكل العظمي ، وقد صدق في قوله بأن لا أحد يهتم بـ«بن غن» حياً كان أو ميتاً .

وكان «ديك» قابضاً على الإنجيل بيده ، وهو ينظر حوله كلما مشى نظرات الخائف ، إلاّ أنه لم ير مشجعاً له على ذلك ، وكان «سلفر» نفسه يسخر منه لشدة احتراسه .

قال له : «لقد قلت لك إنك قد أتلفت إنجيلك ، أما وقد صار غير صالح للقسم به ، أفتظن بعد ذلك أن الأرواح تخشاه؟ لا إنها لا تخشاه» .

ولكن «ديك» ما كان ليذهب عنه الكدر ، وبالفعل ظهر لي أن الفتى على وشك الوقوع في المرض ، وقد عجلت شدة الحر ، وكثرة التعب ، وتأثير الخوف ، من سريان الحمى التي أخبر بها الطبيب «ليفزي» ، فصارت تزداد بسرعة مدهشة .

وكان المنظر فوق هذه القمة في غاية الجمال ، وكان طريقنا تحت قمة التل بقليل ، لأن الهضبة كانت تنحدر انحداراً متدرّجاً من الجهة الغربية ، وكانت أشجار الصنوبر ثابتة على مسافات بعيدة ، وكانت هنالك مسافة طويلة تمتد من بين أشجار جوزة الطيب الملتفة الكثيفة إلى أشجار الزعرور تشتد حرارة الشمس فيها ، وبينما كنا نسير مقتربين إلى الجهة الشمالية الغربية من الجزيرة ، كنا نقترب من جهة إلى كتف «المنظار» ومن الجهة الأخرى كنا نطل على الخليج الغربي الذي كنت بالأمس القريب أتخبط فيه بالقارب .

ثم وصلنا إلى أول الأشجار العالية ، فظهر لنا خطأ الموضع ، وهكذا كان الأمر مع الثانية والثالثة ، حيث كانت مرتفعة نحو المائتي قدم فوق ما جاورها من الأعشاب الكثيفة التي تنبت تحت أشجار الغابات ، وكانت ثمة دوحة عالية جداً ذات لون أحمر في حجم البيت ، وهي وارفة الظل ، حتى إنها لتظلل تحتها نحو المائة من الجند في مناورتهم ، وكانت ظاهرة للعيان من ناحية البحر من الجهتين الشرقية والغربية ، حتى كان يحسن أن تُستعمل علامة للملاحة على الرسم البياني .

وما كانت ضخامتها لتهم زملائي في شيء ، بقدر ما كان يهمهم

يقينهم بوجود سبعمائة ألف جنيه مدفونة في موضع تحت ظلها ، فكانوا كلما ازدادوا اقتراباً ازدادوا شجاعة وزال عنهم أثر الخوف والاضطراب ، فكانت أعينهم تتقد في رؤوسهم ، وأرجلهم تزداد سرعة وخفة ، لأن أرواحهم كانت متعلقة بهذا المال ، حيث كانوا يُمنون أنفسهم بأن يعيشوا ما بقي من عمرهم في الترف والإسراف .

وكان «سلفر» يتقدّم فوق عكازه وهو يدمدم ، وأنفه بارز مرتعش ، وكان يسب ويلعن كالمجنون عندما تحط ذبابة على وجهه الحار البرّاق ، وكان يشد الحبل الذي كنت مربوطاً في طرفه بغضب ، وينظر إليّ شذراً من وقت إلى آخر نظرات ملؤها الغيظ ؛ ولا ريب في أنه لم يشأ أن يخفي ما يكنه ضميره من الأفكار التي كانت تجول في رأسه ، وكنت أقرأ هذه الأفكار بكل وضوح كأنها خط بارز ، وكأنما قد أنساهم اقترابهم من الذهب كل شيء ، فزال من فكر «سلفر» كل ما كان من وعده للطبيب ، وما كان من تحذير الطبيب له ، وأصبح كل ذلك من الأشياء الماضية ؛ وكنت لا أشك في أنه كان يأمل في العثور على الكنز والبحث عن الهسبنيولا وركوبها في جناح الليل ، بعد أن يذبح كل الأحياء في هذه الجزيرة ثم يقلع بها كما أراد في البدء وهي مشحونة بالكنز .

ونظراً لما حل بي من تأثير هذه المخاوف فقد كان من الصعب عليّ المثابرة على مجاراة الباحثين عن الكنز في سرعة سيرهم ، فكنت أتعثر بين آونة وأخرى ، وكان «سلفر» يجذب الحبل إليه بقوة وخشونة ، ويصوب إليّ نظراته القاتلة ، وكان «ديك» الذي تخلف وراءنا ، وصار الآن في المؤخرة ، مستمراً في قراءة الصلاة ، بينما كانت درجة حرارة جسمه في ازدياد ، وكان هذا ما يزيد في تعاستي ، والذي زاد اضطرابي ما جال في فكري من سماعي للقصة المحزنة التي تُليت فوق

الهضبة ، حيث قتل ذلك القرصان الشرير ذو الوجه الأزرق «فلنت» في الأرض الجرداء ـ وهو يغني ويصيح طالباً الخمر ـ ستة رجال من رفاقه بيده ، ولا بد أن هذا التل الهادئ قد ردّد صيحاتهم المروّعة .

وكنت كلّما تصورت هذه الفظائع كلما يُخيل إليّ بأني لا أزال أسمع صوتهم يرن في أذنيّ ؛ وكنا قد صرنا الآن عند حافة الغابة .

وهنا صاح «جورج مري» قائلاً : «هلموا يا رفاقي جميعاً» فجرى أسبقهم إليه .

وما إن ركضوا عشر خطوات ، حتى توقفوا فجأة ، ثم سمعنا صوتاً خافتاً ، وكان «سلفر» قد ضاعف من سرعته وصار يحفر الأرض بطرف عكازه الأسفل كمن به مس من الجنون ، وفي اللحظة الثانية كان كلانا قد جمد في موضعه بلا حراك .

لقد شهدنا أمامنا حفرة كبيرة ، ليست حديثة العهد جداً ، حيث كانت بعض جوانبها قد انهارت شيئاً ، وقد نبتت في خرابها بعض الحشائش ، وألفينا فيها مقبض معول كُسر شطرين ، وانتشرت على جوانبها ألواح بعض صناديق البضائع ، ورأيت أحدها موسوماً بحديد محمّى ، قرأت عليه كلمة «ولرس» ، وكان هذا اسم سفينة «فلنت» .

وبات الأمر واضحاً جليّاً ، فقد احتفر الكنز محتفر وذهبت السبعمائة ألف جنيه .

- ٣٣ -
هزيمة الأشرار

في الواقع لم يكن ثمة رد فعل أعظم شراً من هذا في الوجود ، فكأنما أُصيب كل من هؤلاء الرجال الستة بصدمة قاتلة ، غير أن وقعها على «سلفر» ما لبث أن زال عنه في أقرب وقت ، فكانت كل حواسه مضطربة على النقود ، كأنه أحد المتبارين في السباق ، ومع أنه سكن لحظة سكون الموتى ، بيد أنه احتفظ بعقله ، وتمالك أعصابه ، وبدّل خطته قبل أن يفطن الباقون إلى خيبتهم .

فهمس في أذني : «خذ هذا يا «جيم» ولتساعدني عند الحاجة» .

ثم ناولني مسدساً مزدوج الأنبوب .

وفي الوقت نفسه جعل يتحرك بهدوء إلى جهة الشمال ، وما إن خطا بضع خطوات حتى كانت الحفرة تتوسط بيننا وبين الخمسة الآخرين . ثم نظر إليّ وهز رأسه كأنما يقول (أنا في موقف خطر يا بني) ، ولا شك عندي في أن الموقف كان أشد ما يكون خطورة ؛ وكانت نظراته إليّ مملوءة عطفاً ومودة ، فأدركني لهذا التقلّب الدائم نفور واشمئزاز لم أتمالك معهما من أن أهمس في أذنه قائلاً : «إذاً ، فأنت قد عدت إلى تغيير خطتك !» .

ولم يكن له متسع من الوقت للإجابة ، فقد اندفع القرصان صائحين مهددين وانحدروا إلى الفجوة متتابعين ، وجعلوا يحتفرون الثرى بأصابعهم ، وأخذوا يوسعون دائرتهم وهم يفعلون ذلك ، فعثر «مورغان» على قطعة من الذهب رفعها بين أنامله ، وانفجر مرجل غضبه ، فأنشا يقذف اللعنات والسباب ، فخرجت كالميزاب من فيه ، وكانت تلك القطعة من ذات الجنيهين الذهبيين ، فتلقفتها الأيدي

مسرعة ، وما هي إلاّ لحظات حتى كانوا جميعاً قد فرغوا من تقليبها .

ثم أمسك «جورج مري» بالقطعة وجعل يهزها أمام وجه «سلفر» وهو يقول : «هل هذه القطعة هي السبعمائة ألف جنيه التي عللتنا بها؟ إنك لرجل خائن وقد مالأت أعداءنا علينا ، ثم بعد ذلك تذكر ماضيك متبجّحاً بأنك لا تخطئ في صغيرة ولا كبيرة ، أيها الغبي الأحمق!» .

فأجاب «سلفر» بمنتهى السلاطة وقوة اللسان : «ألا امضوا في تنقيبكم يا صبية ، فما أنا بمستبعد عليكم أن تظفروا إلاّ ببعض جذوع النباتات» .

فصاح به «جورج مري» : «أتقول إننا لن نظفر إلاّ ببعض جذوع النباتات؟ هل سمعتم ما يقول يا أخوان؟ ألا إنني مؤكد لكم بأن هذا الرجل إنما يعرف بكل ما كان من شأن الكنز ، وما عليكم إلاّ التحديق بسحنته حتى تشهدوا الخيانة مكتوبة على جبهته بحروف بارزة» .

فعاد «سلفر» إلى إثبات مركزه كقبطان وصاح بالرجل يقول : «ألا إنك لفتى محرض يا جورج» .

ولكنهم جميعهم كانوا في هذه المرة إلى جانب «جورج» ، فأخذوا في التسلق صاعدين من الحفرة ، وجعلوا ينظرون خلفهم نظرات سوداء من الغضب والحقد .

وقد لاحظت في تلك اللحظة أمراً واحداً أحسبه كان من حظنا ، وذلك أنهم جميعاً وقفوا في الجهة المواجهة لـ«سلفر» .

وعلى ذلك وقف كلانا في جانب ووقف خمستهم في الجانب الآخر ، تفصلنا الحفرة ، ولم يكن ثمة بينهم من يدفعه فرط هياجه إلى أن يبدأ بالضربة الأولى . أمّا «سلفر» فما كان ليتحرك ، فقد جعل يراقبهم وهو مستقيم على عكازه ، وقد ظهرت عليه أمارات

اللآمبالاة ، فيا له من موقف ! ويا لها من شجاعة !

وأخيراً خطر لـ«جورج» أن يستفز أصحابه بخطاب ، فصاح بهم قائلاً : «أيها الأخوان ، أمامكم اثنان وحيدان ، أحدهما ذلك المقعد الذي اقتادنا إلى هنا ، والذي نزل بنا مزيد حمقه ، وفرط حذقه إلى هذا الدرك ، والآخر ذلك الجرو الذي وددت لو أنني انتزعت بيدي قلبه من صدره ، فالآن يا أخوان» .

قال ذلك وهو يرفع ذراعه ، ويُعلي من نبرة صوته ، وكان من الجلي أنه قصد أن يستهل الهجوم بنفسه ، ولكن في هذه اللحظة الرهيبة الهائلة ، اخترقت الأجمة ثلاث طلقات نارية ، فخر «جورج مري» على رأسه في الحفرة ، وجعل الرجل المضمّد الرأس يدور كالدوامة ثم سقط على جنبه بعد أن تلوّى قليلاً ، بينما انثنى الثلاثة الباقون وولّوا الأدبار لائذين بالفرار .

وفي أسرع من ارتداد الطرف ، كان «جون» قد أطلق طلقتين من مسدسه على جثة «جورج مري» وهو يحتضر ، بينما كان الرجل يقلب عينيه في «سلفر» وهو في آخر لحظاته ، إذ صاح به «سلفر» وهو يقول «اشهد أني قتلتك يا جورج» .

وفي اللحظة نفسها كان الطبيب و«غراي» و«بن غن» قد وافونا من بين أشجار جوزة الطيب ، وكان الدخان لا يزال ينبعث من مسدساتهم .

وصاح بنا الطبيب قائلاً : «إلى الأمام ! فلا بد لنا من مضاعفة السرعة حتى لا نمكنهم من القاربين» .

ثم أوسعنا الخطى ، وكنا نخوض في بعض الأحراج حتى الصدر ، كان «سلفر» أشد ما يكون حرصاً على السير بجانبنا ، وقد كان المجهود الذي بذله في سبيل مواكبتنا ، من الفظاعة بمكان يتعذر معه على أي رجل سليم الجسم أن يجاريه فيه ، وذلك ما رآه الطبيب

أيضاً ، لأن عضلات صدره كانت على وشك التمزق . فلمّا أصبح منّا على مسافة ثلاثين ياردة ، وقد أوشك على السقوط مجندلاً ، كنا قد أشرفنا على حافة المنحدر ، فصاح بنا قائلاً : «لا ضرورة بعد إلى الإسراع ! انظر هناك أيها الطبيب» .

ولا شك في أنه لم يكن ثمة من حاجة إلى العجلة ، فقد كان الثلاثة الباقون لا يزالون مستمرين في عدوهم في الاتجاه نفسه الذي ولوا وجوههم شطره ساعة بدأوا بالفرار ، وكان ذلك مقابل «سارية ميزّن» ، وكنا قد توسطنا السبيل بينهم وبين القاربين ، وعلى ذلك فقد جلس أربعتنا على الأرض لنستريح من السير ، بينما جعل «جون» يتقدم نحونا متباطئاً وهو يمسح وجهه .

قال : «أشكر لك عطفك أيها الطبيب ، فلقد وافيتنا في الوقت المناسب لإنقاذنا» . ثم أردف : «وهذا أنت يا «بن غن»؟ مرحى ، مرحى ، إنك لشخص ظريف» .

فأجابه «بن غن» بقوله : «نعم أنا هو بن غن» ، وجعل يتلوى تلوي الحية الرقطاء ، ويضطرب اضطراب السمكة حيل بينها وبين الماء لفرط حيرته ، وعظيم ارتباكه . ثم أردف بعد صمت طويل بقوله : «وكيف حال السيد سلفر؟» .

ثم طلب الطبيب من «غراي» أحد المعاول التي خلفها الثائرون في إدبارهم ، وأخذنا في المسير متشدين إلى المكان الذي فيه القاربان وأفضى إلينا الطبيب ببضع كلمات موجزة بمجمل ما حدث ، فملكت حكايته على «سلفر» مشاعره ، وقد كان «بن غن» ، الرجل المتروك الذي لا لب له ، هو بطل تلك الحكاية من أولها حتى آخرها .

وبيان ذلك أن «بن» قد وُفق في تجواله منفرداً على سطح الجزيرة إلى أن يهتدي إلى الهيكل العظمي ، وهو الذي وجد الكنز واحتفره ،

وكانت يد معوله هي التي وجدناها في الحفرة ، وقد نقل الذهب على ظهره في دفعات كثيرة ، وحمله من جذع شجرة الصنوبر ، إلى كهف له على التل المزدوج القمة عند زاوية الجزيرة الشمالي الشرقي ، وكان قد فرغ من عمله واطمأن على الذهب قبل وصول الهسپنيولا بشهرين ، بعد أن كلفه ذلك من التعب والجهد الشيء الكثير .

فلمّا نجح الطبيب في الظفر بانتزاع ذلك السر من صدره ، وكان ذلك في أصيل اليوم الذي حدث فيه الهجوم ، ورأى في اليوم التالي بأن المرفأ قد هُجر ، ذهب إلى «سلفر» فأعطاه الرسم البياني الذي أصبح بالطبع لا يساوي شيئاً ، وقد أعطاه المؤونة أيضاً ، اعتماداً منه على ما كان «بن غن» قد ملأ به كهفه من لحوم الماعز التي ملحها بنفسه ، وعموماً لم يترك الطبيب شيئاً إلاّ بذله في سبيل الظفر بفرصة تمكنه من الانتقال من المنزل الخشبي إلى التل المزدوج القمة ، حيث يصبح بمأمن من فتك الملاريا ، ويتفرغ لحراسة الكنز .

ثم أضاف الطبيب : «أما أنت يا «جيم» فقد كان ما عملته رغماً من أنفي ، بيد أنني عملت ما ظننت فيه الخير لأولئك الذين وقفوا إلى جانب واجبهم ، أمّا ولم تكن أنت بالضرورة أحد أولئك ، فعلى من تقع تبعة التقصير إذاً؟» .

والحق أنه لـمّا كان من صباح هذا اليوم ، وقد أيقن الطبيب أني لا بد مورّط في نتيجة ما عساه أن يسببه يأس القرصان الفظيع الذي تسبب هو فيه ، فأكون أنا هدفاً لسهام غيظهم وحنقهم ؛ أخذ يعدو مسرعاً طول الطريق إلى الكهف ، وترك السيد «ترلاوني» لرعاية الكابتن ، وأخذ «غراي» و«بن غن» وجعلوا يسيرون على قطر الجزيرة ، ابتغاء الكمون خلف شجرة الصنوبر ، حتى يمدوا إلينا يد المساعدة إذا مست الحاجة . بيد أنه ما لبث أن عرف بأن «سلفر»

وجماعته لا بد سابقوه إلى موضع الكنز ، ولما كان «بن غن» أسرع عدواً من غيره ، فقد كلفه الطبيب ليتقدم ويؤدي ما عساه أن يستطيعه منفرداً ، فخطر له الانتفاع بالخرافات التي يعتقدها معشر الملاحين من أصحابه ، ولم يكن عمله بغير نتيجة ، حيث أمكن الطبيب و«غراي» الوصول والاختفاء قبيل وصول القرصان للبحث عن الكنز .

فقاطعه «سلفر» بقوله : «آه ، لقد كان من حسن حظي ، وتوفيق جدي ، أن معي «هوكنز» ، فلولا وجوده معنا لتركتم جون الهرم بين يدي أعدائه يقطعونه إرباً إرباً ، أليس كذلك؟» .

فأجابه الطبيب متهللاً : «أي والله ، ما كان أمرك ليعنينا مطلقاً» .

وكنا إذ ذاك قد وصلنا إلى القاربين ، فحطم الطبيب أحدهما ، ثم صعدنا جميعاً في القارب الثاني ، وشخصنا للوصول إلى المرفإ الشمالي من طريق البحر .

كانت المسافة نحو ثمانية أو تسعة أميال ، وبالرغم من أن «سلفر» كان قد أضناه التعب ، فقد أمسك بمجذاف كسائرنا ، وللوقت كنا ننساب مسرعين على سطح بحر صقيل ، وسُرعان ما تجاوزنا المضائق ؛ وسرنا حول جانب الجزيرة الجنوبي الشرقي ، حيث قطرنا الهسبنيولا منذ أربعة أيام .

وما إن أوشكنا على تجاوز التل المزدوج القمة حتى أمكننا أن نشهد فوهة كهف «بن غن» السوداء ، وقد وقف عند مدخله شخص مستند إلى مسدسه ، وكان ذلك الشخص السيد «ترلاوني» ، فلوّحنا منديلاً في الهواء ، وهتفنا له ثلاثاً ، وشاطرنا «سلفر» هتافنا بكل حماسة .

وقد شهدنا الهسبنيولا على مسافة ثلاثة أميال منا عند مرفإ المدخل الشمالي وهي تمخر بنفسها ، وكان الجزر الأخير قد اقتلعها من موضعها ، ولو أن ريحاً شديدة عصفت بها ، أو تيار مد وجزر عنيفاً

أصابها ، كما هو الحال في المرفإ الجنوبي ، لما وُفقنا بالعثور بها مرة أخرى ، أو لوجدناها وقد شطت بمكان يتعذر معه علينا إنقاذُها .

ولم يكن قد أصابها عظيم تلف ، عدا ما كان من تحطيم شراعها الأكبر . وللوقت جهزنا مرساة أخرى ، وألقينا بها في عمق نحو عشرة أقدام من الماء ، ثم رجعنا ثانية إلى كهف «الروم» ، وهو أقرب نقطة إلى المكان الذي أودعه «بن غن» الذهب ، ثم عاد «غراي» إلى الهسبنيولا حيث عزم على أن يقضي المساء في حراستها .

وكان هناك طريق قليل الانحدار ، يصل من الساحل إلى مدخل الكهف ، فقابلنا في أعلاه السيد «ترلاوني» ، والذي استقبلني متهللاً متعطفاً ، ولم يذكر عن اختفائي شيئاً ، سواء باللوم أو التقريع ، أم على سبيل الإطراء والمديح ، بيد أن الدم تصاعد إلى وجهه ، ساعة حيَّاه «سلفر» متأدباً .

فصاح به قائلاً : «أي «جون سلفر» ، إنك لأكبر وغد دجال منافق ، لقد طلبوا إليّ ألاّ أقتلك ، وسوف لا أفعل بالضرورة ، بيد أن أرواح الرجال الذين قتلتهم تتدلى من رقبتك كأحجار الرحى» .

ثم عاد «جون» إلى تحيته وهو يقول : «شكراً لسيدي على عطفه» .

فصاح به السيد قائلاً : «لست أصرح لك يا هذا بشكري ، فإن ذلك ليُعد إهمالاً فظيعاً مني لواجبي ، ألا قف بعيداً» .

وعلى ذلك دخلنا الكهف جميعاً ، وقد كان موضعاً متسعاً ، طلق الهواء ، وفيه نبع صغير وحفرة ماء صاف نبتت في النتوء خنشارة ، أمّا أرض الكهف فكانت رملية ، وقد استلقى الكابتن «سمولت» إلى جوار نار كبيرة ، وقد لمحت بصيصاً خافتاً من لمعان غير ظاهر التألق في ركن بعيد من الكهف ، وشهدت أكواماً من الذهب ، ومكعبات شُيدت من قضبان الذهب ، وكان هذا كنز «فلنت» الذي قطعنا

المراحل وأفنينا الرواحل في سبيل الظفر به ، والذي كلفنا حتى الساعة ١٧ نفساً من رجال الهسپنيولا ، ولا يعلم إلاّ الله كم كلف العالم جمعُ هذه النقود ، وكم من دماء أهرقت في سبيلها ، وأحزان أورثت من أجلها ، وسفن أغرقت في الأعماق بسببها ، وكم من رجل شجاع حكم عليه بالمسير على المرقاة مكفوف البصر مربوط اليدين في عرض البحر ، فلم يلبث أن غدا للأسماك طعاماً ، وكم من مدفع أطلق لاغتصابها من أصحابها ، وكم من مخاز ارتكبت ، وأكاذيب اختلقت ، وفظائع مثلت لجمعها ، ومع ذلك فقد تَخلف ثلاثة على سطح الجزيرة ممن ضربوا بسهم في تلك الجرائم ـ سلفر ومورغان الهرم وبن غن ـ وقد أملوا عبثاً في الأخذ بنصيب من الكنز .

وهنا صاح بي الكابتن : «اقترب يا جيم ، لقد قمت يا بني بواجبك خير قيام ، بيد أنني لا أحسب أني وإياك مسافران في البحر معاً مرة أخرى ، فإن ما تحظى به من المحاباة والتدليل لأكثر مما أتحمّل يا بني ! وهل هذا أنت يا «جون سلفر» ، ما الذي ساقك إلى هنا يا رجل؟» .

فأجابه «سلفر» بقوله : «إنما جئت لاستئناف واجبي يا سيدي» .

فلم يزد الكابتن في رده على كلمة «آه!» .

وما كان ألذّ ذلك العشاء الذي تناولته تلك الليلة بين أصحابي ، وما كان أشهاه طعاماً تناولناه من ماعز «بن غن» المملحة ، مع بعض الأطايب ، وزجاجة نبيذ عتيق من الهسپنيولا ، ولست أحسب أن السماء أظلّت قبل اليوم قوماً أوفر منا سعادة ، أو أنعم بالاً . وقد جلس «سلفر» على مقربة منا ، وهو يكاد يكون بعيداً عن ضوء النار ، بيد أنه كان يأكل بشهية زائدة ، وعلى أتم ما يكون استعداداً لأن يقفز من موضعه كلما احتاج منّا أحد إلى شيء ما ، حتى إنه كان يشاطرنا مرحنا بهدوء ، وقد عاد فأصبح ذلك الرجل البحري الرصين الكثير الملق الذي لازمنا طوال الرحلة .

- ٣٤ -
العودة بالكنز
النهاية

عندما بزغ فجر اليوم التالي أقبلنا على عملنا مبكرين ، حيث كان لا بد لنا من نقل هذا الكم الكبير من الذهب إلى الساحل ، وقد كان منا على نحو ميل ؛ ومن ثم نقطع به في البحر أميالاً ثلاثة حتى نودعه الهسپنيولا ، ولا مشاحة في أن هذا العمل كان من المشقة بمكان على أفراد قلائل مثلنا . ولقد كان الحارس الفذ ، الذي أرصدناه على جانب التل ، كافياً لتحذيرنا من أي خطر داهم ، أضف إلى ذلك أننا ما توقعنا أن يعود الثلاثة الفارون لمناوأتنا ، حيث كانت المعركة قد أضنتهم فلم يبق لهم ثمة حاجة إلى مزيد .

وعلى ذلك فقد أقبلنا على عملنا بجد ونشاط ، فكان «غراي» و«بن غن» يسيّران القارب جيئة وذهاباً ، بينما عملنا جميعاً على نقل الذهب أكواماً إلى الساحل في أثناء الفترات التي كانا يتغيبانها . وكان الرجل القوي يحمل حمولته المؤلفة من حزمة بحبل رُبطت في طرفيه قضبان الذهب ، حيث كان يسير متمهلاً بها . ولـمّا كنت لا أستطيع أن أحمل حملاً كهذا ، فقد آثرت البقاء في الكهف طوال اليوم وجعلت أنسّق النقود المسكوكة في حقائب الخبز .

وكان الكنز مكوّناً من أخلاط متباينة من مختلف ضروب العملة ، تكاد تحكي في اختلاطها ما وجدناه في صندوق القبطان «بيلي بونز» ، بيد أنه يزيد عنه عظماً وتشكيلاً ، حتى كان منتهى جذلي في تنظيم أنواعها المختلفة ، فمَن نقود ألمانية وفرنسية ، إلى إسبانيولية وبرتغالية ،

وجنيهات إنكليزية من ذات السبعة والعشرين شلناً، وجنيهات إيطالية من ذات التسعة شلنات وبعض الشلن، وقد تباينت عصورها حتى كنت لا تكاد تعرف ملكاً تبوأ عرشاً في أوروبا منذ قرن مضى، ولا تجد له صورة على أحد هذه النقود الذهبية، أضف إلى ذلك كله ضروباً عجيبة من عملة شرقية موسومة بما تخاله حزمة من الخيوط، أو قطعة من نسيج العناكب، وفيها المستدير والرباعي، والمثقوب الوسط، الذي تحسبه ضُرب ليُجعل في العنق قلائد. ومجمل القول فقد حوى ذلك الكنز الكثير الكثير، أمّا عدد القطع فكان كعدد أوراق الأشجار المتساقطة في الخريف لا تكاد تحصيها لكثرتها، حتى إن عضلات ظهري كان يمزقها طول انحنائي، وأوشكت أناملي أن يفنيها العبث بهذه الأكوام ابتغاء تمييز أنواعها المختلفة وتنسيقها.

وقد استغرقنا في عملنا هذا أياماً، فلمّا كان مساء يوم ألفيتنا قد نقلنا إلى السفينة قدراً، وبقي علينا للغد قدر آخر، ولم نسمع في غضون هذه الأيام شيئاً من خبر الثلاثة الباقين من الثائرين. فلمّا كان من الليلة الثالثة، على ما أظن، كنت والطبيب نتمشى على جانب التل حيث نشرف على المنخفض من أراضي الجزيرة الصغيرة، وإنّا لكذلك إذ تقل إلينا الريح من جوف الظلام ضوضاء قد امتزجت به الصيحات بالأغاني، بيد أنه لم تنزل بآذاننا إلاّ بضع كلمات لم نكد نميزها حتى عاد السكون إلى نصابه.

فصاح الطبيب: «ألا سامحهم الله إنهم جماعة الثائرين».

فدوى صوت «سلفر» من خلفنا وهو يقول: «وكلهم أشد ما يكون سكراً يا سيدي».

وكنّا قد منحناه الحرية التامة فأضحى يعتبر نفسه مرة أخرى تابعاً وصديقاً ذا ميزة خاصة، بالرغم مما كان يوجه إليه في كل يوم من

سهام اللوم والتعنيف ، وشهادة لله ، فقد كان حسن الرياضة لنفسه على احتمال هذه الإهانات ، وهذا شيء عظيم الإعجاب ، فما كان أصبره في التأدب ، وأحرصه على دوام التزلف والمحاسنة للجميع ، بيد أنه لم يكن بيننا من يعامله بأحسن من معاملته لكلب ، اللهم إلاّ «بن غن» الذي كان لا يزال يمسك في قرارة نفسه بقية من الخوف الهائل من ضابطه أمير البحر ، وكنت أنا أحسن معاملته أيضاً ، بسبب ما كنت أستشعره من الاعتراف بجميله ، ولو أنه حُق لي حتى بهذه المناسبة أن أكون أسوأ الجميع ظناً به ، وقد رأيته يفكر في خيانتي مرة أخرى على الهضبة . وعليه فقد أجابه الطبيب مغلظاً : «سواء علينا أكان سكراً ما بهم أم هذياناً» .

فأجاب «سلفر» بقوله : «الحق في ما تقول يا سيدي فما كان ليعنيك أمرهم ، ولا هو يعنيني مطلقاً» .

فصاح به الطبيب مستنكراً متهكّماً وقال : «لعلك بعد الساعة لا تجسر على مطالبتي بأن أسميك إنساناً ، وإني أصرح لك رغم اعتقادي بأن شعوري سيكون مستغرباً لديك يا سيد «سلفر» بأنه لو أنني استوثقت من أنهم يهذون ـ كما أستنتج بأن الحمى لا بد أن تكون قد صرعت ثلثهم على الأقل ـ فإني لا بد تارك هذا المكان ، وطارح بنفسي مطرحاً خشناً من التغرير ، ابتغاء أن أنفعهم بطبي» .

فقاطعه «سلفر» بقوله : «إني مُستميح سيدي عذراً في أن أؤكد له بأنه إن يفعل فهو يخطئ أيما خطأ ! ولا ريبة عندي في أنك لا بد خاسر حياتك ؛ أما وقد انضممتُ اليوم إلى جماعتك ، فإنه ليحزنني أن تنقص جماعتي اليوم أحد أفرادها ، بغض النظر عن كونك أنت ذلك الفرد ، مع ما أنا مدين لك به من عظيم المعروف ؛ فإن أولئك الرجال الذين تريد المخاطرة بمعونتهم ، إنما هم قوم لا قدرة لهم على

الاحتفاظ بمواثيقهم، حتى ولو أنهم أرادوا ذلك، أضف إلى هذا أنهم لا يثقون بأحد».

فأجابه الطبيب بقوله: «لا، لقد عرفنا جميعاً بأنك أنت الرجل الذي يحتفظ بوعده!».

وقد كانت تلك الصيحات آخر ما نمي إلينا من خبر القرصان الثلاثة، اللهم إلاّ صوت طلق مدفع سمعناه على مسافة بعيدة منا، ولعل القوم كانوا يصيدون، ثم إننا عقدنا مجلساً، فقرّ منّا الرأي على تركهم مهجورين على سطح الجزيرة، فسُر «بن غن» بذلك أيما سرور، واستحسنه «غراي» كل الاستحسان، ولقد تركنا لهم كمية موفورة من البارود والرصاص، وغادرنا معظم ما كان لدينا من الماعز المملح، وبعض العقاقير الطبية، وطائفة من الضروريات، كبعض الآلات والملابس، وشراع متوفر، وقامة أو اثنين من الأمراس، ولفرط ولع الطبيب بالتدخين، فقد أصر على إهدائهم قدراً موفوراً من التبغ.

ولعل هذا كان آخر ما عملناه على الجزيرة، وكنا قبل ذلك قد نقلنا الكنز إلى السفينة وتزودنا بمقدار كاف من الماء، وبكل ما تخلف من لحم الماعز، تلافياً لما عساه أن يعرض لنا في طريقنا من التأخير.

فلمّا كان من صباح يوم رقّت غلائل صحوه، وهبت شمائل صفوه، رفعنا المرساة، فكان هذا كل ما أمكننا فعله، وقد خرجنا من المرفإ الشمالي رافعين العلم نفسه الذي رفعه الكابتن «سمولت» وحارب تحته في الدريئة».

ولا بد أن الرجال الثلاثة كانوا لا يفترون عن مراقبتنا مراقبة دقيقة ما كنا لنتوقعها، وذلك أنه كان لا بد لنا إذا نحن اخترقنا المضايق أن نسير على مسافة قريبة جداً من الرأس الجنوبي، وهنالك شهدناهم ثلاثتهم سجوداً على لسان من الرمل، وقد رفعوا سواعدهم ضارعين مبتهلين، ولا شك عندي في أن توسلهم نال من قلوبنا جميعاً، غير

أننا أشفقنا من حدوث عصيان آخر .

أضف إلى ذلك أننا لو عدنا بهم ، ثم سلمناهم للمشنقة ، لكان ذلك إشفاقاً موهوماً لا مسحة للشفقة عليه ، بيد أن الطبيب حياهم ، وأخبرهم بما خلفناه لهم من المؤن ، ودلهم على مواضعها ، ولكنهم ظلوا يرددون أسماءنا مستنجدين وهم يتوسلون إلينا أن نشفق عليهم ، ويناشدوننا الرحمة ألاّ نتركهم يموتون في ذلك المكان النائي .

ولـمّا تحققوا أخيراً أن السفينة لا تنفك سائرة في مجراها ، وقد أوشكنا أن نصبح بحيث يتعذر علينا سماع صوتهم ، انتصب واحد منهم لم أتميزه ، واستقام على قدميه ، ثم تناول مسدسه وأسنده إلى كتفه وأطلق طلقاً مر في الهواء فوق رأس «سلفر» مخترقاً الشراع الأكبر ، فلُذنا بعد ذلك بكنف الحواجز ، ولـمّا رجعت بعد دقيقة إلى التطلع كانوا قد اختفوا من فوق اللسان ، وأوشك اللسان ذاته أن يصبح غير منظور لابتعادنا عنه ؛ ولا شك أن هذا كان خاتمة المخاطر . وما انتصف النهار حتى غاصت أعلى تلال «جزيرة الكنز» في جوف البحر الأزرق .

والحقيقة أن حاجتنا إلى الرجال كانت شديدة ، فكان لا بد لجمعنا من الاشتراك في العمل ، اللهم إلاّ الكابتن «سمولت» الذي ظل راقداً على فراش في مؤخر السفينة وهو لا يفتر عن إصدار أوامره . وقد يمّمنا وجوهنا شطر أقرب ميناء في أميركا الإسبانية ، حيث لم نستطع المجازفة بالعودة إلى وطننا من غير أن نتزود برجال يعاونوننا على تسيير السفينة ، وقد عطل سيرنا هبوب بعض الرياح المضادة ، والأنواء الشديدة ، فما وصلنا الميناء حتى أشرفنا على الهلاك من شدة الإعياء .

وما إن أشرفنا على طرح المرساة قبل الغروب حتى انتهينا إلى خليج محجوب عن الرياح داخل الأرض ، فلمّا رسونا فيه أحاطت بنا مجموعات من الزنوج ، وهنود المكسيك ، والمولدين ، وهم يبيعون

الفاكهة والخضار، ويطلبون إلينا أن نلقي بعض النقود كي ينقضوا خلفها ويستخرجوها، ثم يحظون بها لأنفسهم جزاء مهارتهم، فكان مرأى هذا العدد المكتظ من الوجوه الباسمة (وخصوصاً السود منهم) ومذاق الثمار الاستوائية، وبصيص مختلف الأنوار التي بدأ يتألق وميضها في المدينة، كل ذلك إذا قارناه بتلك الفترة الموحشة التي سلخناها في الجزيرة، بين سيلان الدماء، وتمزق الأشلاء، كان مجلبة للطرب، مدعاة للحبور. وقد استصحبني الطبيب والسيد «ترلاوني» لقضاء الفترة الأولى من المساء على الشاطئ، وهنالك قابلنا ربان سفينة حربية إنكليزية فتحدث معه السيدان، وصعدوا على ظهر سفينة.

وعلى العموم فقد قضينا الوقت مسرورين، وما رجعنا إلى الهسبنيولا حتى كان الفجر قد انبلج، وكنا قد غادرنا «بن غن» منفرداً على سطح السفينة، فما إن رآنا حتى جعل يتلوى ويلوّح لنا بسر تمهيداً للإفضاء إلينا بنبإ عنده، ذلك أن «سلفر» لاذ بالفرار في أحد القوارب مذ بضع ساعات، وقد أغضى عنه «غن» حرصاً منه على أرواحنا من ذلك البحار الأحادي الساق، وظناً منه أننا كنا لا نزال في خطر ما بقي بيننا. ولم يكن هذا كل ما في الأمر فإن الطاهي لم يفرّ صفر اليدين، بيد أنه انساب من أحد الحواجز متسللاً، وظفر بحقيبة من حقائب الكنز قيمتها ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه، حتى يستعين بها على جولاته في المستقبل.

وأحسبنا جميعاً قد سرّنا تخلصنا منه بهذا الثمن البخس.

وقد ظفرنا ببعض الملاحين وأبحرنا إلى وطننا موفقين، فوصلت الهسبنيولا «برستول» في الوقت الذي أزمع فيه «بلاندلي» على تجهيز بعثة للبحث عنا. ولم يرجع من الرجال الذين أبحروا على متن الهسبنيولا إلاّ خمسة فقط، وبذا تحققت نبوءة القبطان «اشرب وإبليس

أهلك الباقي» ولو أن حالتنا لم تكن من الرداءة بحيث تنطبق عليها الأغنية التي معناها :

السفينة أبحرت بخمسة وسبعين رجلاً
عادت وليس عليها إلاّ ملاح واحد

وقد أخذ كل منا بنصيب وافر من الكنز ، وكل أحسن الانتفاع بنصيبه ، أو هو أساء ، طبقاً لاختلاف طبائعنا . أمّا الكابتن «سمولت» فقد نبذ سفر البحر ، ولم يقصر «غراي» سعيه على اقتصاد نقوده ، بيد أن ميلاً فجائياً للرفعة نزع به لأن ينشط لدرس مهنته ، ليصبح ربان سفينة ، وشريكاً في مركب جميل مستكمل العدة ، وقد تزوج وهو اليوم رب أسرة . أما «بن غن» فقد أعطيناه ألف جنيه لعله أنفقها أو هو أضاعها في ثلاثة أسابيع ، أو بالحري في تسعة عشر يوماً ، حيث عاد إلى التسول في اليوم العشرين ، فلم يسعنا إلاّ أن نكل إليه أمر حراسة أحد الأبواب .

أمّا «سلفر» فلم ينم إلينا شيء من خبره ، ولقد تخلصت من ذلك البحار الرهيب الأحادي الساق من غير أن ينالني منه عنت . بيد أنني أقول بأنه لا بد صادف زوجته الزنجية ، ولعله لا يزال يعيش منعّماً معها ، ومع ببغائه الكابتن «فلنت» ، وإني لأرجو له ذلك ، لأن راحته في الحياة الأخرى تكاد تكون مأساوية .

أمّا قضبان الفضة والأسلحة فهي لا تزال في مكانها الذي أودعها فيه الكابتن «فلنت» ، ولا شك في أنها سوف تظل كذلك ، فما كانت الثيران ، وحبال مركبات نقل البضائع ، لتقوى على ربطي وسحبي إلى تلك الجزيرة الملعونة ، وشر أحلامي ساعة أسمع الأمواج تضرب في أكناف الشواطئ ، أو عندما أهب من الفراش مذعوراً ، وصوت ببغاء «سلفر» لا يزال يدوي في سمعي وهو يردد ألفاظه المقيتة «قطع ذات الثمانية ! قطع ذات الثمانية !» .

المحتويات